

الدكتور فاضل صالح السامرائي

عَلَى طَرِيقِ
التَّفْسِيرِ الْبَيِّنِ

الْجُزْءُ الْثَالِثُ

سُورَةُ هُوَدٌ



دار التَّفسِير



رابط بديل
lisannerab.com

مَكْتَبَةُ لِسَانُ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarab.com



عَلَى طَرِيقِ
النَّفِيسَةِ الْبَهَائِيَّةِ
الْجُزْءُ الثَّالِثُ

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والسموع والخاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطى من المؤلف.

- الموضوع: تفسير
- العنوان: على طريق التفسير البصري ٤١١
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6



9 786144 152676

• الطباعة : مطابع يوسف يضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد العينو للتجليد - بيروت

• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه

• القياس: 24x17 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ

بيروت - لبنان - ص.ب: 6318/113
برج أبي حيدر - شارع أبو شفرا
تلفاكس: +961 1 817857
+961 1 705701
جوال: +961 3 204459

دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: +963 11 2225877
+963 11 2228450



website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

عَلَى طَرِيقِ الْتَّفْسِيرِ الْبَهَائِيِّ

تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجزء الثالث

سورة هود

دار ابن كثير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِنَسَأَ إِلَيْكُم مِّنْ حَيْثُ شَاءَ



سُورَةُ هُودٍ

سُمْنَةُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّٰكِنَبِ أَحْكَمَتْ إِيَّنَمْ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]

١ - تبدأ السورة التي قبلها ، أعني سورة يونس بقوله : ﴿الرَّٰكِنَبِ أَهَىَتْ أَلِكَنَبِ الْحَكِيمِ﴾ فقد وصفت الآية الكتاب بأنه ﴿حَكِيم﴾ ، وذكر في هذه السورة ، أي سورة هود ، من أحكمه فقال : إن آياته أحكمت ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ . فالذي أحكمها هو الحكيم.

وقال في بداية السورة التي بعدها وهي سورة يوسف : ﴿الرَّٰكِنَبِ أَهَىَتْ أَلِكَنَبِ الْمُئِنِ﴾ .

فإنه لما ذكر في سورة هود أن آياته أحكمت وفصلت دل ذلك على أنه مبين . فإنه لا يكون بعد الإحكام والتفصيل إلا مبيناً . فأي كتاب أحكم وفصل كان مبيناً .

فتتناسب بدايات السور المتتابعة تناسباً بدليعاً .

٢ - قال في خاتمة السورة التي قبلها وهي سورة يونس : ﴿وَأَتَيْتَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَأَصِيرَ حَقّ يَخْكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ . وما يوحى إليه هو الكتاب الذي أحكمت آياته ، فناسب قوله : ﴿خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ وصف



الكتاب بأنه أحكمت آياته . فخير الحاكمين هو الذي أحكم آياته .

وناسب قوله : ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ في آية يومن قوله في آية هود : ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ . فالحاكم قد يكون من معنى القضاة فيكون بمعنى الحاكم .

وقد يكون من الحكمة ، فالحاكم على هذا هو خير الحاكمين لأنه حكيم وحاكم . ولا شك أن الحاكم إذا كان ذا حكمة كان خير الحاكمين .

فناسب مفتاح السورة خاتمة السورة التي قبلها .

٣ - وناسب قوله تعالى في مفتاح السورة : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قوله في خاتمة السورة : ﴿فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَنِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

فإنه ناسب تبليغه لعباد الله في أول السورة بألا يعبدوا إلا الله أن يؤمر هو أيضا بعبادة ربه بقوله : ﴿فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فكلاهما مأمور بالعبادة ، المبلغ والمبلغ .

٤ - وناسبت الآية الأولى من السورة ، أي قوله : ﴿الرَّحْمَنُ أَحْكَمَ إِيمَانُهُ ثُمَّ فَصَلَّ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ قوله في خواتيم السورة : ﴿وَكَلَّ نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نُثِّيْتُ بِهِ فَوَادِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فإنه قصّ عليه ذلك في الكتاب الذي أحكمت آياته .

ثم إنه فضل ما جاء فيه ، وما جاء فيه هو الحق والموعظة والذكرى .
فهذا تفصيل لما جاء فيه .

ثم إن الذي يختار من القصص ما يثبت به الفواد إنما هو حكيم خبير .

والذي يأتي بالحق والموعظة والذكرى إنما هو حكيم خبير .

فناسب مفتاح السورة خاتمتها أبدع مناسبة .



ثم ننظر في تأليف التعبير:

فقد ذكر أنه كتاب أحكمت آياته ثم فُصلت، وذكر الذي أحكمه وفصله. فالذي أحكمه هو الحكيم الخبير، والذي فصله هو الحكيم الخبير. وهل هناك من يُحکم أفضل من الحكيم الخبير، وهل هناك من يفْصِلُ أَفْضَلَ مِنْهُ؟

ولم تجتمع هاتان الصفتان في الكتاب ، أي الإحكام والتفصيل ، في غير هذا الموضع ، وإنما قد يوصف الكتاب بأنه حكيم كما في قوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَبِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] أو أنه مفصل كما في قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] ، وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَبَ مُفَضَّلًا﴾ [الأعاصم: ١١٤].

ثم ذكر أن هذا الإحكام والتفصيل إنما هما من لدن حكيم خبير . فجمع الله لنفسه وصفي الحكمة والخبرة ، وكل من الوصفين من أوصاف الكمال . ثم ما أَجَلٌ هذين الوصفين ههنا ! فالحكيم هو ذو الحكمة البالغة وهي إحسان القول والعمل ووضعهما موضعهما الذي ينبغي أن يكونا فيه .

والخبير هو الذي يعلم بواطن الأمور وخبرها . فما أَجَلٌ هذا الكتاب الذي أحكمه وفصله الحكيم الخبير !

وقد يكون لفظ الحكيم من معنى الحكم وهو القضاء ، فيكون المعنى أنه أحکم آياته الحاکم الذي بيده الأمر فدل ذلك على علو مكانته . لأن أهمية الكتاب إنما تكون في أمرین :

في الجهة التي أصدرته ، فكتاب الموظف الصغير غير كتاب المدير ، وهذا الأخير غير كتاب الوالي ، وهذا غير كتاب السلطان أو الخليفة . فكلما علت جهة من أصدره علا هو أيضاً على حسب تلك الجهة .

والأمر الآخر الذي يدل على أهمية الكتاب هو محتواه ، فإذا كان من



أصدره حكيمًا والحكمة محتواه علت جهته أيضًا.

وهذا الكتاب إنما دل على علوه ورفعته كل مقتضيات العلو والرفة.

فإنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، وهو من لدن حاكم وحكيم وخير. ومحتواه طلب توحيد العبادة لخالق الكون. وقد أرسله هذا الخالق منه إلى من يبلغه عنه. فأية رفعة أعلى من هذه؟

ولما كان هذا شأن الكتاب ومن أنزله ذكر تعظيم هذا الكتاب وعلوه في السورة في أكثر من موضع ، وتحدى المعاندين لأن يأتوا بسور من مثله في أكثر من موضع .

فقد قال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلُّ فَاتِرٍ هُنَّ بِعِشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، مُفْتَرِيَتِ وَادِعَاوَامِنِ اسْتَطَعُتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴾[١٦] فَإِنَّمَا يَسْتَحِبُّو لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ عِلْمٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنَّ لَآءَهُ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤ - ١٣].

وقال : ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلُّ فَاتِرٍ هُنَّ أَفْتَرِيُتُمْ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تُبْخِرُمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال : ﴿تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوَحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنَّ وَلَا قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَرْقَبَةَ لِلْمُنْتَقِيِنَ﴾ [هود: ٤٩].

فذكر أن ما ذكره من قصة نوح إنما هي من أنباء الغيب ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا ، أي إن هذا أول علمهم به . وهل أدلّ من ذلك على أن هذا الكتاب إنما هو من علم الله وأنه أنزله إليه؟

وقال : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَصَّصْتُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

وقال : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَسِيْتُ بِهِ، فَوَادِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ

الْحَقُّ وَمَوْعِدَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ [هود: ١٢٠].
 فهل هناك أجل من هذا الكتاب؟!
 إن معنى ﴿أَحْكَمْتَ أَيَّاثُمْ﴾ «نظمت نظماً رصيناً لا يقع فيه نقض
 ولا خلل» ^(١).

«وَإِنَّ الْفَاظَ هَذِهِ الْآيَاتِ بَلَغَتِ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْجَزَالَةِ إِلَى حِيثُ لَا تَقْبِلُ
 الْمَعَارِضَةُ» ^(٢).

ومعنى (فصلت) أنه فُصل فيها ما يحتاج إليه العباد ^(٣).
 وجاءت (ثم) لترتيب الإخبار لا لترتيب الواقع في الزمان.
 جاء في (الكاف) : «إِنْ قَلْتَ مَا مَعْنَى (ثُمَّ)؟
 قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول: هي
 محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل
 ثم كريم الفعل» ^(٤).

* * *

﴿أَلَا تَبْدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لِكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

يتحتمل أن يكون المعنى على التعليل ، أي لئلا تعبدوا إلا الله ، ولام
 التعليل حذفت وهو من الحذف المقيس ، ويتحتمل أن تكون (أن) مفسرة
 و(لا) نهاية ، والمعنى (لا تعبدوا إلا الله). وقيل: المعنى (أمركم أن لا
 تعبدوا إلا الله) ^(٥).

(١) الكاف ٢/٨٩، وانظر البحر المحيط ٥/٢٠٠.

(٢) تفسير الرازبي ١٨/٣١٣.

(٣) الكاف ٢/٨٩، وانظر تفسير الرازبي ١٨/٣١٣.

(٤) الكاف ٢/٩٠، وانظر البحر المحيط ٥/٢٠٠.

(٥) انظر الكاف ٢/٩٠، البحر المحيط ٥/٢٠٠.



وجميع هذه المعاني محتملة وهي مراده ، فإنه أحکم الآيات وفصلها لئلا يعبدوا إلا الله ، وأنه نهاهم أن يعبدوا إلا الله ، وأمرهم بألا يعبدوا إلا الله .

وهذا من التوسيع في المعنى ، فإنه جمع كل هذه المعاني في تعبير واحد . ولو قال : (لئلا تعبدوا) أو (أمركم بألا تعبدوا إلا الله) لدل على معنى واحد .

فإن كل المعاني المحتملة مراده وأطلق التعبير ليشملها كلها والله أعلم .
وقال (إنني) بذكر نون الوقاية مع (إن) ولم يقل : (إنني لكم منه نذير وبشير) بنون (إن) وحدها ، وذلك أنه ذكر وصفين للكتاب مما الإحكام والتفصيل ففصل بذكر النونين ، وذكر وصفين في المبلغ وهو الإنذار والبشرة ، فقال : (نذير وبشير) فناسب ذلك أيضاً أن يذكر النونين : نون إن^(١) ونون الوقاية .

ويذلك على ذلك أنه إذا أفرد الإنذار قال : «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» بنون (إن) وحدها في أكثر من موضع^(٢) . فلما زاد البشرة على الإنذار ذكر نوناً آخرى .

وقدم الإنذار على البشرة ه هنا ذلك أن جو السورة إنما هو في إنذارات الرسل لأقوامهم .

في حين قدم البشرة على الإنذار في سورة فصلت فقال : ﴿ حَمٰ ۖ تَزَرِّيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۚ كَتَبْ فُصِّلَتْ إِيَّنْهُ قُرْءَانًا عَرِيبًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت : ٤ - ١] ذلك أنه ذكر أنه

(١) بما في الحقيقة نونان لا نون واحدة .

(٢) انظر سورة هود : ٢٥ ، الحجر : ٨٩ ، الذاريات : ٥١ ، ٥٠ ، نوح : ٢ .

تنزيل من الرحمن الرحيم فناسب تقديم البشارة مع اسميه الرحمن الرحيم ولا يناسب تقديم الإنذار.

ولما قدّم البشارة في سورة فصلت ذكر بشارة الملائكة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْدَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُشِّمَتْ تُوعَدُونَ ۚ﴾ [٣٠] ﴿نَحْنُ أَوْلَئَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شَتَّهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۚ﴾ [٣٢] ﴿نُزُّلًا مِّنْ عَفْوِيْرِ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

ومن الملاحظ أنه لم يجمع رسول من الرسل على لسانه أنه بشير ونذير إلا سيدنا محمد فقد قال في الأعراف: ﴿إِنَّا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ لِّقَوْمٍ يُقْرَنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال هنا في سورة هود: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ﴾

وقدم الجار وال مجرور (لكم) على (منه) لأنهم هم المخاطبون وهم المنذرون وهم المأمورون بالعبادة والكلام عليهم لا على الله .

وقد تقول: ولم يقول أحياناً (إنني لم منه نذير مبين) بذكر (منه) كما في الذاريات ٥٠ ، ٥١ ، ويقول في سياق آخر: (إنني لكم نذير مبين) من دون ذكر (منه) كما في هود ٢٥ ، نوح ٢؟

فنقول: إذا تقدم ما يعود عليه الضمير ذكر (منه)، وإن لم يتقدم ما يعود عليه الضمير لم يذكر (منه).

وإيضاح ذلك أنه قال في هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، فلا يصح أن يقول: (منه) لأنه لا يعود على شيء .

وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنَّ أَنِّي رَوَمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢ - ١] فلا يصح أن يقول

(منه) لأنَّه لا يعود على شيء.

بخلاف قوله تعالى في الذاريات: ﴿فَقَرُوأُ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] فقد ذكر (منه) لأنَّ الضمير يعود على لفظ الجلالة وهو (الله).

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَى إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١] فقد عاد الضمير في (منه) على (الله).

وكذلك آية هود هذه وهي قوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فقد قال (منه) والضمير يعود على (الله).

ولو لم يقل (منه) لم يدل على أنَّ الله هو الذي أمره بالإذار والتبيير.

* * *

﴿وَإِنَّ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعِتَّعُكُمْ مَنْعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ شَمَسَّى وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]

قدم الاستغفار على التوبة لأنَّ الاستغفار إنما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأما التوبة فتالية له ، ومن شروطها عدم العودة على ما أسلف من المعصية .

جاء في (البحر المحيط): «أمر بالاستغفار من الذنوب ثم بالتوبة ، وهما معنيان متبايان ، لأنَّ الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر ، والمعنى أنه لا يبقى لها تبعه .

والتبعة الانسلاخ من المعاichi والندم على ما سلف منه والعزم على عدم العودة إليها»^(١).



وجاء في (تفسير الرازي) : «في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب ، ثم توبوا إليه في المستأنف . . .

(الوجه الرابع) : الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبعي.

والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبعي ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله .

ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتولى به إلى دفع المكروه . والاستعانة بفضل الله مقدمة على الاستعانة بسعي النفس »^(١) .

* * *

﴿يُمْتَكِّمُ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمٍّ﴾

المتاع الحسن هو الأمان النفسي واطمئنان القلب إلى ما قدر الله والرضا به والقناعة بما قسم الله له ورجاؤه في الله وثوابه وإفاضة النعم على المجتمع المؤمن والتكافل فيما بينهم ومعاونة أحدهم الآخر وسلامة النفس وسلامة المجتمع ، وهذا كله من المتاع الحسن ، بخلاف الكافر فإنه في قلق نفسي والخوف من زوال النعم والجزع عند المصيبة .

وهذا كله من المتاع الحسن وليس كل المتاع حسن .

جاء في (البحر المحيط) : «المتاع الحسن: الرضا باليسير والصبر على المقدور ، أو حسن العمل وقطع الأمل ، أو النعمة الكافية مع الصحة والعافية . . . أو لزوم القناعة وتوفيق الطاعة . . .



وقال [يعني ابن عطية]: ووصف المتعاج بالحسن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفي فرحة بالتقرب إليه بمفروضاته والسرور بمواعيده.

والكافر ليس في شيء من هذا»^(١).

وسمى منافع الدنيا بالمتعاج «لأجل التنبيه على حقارتها وقتلها. ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّ﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيقة خسيسة منقضية»^(٢).

* * *

﴿وَيُؤْتَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾

«الضمير في (فضله) يحتمل أن يعود على الله تعالى ، أي يعطي في الآخرة كل من كان له فضل في علم الخير وزيادة ما تفضل به تعالى وزاده .

ويحتمل أن يعود على (كل) أي جزاء ذلك الفضل الذي عمله في الدنيا لا يبخس منه شيء»^(٣).

فهذا التعبير يحتمل معนدين :

الأول: إن الضمير في (فضله) يعود على صاحب الفضل ، فالله يؤتى فضله لا يبخس منه شيئاً بل يزيده .

والآخر: أن يعود الضمير على الله ، أي إن الله يؤتي فضله من كان ذا فضل .

(١) البحر المحيط ٢٠١/٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣١٦/١٨ .

(٣) البحر المحيط ٢٠١/٥ .



والمعنىان صحيحان وهم مرادان وهو من التوسع في المعنى.

* * *

﴿وَإِن تَوَلُوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

(تولوا) أي تولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر التاءين في هذا الفعل كان الموقف أشد، وإذا كان أخف خفف بحذف إحدى التاءين.

فقد ذكر هنا أنه إن تولوا خاف عليهم عذاب يوم عظيم، ولم يقل إنه يعذبهم وإنما خاف عليهم العذاب، والخوف عليهم لا يقتضي وقوع المخوف.

في حين قال: ﴿وَإِن تَتَوَلُوا كَمَا تَوَلَّتُم مِن قَبْلٍ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

[الفتح: ١٦]

فقد ذكر أنهم إن تولوا يعذبهم عذاباً أليماً ولم يقل إنه يخاف عليهم العذاب.

ثم إنه وصف العذاب بأنه أليم ، وه هنا وصف اليوم ولم يصف العذاب.

وقال على لسان هود لقومه: ﴿وَلَا تَنْتَلِوْا بِجُرْمِينَ﴾ [هود: ٥٢] بتاءين.

وقال على لسانه أيضاً: ﴿فَإِن تَوَلُوا فَقَدْ أَنْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧] بتاء واحدة.

وسياق الآية الأولى أشد ، ذلك أنه قالوا له بعد أن قال لهم ذلك:

﴿قَالُوا يَدْهُودُ مَا جِئْنَا بِهِنَّةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ إِلَهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^{٥٣} [إن تقول إلا أعرابك بعض إلهتنا سوء] [هود: ٥٤ - ٥٣].

في حين لم يقولوا شيئاً بعد قوله: ﴿فَإِن تَوَلُوا فَقَدْ أَنْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾



وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

[آل عمران: ٣٢]

فقد ذكر أنهم إن تولوا عن طاعة الله والرسول فإن الله لا يحب الكافرين ولم يذكر عذابهم أو عقابهم.

وقال: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأనفال: ٢٠].

والخطاب للمؤمنين، ولم يطلق التولي بل خصه بالتولي عن الرسول. ولما كان المخاطبون مؤمنين فإنه نهاهم عن شيء من التولي من باب التحذير.

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَغُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [النور: ٥٤]

فلم يذكر عاقبة التولي إلا أن عليه ما حُمل وعليكم ما حُملتم وإن طباعوه تهتدوا.

في حين قال: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلُّوْا يَسْتَبِدُّ فَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

* * *

﴿ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

اليوم الكبير هو يوم القيمة.

ولم يرد في القرآن (إنني أخاف) بنون الواقية مع (إن).

* * *

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود: ٤]

قَدَّمَ الْخَبْرُ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ (إِلَى اللَّهِ) عَلَى الْمُبْتَدَأِ (مَرْجِعُكُمْ) لِلدلَّةِ عَلَى الْقَصْرِ وَالْاِخْتِصَاصِ ، فَإِنَّ الْمَرْجِعَ إِلَيْهِ حَصْرًا لَا إِلَى غَيْرِهِ^(١).

وقال : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ولم يقل : (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا) كما قال في آيات أخرى^(٢) ، ذلك أنه حيث ذكر الجميع ذكر جهات متعددة مختلفة ومعتقدات متباعدة ، بخلاف آية هود هذه فإنه ذكر جهة واحدة.

قال تعالى : ﴿وَأَنَزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَمِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شَرِعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَّ لَيَسِّلُوكُمْ فِي مَا أَتَنَّكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِي يَوْنَىكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

فقال : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ذلك أن السياق الذي جرى فيه ذكر هذه الآية في ذكر معتقدات وأحوال اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار ، وذلك من الآية الحادية والأربعين إلى الآية السابعة والأربعين . ثم يستمر الكلام على الملل المختلفة فناسب ذكر الجميع .

ونحو ذلك ما جاء في الآية الخامسة بعد المائة من سورة المائدة فإنها في سياق ذكر أكثر من جهة . فإن السياق في ذكر الكافرين والمؤمنين .

فقد جاء قبل هذه الآية قوله : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَابِقَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٥٦] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ إَبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣ - ١٠٤].

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/٣١٧.

(٢) انظر المائدة: ٤٨ ، ١٠٥ ، يونس: ٤.



ثم التفت إلى الذين آمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا آتَيْنَاكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا آهَنَتَهُ شَمْهُ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبَّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي إلى الله مرجعكم جميعاً من الكافرين والمؤمنين، فناسب ذكر الجميع.

وكذلك سياق آية يونس فإنه في ذكر أكثر من جهة. فهو في سياق جهتي الكافرين والمؤمنين.

فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبِشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسُنْحَرٌ مُّثِينٌ ﴾ [يونس: ٢].

يجعلهم قسمين:

القسم الأول: وهم المؤمنون الذين بشرهم ربهم.

والقسم الآخر: هم الكافرون الذين قالوا إن هذا ساحر مبين.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًا إِنَّمَا يَبْدُؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

ذكر المؤمنين والكافرين.

أما آية هود هذه فإن المخاطبين فيها صنف واحد.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحْكَمَ مَا إِنْتُمْ مُّضِلُّونَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿ ١﴾ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ ﴿ ٢﴾ وَإِنَّ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ يُمْنَعُكُمْ مَّنْعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمٍّ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلَةٍ وَإِنَّ تَوَلَّوْا فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ كَبِيرٌ ﴿ ٣﴾ إِلَى اللَّهِ

مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [هود: ٤ - ١].

فالمخاطبون إما أن يستغفروا ربهم فيمتعهم أو يتولوا فيعذبهم، ولم يجعلهم قسمين: قسمًا مؤمناً وآخر كافراً. فهم إما أن يؤمنوا أو يتولوا. في حين أن كل الذين قال فيهم: **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** كانوا أكثر من صنف وأكثر من جهة.

* * *

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلَمُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [هود: ٥]

قيل: إن بعض المنافقين «كان إذا مر بالرسول ﷺ ثني صدره وظهره وطأطأ رأسه وغضي وجهه كيلا يرى الرسول . . .»

وقيل: فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسول ﷺ ولا يدخل أسماعهم القرآن»^(١).
ومعنى (ثني رأسه) طواه.

«وقيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثنوا صدورهم كالمتستر ، ورددوا إليه ظهورهم ، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعدًا منهم وكراهية للقاءه ، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه أو عن الله تعالى ، فنزلت الآية»^(٢)

وذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرعون وما يعلونون ، ليدل على أنه يراهم ويراقبهم ويعلم فعلهم ونواياهم .

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٢.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٠٣.



فأفاد التعبير الرؤية والمراقبة والعلم وليس مجرد العلم من دون رؤية ومراقبة .

وأفاد أنه حين يفعلون هذا الفعل يعلم ذلك ويعلم لم فعلوه ؟ ولئلا يظن أن علمه محصور فيما يفعل من ظواهر الأمور ، وأن علمه مقيد في ذلك الحين قال : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ، ليدل على إطلاق علمه من غير تقييد . فدلل بذلك على أنه يعلم الإعلان والإسرار على كل حال عند الفعل وقبله وبعده .

فأفاد التعبير :

١ - الرؤية والمراقبة .

٢ - ذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم أي في وقت الفعل لا بعده بعد التأمل والتفكير أو الاستفسار أو مجيء الخبر أو ظهور ما يدل على ذلك فيما بعد .

وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ فيه احتمالان :

الأول : أن تكون (ما) مصدرية ، أي يعلم إسرارهم وإعلانهم .

والآخر : أن تكون اسمًا موصولاً . والمعنى أنه يعلم الذي يسرونه والذي يعلنونه من الأمور .

والمعنيان مرادان ، فإنه يعلم الإسرار الذي يسرّونه ، ويعلم الإعلان الذي يعلنونه .

وهذا من التوسيع في المعنى ، ولو ذكر العائد فقال : (ما يسرونه وما يعلنونه) لدل على شيء واحد وهو الاسم الموصول . فكان ما ذكره أولى لأنه عَمَّ المعنيين .

لقد قال هنا : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ ، وقال في النمل : ﴿وَيَعْلَمُ

مَا تُخْفِنَ وَمَا تُعْلَمُونَ» [النمل: ٢٥] فذكر الإخفاء دون الإسرار ، ذلك أن الإسرار قد يكون في النفس كما قال تعالى: «فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّلْهَا إِلَّاهَمْ» [يوسف: ٧٧].

وقد تُسِرُّهُ إلى غيرك ، قال تعالى: «وَإِذْ أَسَرَ النَّبِيَّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا» [التحرير: ٣] ، وقال: «تُسَرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَةِ» [المتحنة: ١] ، وقال: «فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بِنَهْمٍ وَاسْرُوا النَّجْوَى» [طه: ٦٢].

وغالباً ما يكون في الفعل والقول . جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الإسرار خلاف الإعلان . قال تعالى: «سِرًا وَعَلَازِيْكَةً» . . . ويستعمل في الأعيان والمعاني . . .

وأسرت إلى فلان حديثاً: أفضيت إليه في خفية . قال تعالى: «وَإِذْ أَسَرَ النَّبِيَّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا» [التحرير: ٣] . . .

فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه بالسر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره . فإذا ذكر قولهم: (أسرت إلى فلان) يقتضي من وجه الإظهار ومن وجه الإخفاء»^(١) .

وفي (لسان العرب): «أَسَرَ إِلَيْهِ حَدِيثًا أَيْ أَفْضَى»^(٢) .

أما الإخفاء فكأنه أخفى من السر . قال تعالى: «فَإِنَّمَا يَعْلَمُ الْمُتَرَّ وَأَخْفَى» [اص: ٧] .

وقد يكون في الأشياء التي تسترها عن الناظر من الحاجات والبضائع ، تقول: (أخفيت البضاعة تحت الأرض أو في صندوق) أي سترتها .

(١) المفردات في غريب القرآن (سر).

(٢) لسان العرب (سر).



جاء في (المفردات في غريب القرآن): «خفي الشيء خفية إذا استتر... وأخفيته: أوليته خفاء وذلك إذا سترته. ويقابل به الإبداء والإعلان» ^(١).

أما قوله تعالى في النمل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] دون (ما تسررون وما تعلنون) فالسياق يوضح ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ذلك أنه ذكر أنه يخرج الخبر. أي ما هو خافٍ أو مُخفي.

والخبر «يقال لكل مدخل مستور» ^(٢). و«خبر الشيء يخبوه: ستره... الخبر كل ما غاب» ^(٣).

فلما ذكر المخبوء ناسب ذكر الإخفاء لأن المخبأ مخفى.

وقال تعالى: ﴿تُشْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ [المتحنة: ١].

فقال: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿تُشْرُونَ إِلَيْهِم﴾ ولم يقل: (وأنا أعلم بما أسررتكم وما أعلنتكم) ذلك لأنه أفاد أنه يعلم الدافع الذي أخفوه في أنفسهم من هذا الإسرار. فإنك قد تسرّ شيئاً لشخص وأنت تبتغي غرضاً من ذلك تخفيه في نفسك ، فربما يعلم ذلك الأمر وماذا أخفيت. ولو قال: (وأنا أعلم بما أسررتهم) لكان ذلك ينصرف إلى إسرارهم بالموافقة دون الغرض الذي يخفيه أصحابه.

وقال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]

(١) المفردات في غريب القرآن (خفي).

(٢) المفردات (خبر).

(٣) لسان العرب (خبر).



دون (ما نسرّ وما نعلن) ذلك لأنه قال بعدها: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وقال في موطن آخر: ﴿وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِمُونَ﴾ [القصص: ٦٩] دون (ما يسرّون) أو (ما يخفون) وذلك لسبب آخر. فإن (الكِنْ) هو ما تحفظ فيه من الأشياء التي تريد صونها. والـكِنْ «ما يحفظ فيه الشيء»، يقال: كنت الشيء كَنًا جعلته في كِنْ وَخُصْنَ. وكنت بما يُستر بيت أو ثوب وغير ذلك من الأجسام... .

وأكنت بما يستر في النفس... . وجمع الـكِنْ أكنان.

والـكنان: الغطاء الذي يكن فيء الشيء»^(١).

وفي (السان العربي): «الـكِنْ والـكِنْة والـكنان: وقاء كل شيء وستره... . كنت الشيء أي جعلته في كن... . والأكنة: الأغطية»^(٢).

قال تعالى: ﴿كَانُوكُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] ، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَثَنَا﴾ [النحل: ٨١] أي وقاء وستراً تختون بها وتحفظون أنفسكم.

وقال: ﴿وَقَالُوا قُلُونَا فِي أَكْنَتَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أي في صناديق مقفلة فلا يصل إليها شيء من دعوته.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وذات الصدور «الأسرار المستكنة فيها أو القلوب التي في الصدور»^(٣).

(١) مفردات الراغب (كن).

(٢) لسان العرب (كن).

(٣) روح المعاني ١١/٢١١.



وقال (علیم) دون (یعلم) للدلالة على ثبوت العلم ودوامه .

جاء في (روح المعانی): «وكان التعبير بالجملة الاسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالمًا بذلك . وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي»^(١) .

وقال : (علیم) دون (عالم) أو (علام) ، لأن كلمة (عالم) خُصت في الاستعمال القرآني بعلم (الغیب) مفرداً ، أو (علم الغیب والشهادة) ، ولم تستعمل في غير ذلك ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْرِهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ٢٦] ، قوله ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةَ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

وأما (علام) فقد خص استعمالها متعلقة بـ (الغيوب) جمع الغیب نحو ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَمُ الْعُيُوبِ﴾ [المائدة : ١٠٩ - ١١٦] وذلك أنه لما كان هذا الوصف للمبالغة والتکثیر جاء بالجمع معه مناسبة للتکثیر .

وأما (علیم) فقد استعملها غير مختصة بمعلوم معین ، فقد يستعملها مطلقة من كل متعلق نحو ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٢] ، أو يجعلها متعلقة بكل شيء فلا ترك شيئاً إلا شملته نحو ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٩] . أو يعلقها بمجموع ولا يعلقها بمفرد نحو ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ٩٥] ، أو يعلقها بما ارتبط بالمجموع وذلك نحو ﴿وَمَا تَقْعُلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢١٥] فإنه جمع الفاعلين فقال : ﴿وَمَا تَقْعُلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ، قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤] فذكر الصدور وليس صدرًا واحداً^(٢) .

(١) روح المعانی ١١ / ٢١١ .

(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) .

فانقض ما قلناه.

* * *

﴿ وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رُزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَهَا وَمُسْتَوْدِعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]

«الدابة» اسم لكل حيوان ذي روح ذكرًا كان أو أنثى ، عاقلاً أو غيره^(١) ويحتاج إلى رزق^(٢).

والمعنى : أن كل دابة في الأرض ضمن الله لها رزقها وهو يعلم مستقرها ، وهو الموضع الذي استقرت فيه قبل مجئها إلى هذه الدنيا سواء كانت في صلب أم رحم أم بيضة . وما تستقر فيه حيث تأوي إليه من الأرض . ويعلم مستودعها وهو الموضع الذي تموت فيه وتدفن^(٣) .

وقد تقول : ولم قال : ﴿ وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ فشخص الدابة التي في الأرض ولم يذكر ما في السماء مع أنه ذكر دواب السماء في آية أخرى . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَبَّةٍ ﴾ [الشورى : ٢٩]؟

فنقول : إن السياق قبل الآية وبعدها على من في الأرض وعلى سكان الأرض ، بل إن السورة عموماً في الكلام على أهل الأرض والأمم التي عاشت فيها .

فناسب ذكر دواب الأرض .

(١) روح المعاني ٢/١٢ .

(٢) البحر المحيط ٤/٥ . ٢٠٤

(٣) انظر الكشاف ٢/٩١ ، البحر المحيط ٤/٥ . ٢٠٤

ثم إنَّه سبق أن قال في آية قبل هذه الآية: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] فذكر قدرته على كل شيء ، فدخل في ذلك دواب السماء وغيرها .

وإضافة إلى ذلك فإنَّه قال بعد هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [هود: ٧] فذكر أنه هو الذي خلقهما فدخل في ذلك دوابهما .

وقال في آخر السورة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] فذكر أنَّ له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وأنَّه إليه يرجع الأمر كله حسراً لا إلى غيره . فلا أمر من الأمور خارج عنه وعن إرادته ، فدخل في ذلك دواب الأرض والسماء وإن أمر ذلك راجع إليه . فتضمن ذلك دخول دواب السماء في أمره كدخول دواب الأرض ، غير أنه لما كان السياق في سكان الأرض ناسب ذكر ما يسكن في الأرض من الدواب .

ومن الطريف أن نذكر أيضًا أنه ذكر الأرض في السورة أكثر مما ذكر السماء والسماء .

فقد ذكر الأرض في السورة إحدى عشرة مرة ، وذكر السماء والسماء ست مرات ، مما يدل على أن الجو العام إنما هو في الأرض أكثر مما في السماء والله أعلم .

إن هذه الآية متصلة بقوله تعالى في آية سابقة: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذلك لأنَّ الذي يضمن لكل دابة رزقها ويوصله إليها إنما هو على كل شيء قادر .

ومتصلة بقوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْصَّدُورِ﴾ فإنه ذكر جانبًا من علمه هناك ، وذكر جانبًا آخر هنا . فإنَّ الذي يعلم مكان كل دابة في الأرض ويوصل إليها رزقها ويعلم



مستقرها ومستودعها إنما هو الذي يعلم الإسرار والإعلان وهو العليم بذات الصدور.

ثم ذكر علمه بكل دابة في الأرض ومكانها ومستقرها فاستغرق علمه بكل الأحياء.

ثم ذكر علمه الذي لا يحد ، فإنه علم كل ذلك قبل وجود هذه الأشياء وسطر ذلك في كتاب مبين في اللوح المحفوظ.

أما تأليف الآية فإنه جاء فيها بـ (من) الاستغرافية التي تستغرق كل ما يدب على الأرض.

ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقدم الخبر (على الله) على المبتدأ (رزقها) وذلك للحصر للدلالة على أن رزقها عليه حصرًا لا على غيره. ولو قال: (إلا رزقها على الله) لم يفدي أن رزقها عليه حصرًا.

فهناك قصران:

الأول: (إلا) في الاستثناء المفرغ.

والآخر: تقديم الخبر.

وقد تقول: لو قال: (كل دابة على الله رزقها) لأفاد العموم أيضًا لأن كلمة (كل) تفيد العموم.

فنقول: إن هذا التعبير الذي ذكرته لا يفيد قصر المبتدأ على جملة الخبر وإنما هو إخبار من غير قصر ، وإنما القصر في جملة الخبر (على الله رزقها) وليس في (كل) مع جملة الخبر.

أما التعبير القرآني فإنه أفاد أنه حصر كل دابة على رزق الله وحصر الرزق على الله . وإيضاح ذلك أنك تقول:

(كل رجل كتاباًقرأ)



وتقول : (ما من رجل إلا قرأ كتابا)

وتقول : (ما من رجل إلا كتابا قرأ)

فالجملة الأولى خصصت فيها القراءة بالكتاب وأنه لم يقرأ غير الكتاب .

والجملة الثانية خصصت فيها الرجل بقراءة الكتاب ، ولم تخص القراءة بالكتاب دون غيره ، فقد يكون قرأ أيضاً غير كتاب . فقد ذكرت أن كل رجل قرأ كتاباً ولم يبق رجل لم يقرأ كتاباً . فأخبرت عنهم جميعاً أنهم قرؤوا كتاباً ولم تستثن أحداً من قراءة الكتاب ، غير أنه قد يكون فيهم من قرأ غير كتاب أيضاً ، فقد يكون قرأ مجلة أو غير ذلك مما يقرأ .

فإن قلت : (ما من رجل إلا كتابا قرأ) كنت خصصت الرجل بالقراءة ، وخصوصت القراءة بالكتاب .

فالآية تفيد حصر الدابة على رزق الله ، وحصر الرزق على الله .

ثم قال : (كلّ) أي كل ذلك عن كل دابة مدون في كتاب قبل خلقها .

وهذا الكتاب يبين كل شيء عنها .

فتضمنت الآية قدرة الله وعلمه على أتم حال .

١ - فقد جاء بـ (من) الاستغرافية الدالة على الشمول .

٢ - وقال : (دابة) وهو يشمل كل ما يدب من الأحياء وهو أعم شيء في الأحياء .

٣ - وقال : «**عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**» فقصر الرزق على الله دون غيره .

٤ - وقال : «**إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**» فقصر الدابة على رزق الله .

٥ - وقال : «**عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**» ولم يقل (الله يرزقها) مثلاً للدلالة على أنه

ضمن لكل دابة رزقها وتكفل بذلك فهو يوصله إليها.

٦ - قال ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَهَا﴾ ، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، والتقدير: (وما من دابة إلا يعلم الله مستقرها ومستودعها) فلا تندر عن علمه دابة.

٧ - قال: (مستقرها) وهو يشمل كل موضع تستقر فيه أو استقرت فيه وكل أنواع الاستقرار سواء كان ذلك قبل مجئها على هذه الحياة أو في حال وجودها في هذه الحياة أو بعد ذلك حيث كانت أو حيث تكون ، وأين كانت قبل مجئها سواء كانت في رحم أم بيضة أم صلب ، وبعد مجئها حيث تستقر وتأوي وحيث تكون بعد هلاكها.

ويعلم استقرارها أيضاً ، فكلمة (مستقر) تدل على اسم المكان والمصدر واسم الزمان. فهو يعلم الاستقرار وموضع الاستقرار وزمان ذلك ومتى يكون.

٨ - قال: (ومستودعها) بعد الموت وحيث تفرق أجزاؤها.
فعلم كل أحوالها من السكون والحركة في الحياة وقبل الحياة وبعد الموت.

وقد تقول: إنه ذكر المستقر والمستودع ، والمستقر هو موضع الاستقرار ، والمستودع حيث تهلك وحيث مدفنتها ، ولكن لم يذكر هنا أنه يعلم مكان تحركها.

فنقول: لما قال: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ دل ذلك على أنه يوصله إليها حيث كانت ، متحركة أو ساكنة ، فشمل علمه كل شيء من أحوالها.

٩ - قال (كل) وهي أدل لفظة على العموم ، أي كل دابة وكل أحوالها وكل شيء عنها وما ضمن لها من رزق إنما هو مدون في كتاب.



١٠ - (في كتاب) أي مدون ومسطور قبل الخلق ، وذلك يدل على عظيم علمه وقدرته ، فإنه علم كل شيء قبل وجوده ، وإن كل شيء يكون على ما دون . وذلك يدل على عظيم العلم والقدرة .

١١ - وقال : (مبين) أي مبين كل شيء عنها بالتفصيل .

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيْكُمْ أَحَسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْغُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٧]

بعد أن ذكر قدرته وعلمه بالبشر وعموم الأحياء ذكر قدرته وعلمه بعموم الخلق فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي هو لا غيره .

فهو الذي خلقهن حسراً فلم يعبد سكانهما غيره ؟

فارتبط ذلك بقوله : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ﴾ [هود: ٢] .

وقال : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ فدل على أنه الملك والمالك والحاكم لأن صاحب العرش هو الملك .

ودل على أن ملكه وحكمه قديمان ، فإنه الملك قبل أن يخلق السماوات والأرض فإنه كان عرشه على الماء . فهو رب العرش العظيم ورب ما كان عليه العرش .

وقال : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيْكُمْ أَحَسَنُ عَمَلاً ﴾ أي ليختبركم ، ومعنى ذلك أنه خلق السماوات والأرض لحكمة وليس عيناً ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينَ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩] فدل على أنه حكيم .

ثم ذكر عاقبة هذا الابتلاء وأنه لم يتركهم سدى ، بل سيبعثهم بعد



الموت ليجزيهم على ما قدموا فقال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فدل على أن لهذا الاختبار جزاء بعد الموت.

١ - فارتبط قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

٢ - وارتبط ذلك بقوله: ﴿حَكِيمٌ خَيْرٌ﴾ فإن الذي خلق السماوات والأرض بهذا النظام المحكم الدقيق إنما هو حكيم خير.

٣ - وارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ بقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ بمعنى الحكم. فصاحب العرش إنما هو الحاكم.

٤ - ودل قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ بأن حكمه وملكه قد يمان وليس حادثين ، فإن ذلك قبل خلق السماوات والأرض.

٥ - ودل قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أنه إنما فعل ذلك لحكمة ، فارتبط ذلك بقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٌ خَيْرٌ﴾ بمعنى الحكمة والخبرة.

والذي يعلم أحسن الأعمال إنما هو الخبر.

فارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ باسمه الحكيم من الحكم.

وارتبط قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ باسمه الحكيم من الحكمة ، وارتبط باسمه الحكيم من الحكم والقضاء ؛ لأن الذي يحكم في الأعمال حسنها وأحسنها إنما هو الحاكم ذو الحكمة.

٦ - وارتبط قوله: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ بقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجَعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



٧ - وارتبط قوله : ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بقوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿وَلَيْنَ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] ذلك أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان بمقدوره أن يقول لها : (كن) فتكون ، ولكن إنما فعل ذلك لحكمة ، فقد خلق السنن الكونية وجعلها تعمل بقدرته وتقديره . وقد يكون إنما فعل ذلك ليعلم عباده الصبر ، فإنه أمر بالصبر بعد بعض الآيات التي ذكرت ذلك ، فقد قال في سورة (ق) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَنْهَا مِنْ سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] ، ثم قال بعد ذلك : ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَيَّحْ بِهِمْ رِبُّكَ قَبْلَ طُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] .

فإذا ذكر أيامًا معدودات لخلق السماوات والأرض وهي ستة أيام وذلك لحكمة أرادها فإنه قد يؤخر العذاب إلى أمة معدودة تقتضيها حكمته .

فدللت هذه الآية على أنه حي عالم قادر حكيم خبير .

واقتضى ذلك ألا يعبد غيره . وكيف يعبد غيره وهو الخالق القادر الرازق العالم المحبي المميت الباعث ؟

ثم قال بعد ذلك : ﴿وَلَيْنَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

أي إنك تزين هذا الأمر بحديثك وتعدهم بالبعث بعد الموت ليطيعوك فتسحرهم بقولك وتأثير فيهم تأثير السحر مع أن كلامك باطل بطلان السحر ، وقد قال أحدهم عن القرآن : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المدثر: ٢٤] .

جاء في (الكاف) في قوله : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «باتّين القول بطلانه . . . ومعنى قولهم : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أن السحر أمر باطل ، وأن بطلانه كبطلان السحر ، تشبيهًا له به . أو أشاروا بهذا إلى



القرآن ، لأن القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد انددرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره^(١) .

وجاء في (تفسير الرازبي) : « قال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحراراً لهم على الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم . . . »

الثالث : إن القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا في القرآن بكونه سحراً لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع^(٢) .

* * *

﴿ وَلَيْسَ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مَّعَدُودَةٍ لِّيَقُولُوكُمْ مَا يَحِسُّهُمْ وَأَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [هود: ٨]

أسند تأخير العذاب إلى نفسه سبحانه فقال : (آخرنا) ، ثم قال : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ولم يقل : (ليس منصرفاً عنهم) ليدل على أن العذاب لا ينصرف من نفسه وإنما يصرفه صارف.

كما لم يقل : (ألا يوم يأتيهم لا نصرفه عنهم) فيسند عدم صرف العذاب إلى نفسه وإنما جعله اسم مفعول.

فأسند تأخير العذاب إلى نفسه ، ولم ينسب عدم صرفه إلى نفسه سبحانه إشارة إلى رحمته بخلقه .

والأمة : هي المدة من الزمان.

ومعنى الآية : أن الذين كفروا إذا تأخر عنهم ما يوعدهم من العذاب

(١) الكشاف ٩١/٢.

(٢) تفسير الرازبي ٦/٣٢٠.

استهزءاً وقالوا: ما يحبسه؟ أي: أي شيء يمنعه من الواقع؟ يقولون ذلك استهزاء.

قال ربنا: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

قال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ولم يقل: (ألا يوم يأتي به) فأُسند الإتيان إلى العذاب ولم يُسند إتيانه إلى نفسه.

فأنت ترى أنه أُسند التأخير إليه سبحانه ، وأُسند الإتيان إلى العذاب لا إليه سبحانه. ونفى الصرف بصيغة اسم المفعول ولم يقل: (لا نصرفة عنهم). كل ذلك تلطفاً بعباده لعلهم يرجعون إليه.

وقال: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ «على لفظ الماضي مع أنه لم يقع مبالغة في التأكيد والتقرير»^(١). والفعل (حاق) يقال لما يصيب الإنسان من مكره وسوء.

لقد قال: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فجعل استهzaءهم هو الذي حاق بهم وهو الذي أوجب عليهم العذاب. فهذا الذي وقع بهم إنما كان مما كسبت أيديهم وليس ظلماً واقعاً عليهم ، وإنما هو من ظلمهم لأنفسهم.

وقدم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ على قوله: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ، قيل: وهو متعلق بقوله: ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ وأصل التعبير (ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم).

ومنع قسم من النحاة مثل هذا التقديم ، قالوا: لأن خبر (ليس) لا

(١) تفسير الرازي ١٨ / ٣٢١

يقدم عليها لأنها فعل جامد فلا يتقدم معمول الخبر عليها. وخرجوا التعبير على تقدير آخر.

وقد تقول: ولماذا هذا التقديم ، ولماذا لم يأت به على الأصل فيقول: (ألا ليس مصروفاً عنهم يوم يأتيهم)؟

فنقول: إن التعبير القرآني أولى ، ذلك لأنه لو قال: (ألا ليس مصروفاً عنهم يوم يأتيهم) لنفي صرف العذاب يوم يأتيهم ، ولكنه قد يصرف في يوم آخر. كما تقول: (لست مسافراً يوم الجمعة) فإنك قد تسافر في يوم آخر.

وأما التعبير القرآني فقد ذكرت فيه توجيهات غير التقديم: منها: تقدير فعل يتعلق به الظرف وهو (ألا يلزمهم يوم يأتيهم) أو نحوه.

ومنها: أن يعرب (يوم) مبتدأ مبنياً على الفتح^(١) لأنه أضيف إلى جملة وإن كان فعلها معرباً ، وهذا ما جوزه الكوفيون وأخرون ومنعه الجمهور. فيكون (يوم يأتيهم) مبتدأ ليس متعلقاً بشيء وجملة «ليَسْ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ» خبراً عنه. وعلى ذلك يكون عدم الانصراف مطلقاً غير مقيد بزمن.

ويؤيد هذين التقديرين قوله: «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْهِلُونَ» فأطلقه ولم يقيده. فيكون التعبير القرآني أولى ، ويكون تقدير الآخرين مرجحاً ، حتى أنها لو قلنا بجواز التقديم في مثل هذا التعبير فإن المعنى يضعف على جعل (يوم) متعلقاً بمصروف كما رأيت . وهو نظير ما يجوز فيه أوجه إعرابية متعددة بعضها أرجح من بعض .

(١) انظر روح المعاني ١٢/١٥



وقد تقول : ولماذا لم يقل : (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم على الابتداء ويزول الإشكال ويخرج من الندرة أو الضعف ومن الاختلاف في بناء نحو هذا ، كما قال تعالى : ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّدِيقِينَ صِدْقَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] برفع (يوم)؟

فنقول : لو قال ذلك لكان المعنى ضعيفاً أيضاً ، ذلك أنه لو قال : (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم كانت جملة (ليس مصروفًا عنهم) خبراً عن اليوم وسيكون المعنى أن اليوم لا ينصرف ، في حين أن المقصود أن العذاب لا ينصرف وليس اليوم ، وإنما اليوم مصروف لا محالة .

وهذا الضعف حاصل على تقدير إعرابه مبتدأ مع بنائه على الفتح أيضاً.

والذي نراه راجحاً في هذا هو تقدير عامل للظرف (يوم) وهو (يلازمهم) أو نحوه لسلامته مما ذكرناه ، ويعيده قوله : ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ فجعله مطلقاً ولم يقيده بزمن والله أعلم فيكون التعبير القرآني أولى من كل ما يذكر .

ثم إنك ترى أنه لم يذكر نوع العذاب وإنما قال : ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ فجعل استهزاءهم وفعلهم هو الذي يحدد العذاب الذي سيلحقهم وهو الذي يتحقق بهم ، فلا يقول قائل إنه أقل مما يستحقون أو أكثر مما يستحقون . وهو متنه العدل ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

﴿وَلَيْسَ أَذْقَنَا إِلَيْنَا أَرْحَمَةً ثُمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَوْمٌ كَفُورٌ﴾

[هود: ٩]

ذاق الشيء: خبره وجربه. والذوق يكون بالفم وبغير الفم ، ويكون في الم محمود والمكرور^(١). وهو يصلح للقليل والكثير^(٢). قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَثْ لَهُمَا سَوْءًا هُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] ، وقال: ﴿وَلَذِيقَتْهُم مِّنْ عَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ عَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وهذا من الذوق القليل.

وقال: ﴿كُلُّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لَيُذْوَقُوا عَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. والعذاب هنا دائم مستمر لا ينقطع ، واستعمل له الذوق.

وقال: ﴿كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ عَمِّ أُعْيَدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] ، وهو نحو ما مرّ.

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّاهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌ﴾ ٢٦ فَذُوقُوا عَذَابِ وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٩ . ٣٨] ، فذكر أن العذاب مستقر ، أي ثابت لا يتحول ، ثم قال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِ وَنُذُرِ﴾ وهو عذاب متصل وقد عبر عنه بالذوق.

وقال: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] فوصفه بأنه عذاب كبير.

وقال: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠] فوصفه بأنه عذاب شديد.

والرحمة نعمة من صحة أو مال أو كل ما تقتضيه راحة البال ، ونزعها سلبها. واليؤوس «شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة ، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع.

(١) انظر لسان العرب (ذوق) ، المصباح المنير (ذوق).

(٢) انظر مفردات الراغب (ذوق).



﴿كَفُورٌ﴾ : عظيم الكفران لما سلف من التقلب في نعمة الله نساء له»^(١).

وهذا تبيين لحال الإنسان وهي أنه إذا سلبت منه نعمة كان يتقلب فيها يئس من عودتها ، وكفر النعمة التي كان ينعم فيها إلا من استثناه الله فيما ذكر بعد.

وقد قدم العjar والمجرور (منا) على الرحمة فقال: ﴿أَذْقَنَا الْإِنْسَنَ مِنَارَحْمَةً﴾ ، في حين أخره عنها في موضع آخر ، فقد قال في فصلت: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطْنَ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَهُ حُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

فقدم الرحمة وأخر العjar والمجرور (منا) ذلك أنه في آية هود ذكر ما يفعله نزع الرحمة لا ما تفعله الرحمة فأخرها ، لأن الكلام ليس عليها بل على نزعها.

وأما في آية فصلت فإن الكلام على ما تفعله الرحمة بعد الضراء . فآية هود في نزع الرحمة فأخرها ، وأما آية فصلت فالكلام على الرحمة فقدمها.

لقد ختم آية هود هذه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيَثُوُسْ كَفُورٌ﴾ فختمتها باليأس والكفران.

وفي آية أخرى ختمها باليأس والقنوط . فقد قال في فصلت: ﴿لَا يَسْعُمُ الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَلَيْنَ مَسَهُ الشَّرُّ فَيَثُوُسْ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]

فختمتها بقوله: ﴿فَيَثُوُسْ قَنُوطٌ﴾ والقنوط شدة اليأس من الخير ، ذلك - والله أعلم - أنه في هود ذكر أمرين : إذابة الرحمة ونزعها ، وبين أن

الإنسان إذا سلبت منه النعمة التي كان يتقلب فيها أدركه اليأس ولم يشكر ما سلف من نعمة الله عليه فهو يؤوس كفور ، مع أن إذاقه الرحمة تقتضي الشكر وأن نزعها يقتضي الصبر والدعاء والرجاء غير أنه يئس وكفر.

وأما في فصلت فلم يذكر نعمة أو خيراً أصابه قبل أن يمسه الشر وإنما ذكر مَسَّ الشر فحسب.

وأما قبل ذلك فلم يذكر أنه مسه خير أو أصابته حسنة ، وإنما قال : ﴿ لَا يَسْعُمُ الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ وهذا لا يدل على حال بعينها من نعمة أو سوء . ولما ذكر مَسَّ الشر له فحسب جاء بصفتين من صفات اليأس ، فقال : (يؤوس قنوط) .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ وَلَيْنَ أَذْفَنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتُهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرْجٌ فَحُورُ ﴿ ١٠ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[هود: ١٠ - ١١]

النعماء : قيل : هي «إنعام يظهر أثره على صاحبه .

والضراء : مضرة يظهر أثرها على صاحبها . . .

وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء ، والمضرة والضراء»^(١) .

وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ بتذكير الفعل (ذهب) ، ولم يقل : (ذهبت السيئات عنني) ، وهذا جاري في جميع القرآن إذا جعل السيئات فاعلاً فإنه يذكر الفعل . قال تعالى : ﴿ وَيَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: ٤٨] ، وقال : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: ٥١] ، وقال :

(١) تفسير الرازي ١٨/٣٢٢ .



﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١] ، وقال: ﴿وَبَدَاهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية: ٣٣].

وذلك مراعاة للمعنى والله أعلم ، إذ المقصود أنه يصيبهم جراء السيئات وما توجبه السيئات من العذاب ونحو ذلك ، فذكر لأنه أراد معنى المذكرة ، ويوضح ذلك قوله: ﴿فَقَدْ قَاتَلَاهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فاصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيفيصلبهم سيئات ما كسبوا وأماهم بمعجزين﴾ [الزمر: ٥٠ - ٥١].

بتذكير الفعلين (أصابهم) و(سيصلبهم) ذلك أنه ليس المقصود أنه أصابتهم سيئات أعمالهم ، وإنما المقصود أنه أصابهم عذاب هذه السيئات أو جراء هذه السيئات ، ولذلك قال: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ إشارة إلى العذاب الذي حل بهم . ثم هدد من كان في زمانه من الظالمين قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] أي سيصلبهم جراء سيئاتهم وما يستحقون من العذاب ولذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

فذكر الفعل إشارة إلى المعنى .

وأراد هنا بقوله: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ ذهاب البؤس وذهاب سيئة العيش وزوال ما ساءه منه فذكر الفعل مراعاة للمعنى ، وليس المقصود ذهاب السيئات من الأعمال التي يعملاها الفرد ، والله أعلم .

والفرح الأشر البطر «وهذا الفرح مطلق فلذلك ذم المتصف به ولم يأت في القرآن لل مدح إلا مقيداً بما فيه خير كقوله: ﴿فَرِحِينٌ بِمَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠] ^(١).

والفхور: هو الذي يفخر على الناس بما عنده ، وهنا يفخر على الناس «بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر»^(١) .

ولم تأت كلمة (فخور) في القرآن إلا في ذم من اتصف بها ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقال : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] .
 \Rightarrow ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَرَّبُوا﴾ على ما أصحابهم من الضراء .

﴿وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ﴾ في كل أحوالهم سواء في حال الضراء أو النعماء .

ومن العمل الصالح شكرهم لربهم على ما أنعم عليهم فأولئك لهم مغفرة ؛ لأن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، والمصائب كفارة للذنوب . فذكر المغفرة لأن ما أصحابهم من الضراء مدعاه للمغفرة إذا صبر صاحبها .

﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وذلك لأن هذا الأجر أصحابهم في حالي الضراء والنعماء ، ففي الضراء نالهم أجر الصابرين المحتسبين ، قال تعالى :
 \Rightarrow ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ، وفي حال النعماء نالهم أجر الشاكرين إضافة على أجر العمل الصالح الذي ذكره في قوله :
 \Rightarrow ﴿وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ﴾ فكان الأجر كبيرا .

جاء في (البحر المحيط) : « واستثنى تعالى الصابرين يعني على الضراء وعامل الصالحات ، ومنها الشكر على النعماء ، أولئك لهم مغفرة لذنبهم يقتضي زوال العقاب والخلاص منه ، وأجر كبير هو الجنة ، فيقتضي الفوز بالثواب »^(٢) .

(١) الكشاف ٩٢/٢ .

(٢) البحر المحيط ٢٠٦/٥ .

وجاء في (روح المعاني) : «وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْمَرَادُ صَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابُوهُمْ مِنَ الْضَّرَاءِ سَابِقًا أَوْ لاحِقًا إِيمَانًا بِاللهِ تَعَالَى وَاسْتِسْلَامًا لِقَضَائِهِ

﴿وَعَمِلُوا الصَّلَحَاتِ﴾ شَكِّرًا عَلَى نِعْمَةِ سُبْحَانِهِ السَّابِقَةِ وَالْمُلْحَقَةِ . قَالَ المدقق في الكشف : لِمَا تضمنَ الْيَأسُ عَدَمُ الصَّبَرِ ، وَالْكُفَّارُ عَدَمُ الشُّكْرِ ، كَانَ الْمُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ ضَدِّهِ مِنْ اتَّصَفَ بِالصَّبَرِ وَالشُّكْرِ . فَلَمَّا قِيلَ : (إِلَّا الَّذِينَ) . . . إِلَخْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَشُكِّرُوا^(١) .

وَذَكَرَ أَحْوَالُ الْإِنْسَانِ فِي حَالِي إِذَا قَدِمَ الرَّحْمَةُ وَنَزَعَهَا ، وَحَالِي إِذَا قَدِمَ النِّعَمَ وَمَسَ الضَّرَاءِ ، بِيَانِ لِمَا تَقْدِمُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿لَيَبْلُوَكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُودٌ : ٧] ، فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْبَلَاءِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ .

جاء في (روح المعاني) : «وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ : إِنَّ وَجْهَ التَّعْلُقِ مِنْ حِيثِ إِذَا قَدِمَ النِّعَمَ وَمَسَ الضَّرَاءِ فَصِلٌّ مِنْ بَابِ الْإِبْلَاءِ وَاقِعٌ مَوْعِدٌ التَّفْصِيلُ مِنَ الْإِجْمَالِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿لَيَبْلُوَكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢) .

وَمِنَ الْمَلَاحِظِ أَنَّهُ أَسْنَدَ مَظَاهِرَ الرَّحْمَةِ وَالْخَيْرِ إِلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ دُونَ مَقْبِلِهِ فَقَدْ قَالَ : ﴿وَلَئِنْ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ فَأَسْنَدَ تَأْخِيرَ العَذَابِ إِلَى نَفْسِهِ ، فِي حِينَ قَالَ : ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ فَأَسْنَدَ إِتْيَانَهُ إِلَى الْعَذَابِ لَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، فَلَمْ يَقُلْ : (أَلَا يَوْمَ نَأْتِي بِهِ) ، كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا .

وَقَالَ : ﴿وَلَئِنْ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِنَ رَحْمَةِ﴾ فَأَسْنَدَ إِذَا قَدِمَ الرَّحْمَةُ إِلَى نَفْسِهِ .

وَقَالَ : ﴿وَلَئِنْ أَذْقَنَهُ نِعَمَاء﴾ فَأَسْنَدَ إِذَا قَدِمَ النِّعَمَ إِلَى نَفْسِهِ .

(١) روح المعاني ١٦/١٢.

(٢) روح المعاني ١٦/١٢.

في حين قال: ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتُهُ﴾ فأنسد المَسَّ إلى الضراء ولم يقل: (بعد ما مسستاه بالضر) ونحوه ، كل ذلك من باب إسناد الخير إلى نفسه سبحانه دون السوء والشر .

وقد تقول : ولكنـه قال: ﴿ثُمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ﴾ .

فنقول: إنـهـ ما يقتضـيهـ قولهـ: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحَسَنُ عَمَلاً﴾ فإنـ البلاءـ يكونـ فيـ السـراءـ والـضـراءـ ، والـخـيرـ والـشـرـ ، كماـ قالـ تعالىـ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنياء: ٣٥].

ومعـ ذلكـ فقدـ اختـارـ أهـونـ الـأـمـورـ ، فـلمـ يـقلـ: (مسـستـاهـ بـالـشـرـ) أوـ (مسـستـاهـ بـالـسـوءـ) وـنـحـوـ ذـلـكـ ، وـإـنـماـ قـالـ: ﴿ثُمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أيـ أـعـادـهـ إلىـ حـالـتـهـ قـبـلـ إـذـاقـتـهـ الرـحـمةـ . وـهـوـ كـمـاـ يـعـطـيـ أحـدـ أحـدـاـ شـيـئـاـ عـلـىـ سـبـيلـ الاختـبارـ ثـمـ يـسـتـرـجـعـهـ مـنـهـ لـيـرـىـ كـيـفـ يـفـعـلـ .

فـهـوـ لـمـ يـقـلـ إـنـهـ أـصـابـهـ بـالـضـرـ أوـ بـالـسـوءـ أوـ بـالـشـرـ ، وـإـنـماـ قـالـ أـذـاقـهـ شـيـئـاـ ثـمـ أـعـادـهـ لـيـخـتـبـرـهـ . وـهـوـ أـخـفـ مـنـ إـصـابـتـهـ بـالـضـراءـ أوـ بـالـشـرـ أوـ نـحـوـهـ .

جاءـ فيـ (روحـ المعـانـيـ): «وـفـيـ إـسـنـادـ الإـذـاقـةـ إـلـيـهـ تـعـالـىـ دـوـنـ المـسـ إـشـعـارـ بـأـنـ إـذـاقـةـ النـعـمـةـ مـقـصـودـ بـالـذـاتـ دـوـنـ مـسـ الضـرـ بلـ هوـ مـقـصـودـ بـالـعـرـضـ . . . وـفـيـ التـعـبـيرـ عـنـ مـلـاـبـسـةـ الرـحـمـةـ وـالـنـعـمـاءـ بـالـذـوقـ المـؤـذـنـ عـلـىـ مـاـ قـيـلـ بـلـذـهـمـاـ وـكـوـنـهـمـاـ مـاـ يـرـغـبـ فـيـهـ ، وـعـنـ مـلـاـبـسـةـ الضـراءـ بـالـمـسـ المشـعـرـ بـكـوـنـهـاـ فـيـ أـدـنـىـ مـاـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ الـمـلـاـقاـةـ مـنـ مـرـاتـبـهاـ مـنـ الـلـطـفـ مـاـ لـاـ يـخـفـيـ وـلـعـلـهـ يـقـويـ عـظـمـ شـائـنـ الرـحـمـةـ»^(١).

ثـمـ لـنـنـظـرـ نـسـقـ الـآـيـاتـ وـتـرـتـيـبـهـ:

فقدـ بدـأـ بـعـمـومـ الـمـكـلـفـينـ وـطـلـبـ مـنـهـمـ أـنـ لـاـ يـعـبـدـوـاـ إـلـاـ اللهـ .

(١) روحـ المعـانـيـ ١٢/١٥



ثم خص الكافرين بالذكر وذلك قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَحْفَوْا مِنْهُ﴾ ثم ذكر ما هو أعم وهو كل دابة في الأرض فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَبَّابَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَعِلْمُ مُسْنَقِهَا وَمُسْتَوْدِعِهَا﴾.

ثم عاد إلى ذكر عموم المكلفين فقال: ﴿لِيَبْلُوُكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

ثم خص الكافرين فقال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سُحْرُ مِنْ مِنْ﴾.

ثم ذكر ما هو أعم وهو الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَ الْرَّحْمَةِ﴾.

فكان النسق على النحو الآتي:

عموم المكلفين - الكافرين - ما هو أعم وهو كل دابة.

عموم المكلفين - الكافرين - ما هو أعم.

ثم إنه بدأ وانتهى بالكتاب ، فقد بدأ بقوله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ إِيمَانُهُ﴾.

وانتهى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ . . . أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنِيهِ﴾ [هود: ١٢ - ١٣].

فكان النسق في ترتيب الآيات واحداً.

* * *

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ، صَدِرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَذْبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَفِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة ، ذلك أنه لما ذكر الذين صبروا في الآية السابقة أشار إلى ما يقتضي الصبر في هذه الآية ، ذلك أنه في مثل هذا

الضيق ينبغي الصبر ، الصبر على ما يجد في نفسه ، والصبر على ما يقولون.

قيل : و(العل) في نحو هذا تفيد الزجر «والعرب يقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر : لعلك تقدر أن تفعل كذا ، مع أنه لا شك فيه . ويقول لولده لو أمره : (لعلك تقصير فيما أمرتك به) ويريد توكيد الأمر ، فمعناه : لا ترك»^(١).

وقال : ﴿فَلَعْلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ ولم يقل : (تارك ما يوحى إليك) ليحذّره من ترك أي شيء من أمور الدين بسبب أقوال الكافرين واستهزائهم ، بل إن عليه أن يبلغه كله أيّا كان موقف الكافرين منه ، ومهما سبب ذلك من ضيق في صدره «وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البيانات ، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقى إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه ، فحرك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالغة بردتهم واستهزائهم واقترابهم بقوله : ﴿فَلَعْلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ أي لعلك ترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إليهم مخافة ردهم وتهاونهم به وضائقه به صدرك بأن تتلوه عليهم ، (أن يقولوا) مخافة أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ، هلا أنزل عليه ما اقتربنا نحن من الكنز والملائكة ، ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه»^(٢).

وقال : (ضائق) ولم يقل : (ضيق) «ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت ؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا . ومثله قوله : زيد سيد وجداد ، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرتين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائد وجائد»^(٣).

(١) تفسير الرازي ١٨ / ٣٢٤ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) الكشاف ٢ / ٩٢ .



وذلك لأن اسم الفاعل يدل على الحدوث ، بخلاف الصفة المشبهة فإنها تدل على الثبوت . فـ (حسن) يدل على الثبوت وـ (حسن) يدل على الحدوث ، تقول : (هو حسن غداً) أي سيحسن ، ونحوه : كريم وكaram.

جاء في (البحر المحيط) : «وليس هذا الحكم مختصاً بهذه الألفاظ ، بل كل ما يعني من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن (فاعل) رد إليه إذا أريد معنى الحدوث ، فنقول : حسن من حسن ، وثاقل من ثقل ، وفارح من فرح ، وسامن من سمن»^(١).

وقال : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ﴾ بتنوين (تارك) ولم يقلها بالإضافة ، للدلالة على تحذيره من فعل ذلك في المستقبل ، أي لعلك ستترك ؛ لأن إعمال اسم الفاعل شرطه أن يدل على الحال أو الاستقبال . ولو قالها بالإضافة لا يتحمل الماضي أيضاً فيكون الضرر عما فعل ، أي لعلك تركت بعض ما يوحى إليك ، فهو يحذر من أن يكون قد ترك بعض ما يوحى إليه . وهذا لا يصح ، إذ هو ﷺ أحرص الخلق على تبليغ الوحي .

وقدّم ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ على ﴿ضَاتِيقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ مع أنه قد يكون ضيقاً الصدر سبباً للترك ، ذلك أنه قدم ما هو الأهم وهو ما يوحى إليه ، فإن ترك بعض ما يوحى إليه هو أهم وأخطر من ضيق الصدر . وقد يضيق صدر المرء من شيء غير أنه لا يترك الأهم . وقد ذكر ربنا عن رسوله في موطن آخر أنه يضيق صدره بما يقولون فأرشده إلى التسبيح والصلوة فقال : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ فسبّح بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكَنْ مِنَ السَّابِقِينَ﴾ [الحجر : ٩٨ - ٩٧].

وقال : ﴿وَضَاتِيقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ فقدّم (به) على الصدر ، ولم يقل :

(وضائق صدرك به) ذلك لأن المجرور وهو الهاء في (به) يعود على بعض ما يوحى إليه وهو أهم من الفاعل ، فقدم ما هو أهم . ألا ترى أنه قال في آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضْيِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فقدم (الصدر) على (ما يقولون) لأن صدره ﷺ أهم مما يقوله المستهزئون ؟

وقال : ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ ولم يقل : (أن قالوا) أو (قولهم) ذلك أن قوله : ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ يفيد الدوام والاستمرار ، أي لأنهم يقولون ذلك . أما (أن قالوا) فإنه يفيد أنهم قالوه في الماضي وانتهى الأمر ، وقد يكونون قالوه مرة واحدة .

وكذلك لو قال : (قولهم) فإنه يتحمل المضي وأنهم قالوه مرة واحدة . في حين أنهم يقولون ذلك باستمرار مما يدعو إلى ضيق صدره ﷺ بذلك .

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَذِبًا﴾ «أي مال كثير ، وعبروا بالإنزال دون الإعطاء لأن مرادهم التعجيز بكون ذلك على خلاف العادة ، لأن الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء . ويتحمل أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاء من دون سبب عادي»^(١) .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ «أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وبلغهم ما أمرت بت比利غه ، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقتروا .

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه وكيل أمرك إليه»^(٢) .

* * *

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنَّهُمْ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مُشَاهِدٍ مُفْتَرِيَّاتٍ وَآدْعَوْا مِنْ أَسْتَطْعَثُمْ

(١) روح المعاني ١٩/١٢ .

(٢) البحر المحيط ٢٠٦/٥ .

مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَعْجِبُوكُمْ فَأَعْلَمُو أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ - ١٤]

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، ذلك أنهم إنما يقولون : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك أو نحو ذلك لعدم تصديقهم برسالته ﷺ ، وأنهم يرون أن ما يأتي به إنما هو افتراء ، فذكر ذلك ه هنا وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله وأن يفتروا هم كما افتروي وأن يدعوا كل من يستطيعون ليفعلوا ذلك .

وقد ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية في القرآن الكريم) هذه الآية وما كان نحوها من آيات التحدي وبيننا ما فيها من أمور بيانية فلا نعيد القول فيها .

جاء في (البحر المحيط) : « ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها لا تتعلق أطماءهم بأن يترك بعض ما يوحى إليه إلا لدعواهم أنه ليس من عند الله وأنه هو الذي افتروا » ^(١) .

وجاء في (الكساف) : « أم منقطعة ، والضمير في (افتراه) لما يوحى إليك . تحداهم أولاً بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المخاير في الخط لصاحبه : اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال : قد اقتصرت منك على سطر واحد . . .

فإن قلت : ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله : ﴿ لَكُمْ فَأَعْلَمُو ﴾ بعد قوله : (قل)؟

قلت : معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم » ^(٢) .

(١) البحر المحيط ٢٠٨/٥ .

(٢) الكشاف ٩٢/٢ .

ومن الملاحظ في رسم الآية أنه أخفى حرف الشرط في هذه الآية ، أدغم نون (إن) في (اللام) ﴿فَإِنْ يَسْتَحِبُّوكُم﴾ [هود: ١٤] ، وأظهرها في آية أخرى وذلك في قوله : ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَحِبُّوكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّعِنُّ أَهْوَاءَهُم﴾ [القصص: ٥٠].

وهذا الأمر يتعلق برسم المصحف ، ورسم المصحف لا يقاس عليه إلا أنه قد يمكن تعليمه من الناحية البينية أحياناً .

فقد قال في (القصص) : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوقِّتَ مِثْلَ مَا أُوقِّتَ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكُنْفُرُوا بِمَا أُوقِّتَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلٍ قَالُوا سَحْرَانٌ تَظَاهِرَأُ وَقَالُوا إِنَّا يُكَلِّ كُفَّارُونَ﴾ [٤٨] ﴿قُلْ فَأَتُؤْمِنُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَيْعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٩] ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَحِبُّوكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّعِنُّ أَهْوَاءَهُم﴾ [القصص: ٤٨ - ٥٠].

ومن الظاهر أن التكذيب في آية هود إنما هو لمحمد خاصة ، فإنه قال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْرَرْنِهِ﴾ وقال قبلها : ﴿فَلَعْلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَالِّقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ .

وقال : ﴿فَإِنْ يَسْتَحِبُّوكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن . وأما في القصص فإن التكذيب لمحمد وموسى ، فقد قال على لسانهم : ﴿قَالُوا سَحْرَانٌ تَظَاهِرَأُ وَقَالُوا إِنَّا يُكَلِّ كُفَّارُونَ﴾ أي محمد وموسى . وقال : ﴿قُلْ فَأَتُؤْمِنُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَيْعُهُ﴾ يعني التوراة والقرآن .

فلما كان الكلام في هود على واحد وحد الرسم .

ولما كان الكلام في القصص على اثنين جعل الرسم اثنين وفصل



بينهما ، ذلك أن الرسولين إنما هما في زمانين منفصلين وأن الكتابين منفصلان والله أعلم .

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي القرآن .

﴿ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا ذلك . والعلم بهذا إنما هو من مقتضيات ما مرّ من التحدي . فإنه بعد أن تبين عجز الجميع من دون الله عن الاستجابة لما طلب علم أن ما عداه ليس بإله ولا ندّله ، لأنه لو كان إلهًا لم يعجز عن الإتيان بمثله .

وقال : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فأمرهم بالعلم (فاعلموا) ليكون إيمانهم عن علم وبصيرة وليس تصديقاً بلا حجة وتسليماً بلا دليل ، كما قال تعالى في عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا إِيمَانُهُمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا حَصْمًا وَعُمَيْنًا﴾ [الفرقان : ٧٣] .

وقدّم قوله : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ على قوله : ﴿ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن السياق إنما هو في الكلام على القرآن وليس على التوحيد . ثم إن القرآن يتضمن التوحيد ويأمر به ، فالإيمان به إيمان بالتوحيد قطعاً .

وبعد أن ذكر ما ذكر من مقتضيات الإيمان والعلم به حفظهم إلى الإسلام ، وهو الانقياد لأمر الله والاستجابة له ، ولم يكتف بمجرد الإيمان والعلم فقال : ﴿ فَهَلْ أَنْشُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لأنه لو صدق المرء بقلبه وعلم الحق ولم يكن منقاداً لأمر الله مستجيئاً له لم ينفعه ذلك ولم ينجه من النار ، كما قال تعالى في عادٍ وثمود : ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٨] فلم ينفعهم استبصارهم .

وكما قال في قوم الرسول : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَدِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَعَايِنُونَ اللَّهَ يَحْمَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] فلم ينفعهم عدم تكذيبهم ، بل سيكونون من الذين أصلهم الله على علم .



وقال : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي أ فلا يدعوكم ذلك إلى الإسلام؟
أولاً يدعوكم ذلك إلى الاستجابة بعد ما تبين صدق الرسول وما جاء
به؟

وهو أبلغ مما لو قيل (أسلموا) فيأمر بالإسلام ، ذلك أنه ينبغي أن يستجيبوا لهم من أنفسهم من بعد توفر دواعي الإسلام وإن لم يطلب منهم ذلك أحد.

إن قوله تعالى : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَآءِ اللَّهِ إِلَّا هُوَ﴾ إنما هو السبيل للدخول في الإسلام .

فالذى يريد الدخول في الإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين :
(لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وهذا الجزء من الآية تضمنهما ، فقوله : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾
إقرار بنبوة محمد .

وقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار بكلمة التوحيد .

ولما كانت هاتان الشهادتان هما المدخل إلى دين الله وهو الإسلام
قال بعد ذلك : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

* * *

﴿مَنْ كَانَ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَهَا نُوقَفُ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا
يُبَخِّرُونَ ﴽ٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا
وَنَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]

هاتان الآياتان مناسبتان للجو الذى وردتا فيه .

فقد ذكر في أول السورة سبيل المتع الحسن في الدنيا وهو الاستغفار
والنوبة فقال : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ شَوْبِهَا إِلَيْهِ يَمْتَعُكُمْ مَنْعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى



وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّا فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ كَبِيرٌ» [هود: ٣].

والمتاع الحسن مما يريد الإنسان في هذه الدار مؤمنهم وكافرهم. فقال فيمن يريد الحياة الدنيا وزيتها أنه يوفي إليهم أعمالهم فيها. ولم يقل إنه يمتعهم متاعاً حسناً.

في حين قال في الصنف المستغفر التائب إنه يمتعهم متاعاً حسناً. وقال فيمن يريد الحياة الدنيا: «نُوَفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ». وقال في الصنف التائب: «وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ».

ولا شك أن الصنف التائب متاعه أفضل من ي يريد الحياة الدنيا وزيتها. ثم ذكر بعد ذلك أثر الرحمة والنعماء في الإنسان فقال: «وَلَيْسَ أَدْقَنَا أَلْإِنْسَكَنَ مَتَارَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّمَا لَيَعْوُسُ كَثُورٌ وَلَيْسَ أَدْقَنَهُ نِعَمَةً بَعْدَ ضَرَّاءً مَسَّتُهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّمَا لَفِيرٌ فَخُورٌ» [هود: ٩ - ١٠]. وذكر الذين يقولون: «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ» [هود: ١٢] والكنز من وسائل متاع الحياة الدنيا وزيتها.

فناسب ما مر ذكره من كان يريد الحياة الدنيا وزيتها.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوال الكفار المناقضين في القرآن ذكر شيئاً من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة. وظاهر من العموم في كل من يريد زينة الحياة الدنيا والجزاء مقرون بمشيئته تعالى ، كما بين ذلك في قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلَنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» [الإسراء: ١٨] ^(١).

لقد قال: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» فأدخل (كان) على الفعل المضارع (يريد) ، وهذا التعبير يفيد الاستمرار ، أي يريدها على وجه

الدّوام. جاء في (روح المعاني): «وإدخال (كان) للدلالة على الاستمرار ، أي من يريد ذلك بحيث لا يكاد يريد الآخرة أصلًا»^(١).

﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ﴾ .

«نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا ، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرّزق . وقيل: هم أهل الرياء ، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال فلان قارئ ، فقد قيل ذلك . ولمن وصل الرّحّم وتصدق: فعلت حتى يقال ، فقيل ، ولمن قتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء فقد قيل .

وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى ، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحمة عجل لهم جزاء ذلك بتوسيعة في الرّزق وصحة في البدن . وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم»^(٢) .

وجاء في (روح المعاني): «(نوف) متضمن معنى (نوصل) ولذا عدّي بإلى ، وإلا فهو مما يتعدى بنفسه . وقيل: إنه مجاز عن ذلك»^(٣) .

وقد عدّى (نوف) هنا بـ (إلى) وعداه إلى مفعولين في آيات أخرى ، فقد قال في آية أخرى من سورة هود: «وَإِنَّ كُلَّا لَمَّا لَيَوْفَيْنَاهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ» [هود: ١١١] . فعداه إلى ضميرهم وإلى الأعمال .

وقال: «وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَكُوا وَعَمِلُوا الظَّلِمَاتِ فَيُوَفَّىٰهُمْ أُجُورُهُمْ»

[آل عمران: ٥٧]

(١) روح المعاني ١٢/٢٣.

(٢) الكشاف ٢/٩٣.

(٣) روح المعاني ١٢/٢٣.



وغير ذلك من الآيات^(١).

والذي يظهر من الفرق بين الاستعماليين في القرآن الكريم:

أن تعدية هذا الفعل بـ(إلى) إنما خصها بالأموال ، قال تعالى : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأفال: ٦٠].

وقال في آية هود هذه : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَهَا نُوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ والحياة الدنيا وزيتها إنما تأتى عن طريق الأموال.

ثم إن تعدية هذا الفعل بـ(إلى) أفادت معنى (نوصل إلى) كما مرّ ، فمعنى (نوف إلية) نوصل إليه. والإيصال إلى شخص ما لا يقتضي المباشرة بالإيصال أو المواجهة ، فقد توصل شيئاً إلى أحد عن طريق شخص آخر أو وسيلة ما. ويتبين من الاستعمال القرآني أن ما جاء معدّى بنفسه إنما هو في الآخرة وذلك نحو قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

وقوله : ﴿وَلِكُلِّ درَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحقاف: ١٩]

وقوله : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَحْدُولٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١].

وغير ذلك .

ومعنى ذلك أن الأمر يدل على المواجهة والتوفية المباشرة ، ذلك أنه في يوم القيمة يعرض الجميع على ربهم فيواجههم بأعمالهم ، كما قال :

(١) انظر على سبيل المثال: النور ٢٥ ، فاطر ٣٠ ، النساء ١٧٣ وغيرها.

﴿ وَحَشِرْنَاهُمْ فَلَمْ تُفَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [٦] ﴿ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَّا لَقَدْ جَسَّمُوا كَمَا حَلَقْنَاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةً ﴾ [الكهف: ٤٧ - ٤٨].

وأما ما عدّه بـ (إلى) فهو لا يخص الآخرة ، فقد يكون الإيصال في الدنيا ، فإن آية هود إنما هي خاصة بالدنيا كما هو واضح ، فقد قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَهَا نُوقِّتُ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ ..

وأما آية الإنفاق فإنها لا تختص بالأخرّة ، بل قد يكون أثره في الدنيا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأفال: ٦٠] ، قوله : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَآتَمُ لَا ظُلْمَ لِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، قد يكون ذلك في الدنيا والآخرة ، أي يوفيه ما أنفق في الدنيا ، ويؤتيه أجره في الآخرة . ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا آنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِصُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩] وقوله ﷺ : (ما نقص مال من صدقة) . وعلى هذا فالفرق بين (وفاه) و(وفي إليه) في الاستعمال القرآني :

- ١ - إن (وفي إليه) خصّه القرآن بالأموال ، وأما (وفاه) فهو عام .
- ٢ - إن (وفي إليه) قد يكون ذلك في الدنيا ، وأما (وفاه) فاستعمله لما بعد الدنيا .

٣ - لما كان (وفي إليه) تضمن معنى الإيصال فإن ذلك لا يقتضي المواجهة وال المباشرة بالوفاة ، بل قد تكون عن طريق آخر . ومن المعلوم أن ربنا إذا أراد أن يوفي في الدنيا من أنفاقه هيأ له أسباب الوفاة .

واما (وفاه) فلما كان في الآخرة اقتضى ذلك مواجهة رب الذي يوفي الأعمال .

* * *

﴿ نُوقِّتُ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾



﴿نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الدنيا .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يحتمل معنيين :

أحدهما : أن قوله : (فيها) أي في الأعمال ، فالضمير في (فيها) يعود على الأعمال ، والمعنى أننا نوفي إليهم أعمالهم في الدنيا ولا يبخسون في أعمالهم .

والآخر : أن (فيها) يعود على الدنيا ، أي وهم في الدنيا لا يبخسون .
وهذا هو الأظهر .

فتكون التوفية في الدنيا ، وكذلك عدم البخس .

قد تقول : أما كان يمكن الاكتفاء بضمير واحد فلا يكرر (فيها) فيقول مثلاً : (نوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ لَا يُبْخَسُونَ)؟

فنقول : لو قال ذلك لكان عدم البخس في الدنيا والآخرة ، ولكان المعنى أنه يوفي إليهم أعمالهم في الدنيا وأنهم لا يبخسون مطلقاً ، فيكون عدم البخس في الدنيا والآخرة . في حين أنه أراد أن كل ذلك في الدنيا ، فإنه يوفي إليهم أعمالهم فيها ، وأنهم فيها لا يبخسون . وأما الآخرة فإنهم حبطت أعمالهم فيها وأنه ليس لهم فيها إلا النار ، كما قال تعالى في الآية بعدها .

جاء في (روح المعاني) في قوله : ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ «أي لا ينقصون ، والظاهر أن المجرور للحياة الدنيا .

وقيل : الأظهر أن يكون للأعمال لثلا يكون تكراراً بلا فائدة . ورد بأن فائدته إفادته من أول الأمر أن عدم البخس ليس إلا في الدنيا ، فلو لم يذكر توهم أنه مطلق» ^(١) .

* * *

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

١ - لقد ذكر الصنع ثم ذكر العمل فقال: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والصنع هو إجاده العمل ، وأما العمل فهو عام يشمل الصنع وغيره ، وقد ذكر بطلانه كله : ما بذلوا فيه جهدهم لإنسانه ، وما عملوه على وجه العموم .

وذكر مع الصنعة الحبوط ، ومع العمل البطلان ؛ ذلك أن الحبوط أخص من البطلان ، فالحبوط خاص بالأعمال ، وأما البطلان فهو عام في الأعمال وغيرها كما سنبين .

والصنع أخص من العمل لأنه ما أجيد منه . فذكر الخاص مع الخاص ، والعام مع العام .

٢ - قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ يتحمل أن يكون الجار والمجرور (فيها) متعلقاً بـ (حبط) فيكون المعنى: (وحبط فيها ما صنعوا) أي في الآخرة ، فيعود الضمير على الآخرة فيكون الحبوط في الآخرة .

كما يتحمل أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بـ (صنعوا) فيكون المعنى: (وحبط ما صنعوا في الدنيا) فيعود الضمير على الدنيا .

والمعنيان مرادان ، فإنه حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا .

وهذا من التوسيع في المعنى . ولو قدم الجار والمجرور فقال: (وحبط فيها ما صنعوا) لكان احتمالاً واحداً .

فالتعبير القرآني أولى لأنه يشمل معنيين .

جاء في (البحر المحيط): «والضمير في قوله: ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ الظاهر أنه عائد على الآخرة والجار والمجرور متعلق بـ (حبط) . والمعنى: وظهور حبوط ما صنعوا في الآخرة .



ويجوز أن يتعلق بقوله: (صنعوا) فيكون عائداً على الحياة الدنيا كما عاد عليها في (فيها) قبل «^(١)».

٣ - قوله: (ما صنعوا) يحتمل أن تكون فيه (ما) مصدرية فيكون المعنى: وحطت صنعتهم.

كما يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً فيكون المعنى: وحطت الذي صنعوه من الأعمال.

والمعنىان مرادان ، فقد حبط الصنع والعمل ، وحطت ما صنعوه ، وهذا من التوسيع في المعنى أيضاً.

ولو قال: (ما صنعوه) لكان اسمًا موصولاً فقط . فما ذكره أولى لأنه أعم وأشمل .

جاء في (البحر المحيط): «و(ما) في (ما صنعوا) بمعنى (الذي) أو مصدرية» ^(٢).

ثم لنتنظر في تأليف هذه العبارة ، أعني قوله تعالى: ﴿وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من جهة أخرى .

فإن القسم الأول منها وهو قوله: ﴿وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ مبني على الخصوص .

والقسم الآخر: وهو قوله: ﴿وَنَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مبني على العموم .

فقوله: ﴿وَنَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أعمٌ من قوله: ﴿وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ من أكثر من جهة:

(١) البحر المحيط ٥/٢١٠.

(٢) البحر المحيط ٥/٢١٠ ، وانظر الكشاف ٢/٩٣.

١ - فقد قال في العبارة الأولى : (وحبط) .

وقال في العبارة الثانية : (وباطل) .

والباطل أعم من الحبوط ، فإن الحبوط خاص بالأعمال ، ولم يرد في القرآن إلا كذلك . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاِلٰهِيْنِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلَهُ ﴾ [المائدة: ٥] .

وقال : ﴿ فَأُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]

وقال : ﴿ حَبَطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَاصْبَحُوا خَسِيرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٣] .

وأما الباطل فهو عام في الأعمال وغيرها مما لا يصح فيه الحبوط .

قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨] ، وقال :

﴿ وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٦] .

ويكون الباطل لغير العمل ، فقد يكون في المعبودات والمعتقدات وغيرها مما هو نقيس الحق .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة: ٤٢] .

وقال : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ ﴾ [النساء: ٢٩] .

وقال : ﴿ أَفِي الْبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبَيْنَمَا هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢] .

وقال : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَطْلُ إِنَّ الْبَطْلَ كَانَ زَهُوفًا ﴾ [الإسراء: ٨١] .

وقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّكَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ ﴾ [الحج: ٦٢] .

وقال : ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِيرُونَ ﴾

[العنكبوت: ٥٢] .



وغير ذلك وغيره.

فقد يكون الباطل يعني المعبودات الباطلة من دون الله ، وقد يكون من المعتقدات الباطلة غير دين الله ، وغير ذلك . فالباطل أعم من الحبوط .

٢ - وقال : (حبط) بالفعل الماضي .

وقال : (باطل) بالاسم .

والاسم على العموم أثبت وأعم من الفعل .

فكان الباطل أعم من الحبوط من حيث الدلالة ومن حيث الصيغة .
٣ - وقال في العبارة الأولى : (ما صنعوا) .

وقال في العبارة الثانية : (ما كانوا يعملون) .

والصنع هو إجاده العمل وإحسانه ، فالعمل أعم من الصنع لأنه قد يكون بإجاده أو بغيره .

٤ - قال في العبارة الأولى : (ما صنعوا) بالفعل الماضي .

وقال في العبارة الثانية : (ما كانوا يعملون) .

والعبارة الثانية أعم لأنها تدل على الاستمرار في الماضي .

فقوله : (صنعوا) قد يدل على زمن من أزمنة الماضي ، وقد يدل على الحدوث مرة واحدة في الزمن الماضي .

أما قوله : ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإنه يدل على الاستمرار في الماضي فهو أعم .

فقولك : (صنعوا) حالة واحدة وزمن واحد من قولك : (كانوا يصنعون) .

٥ - قال في العبارة الأولى : ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ فقيد الصنع في الدنيا أو الحبوط كما ذكرنا .

وأطلق في العبارة الثانية فلم يقل (وباطل فيها) ، كما لم يقل : (ما كانوا يعملون فيها) ، فالعبارة الثانية أعم .

٦ - قوله : ﴿وَنَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أعم من حيث التأليف من قوله : ﴿وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ ذلك أن قوله : ﴿وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ فعل وفاعل .

وقوله : ﴿وَنَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن يكون (باطل) خبراً مقدماً ، قوله : ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مبتدأ مؤخر .

كما يحتمل أن يكون ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فاعلاً لاسم الفاعل (باطل) ، والباطل خبر ثان لأولئك^(١) .

فهو أعم على كل حال .

* * *

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَتِي مِنْ رَبِّهِ، وَتَلُوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ، كَيْنَتْ مُوسَى إِيمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ، مِنَ الْأَخْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]

إن صحة الحكم في القضاء تستند إلى أحد أمرين :

البينة أو الشهود العدول ، فإن ثبت أحدهما صح الحكم على الدعوى بالصحة . فإن تعاضد على ذلك البينة والشهود والعدول فذلك ما لا مطبع وراءه في الصحة .

(١) انظر البحر المحيط ٢١٠ / ٥



وقد ذكر هنا الأمرين الذي يحكم بأحدهما على صحة الدعوى:
البينة والشاهد.

فقد ذكر البينة فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بِيَنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ .

وذكر الشاهد أيضاً فقال: ﴿وَيَتَلَوُهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهذا الشاهد عدل لأنه (منه) أي من ربه.

ولما كانت الدعوى أنه مرسل من ربه ، أي أرسله ربه ، لزم أن تكون
البينة من ربه فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بِيَنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ أي إن الله آتاه بيته
وبرهاناً على أنه رسوله .

ولما كان الشاهد يشهد على هذه القضية لزم أن يكون الشاهد من ربه
قال: ﴿وَيَتَلَوُهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ، وترتبط على ذلك أن يكون عدلاً ، لأن
الشاهد من الرب لا يكون إلا عدلاً .

ولم يكتف بذلك بل ذكر شاهداً آخر لا تدفع شهادته ، وهو أن هناك
كتاباً سابقاً من ربه ، أي من الجهة نفسها ، وذلك قبل أن يأتي هذا
الشخص إلى الدنيا بقرون يشهد على ما جاء به هذا الرسول .

وهذا الكتاب السابق ذكر ذلك صراحة بما لا يحتمل التأويل في أن هذا
الشخص هو المقصود بعينه . فقد ذكر اسم الرسول ومكان نشأته وعلامته
البدنية ومن أي شعب هو وإلى أين يهاجر وإنما يؤول أمره . كل ذلك مذكور
في التوراة^(١) يعرفه من اطلع على ذلك كما يعرف الأب ابنه ، وإن أهل الكتاب
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فِيهَا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُوا الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فقال في ذلك: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ، كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي يشهد على

(١) انظر كتابنا (نبوة محمد من الشك إلى اليقين).



ذلك . وقيل : إن الإنجيل^(١) شاهد أيضًا فقد ذكره صراحة . وبهذا يكون قد ذكر جملة أدلة كل منها كافٍ في إثبات صحة الدعوى :

- ١ - البينة .
- ٢ - الشاهد .
- ٣ - الكتب السابقة

وكل ذلك من الجهة التي جاء رسولًا عنها ، فهل يبقى في نفس أحد شك أو ريبة في صحة رسالته؟ ولذا قال بعد ذلك : ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ بحذف نون (تكن) ، أي لا يك في نفسك أي شيء من شك أو ريبة ، واحذف ذلك من نفسك كحذف نون (تكن) من أصل الكلمة .

فتعاضد على إزالة المرية من النفس النهي وحذف النون وتقرير أنه الحق ، فقد قال بعد ذلك : ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ .

ثم احتاط بعد ذلك بما يمنع كل خاطر شك ، فقد يرى أن كثيراً من الناس لم يؤمنوا بذلك فقال له إن هذا من طبيعة الناس ، فإن أكثرهم لا يؤمنون وإن جاءتهم كل آية ، وإن أتيتهم بكل دليل ، كما قال في موطن آخر : ﴿وَمَا أَكَثَرُ النَّاسَ وَلَوْ حَرَضْتَ مُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ، وقال : ﴿وَلَنْ تُطِعَ أَكَثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] .

فذكر كل أمر يدفع الريبة ويمعنها فلا يبقى في النفس منها شيء . فنهاه عن ذلك بقوله : ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَذِكْنَ أَكَثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبلغ ما يكون النهي .

١ - فقد جاء بـ (الفاء) الدالة على السبب في قوله (فلا تك) ، أي إن ما ذكرناه سبب كاف للانتهاء عن الريبة .

(١) انظر فتح القدير ٤٦٥ / ٢



- ٢ - النهي بقوله : (لا تك) .
 - ٣ - حذف النون من (تكن) وقد ذكرنا دلالة ذلك على قوة النهي .
 - ٤ - قال : (في مرية) فجاء بـ (في) الظرفية ، أي لا تكن فيها كما يكون الشخص في اللجة وكن بعيداً عنها .
 - ٥ - نَكْ المرية ليشمل كل شك فيه .
 - ٦ - ثم قال : (منه) أي من القرآن ، ولم يقل : (ولا تك في مرية) فتكون عامة مطلقة ، إذ المرء لا ينفك عن شك أو ريبة في أمر من الأمور ، وإنما طلب الانتهاء عن الريبة في هذا الأمر .
 - ٧ - ثم أثبت صحة ما هو عليه بقوله : (إنه الحق) فأكده بـ (إنَّ) .
 - ٨ - عَرَفَ (الحق) ولم يقل : (إنه حق) ليدل على أنه وحده الحق ولا حق سواه ، فلو اتبعت أي كتاب آخر كان اتباعك باطلاً . فكل كتاب قبله منسوخ وقد دخله التحريف والتبديل ، فلا حق فيما سواه لا في نصه ولا في قبوله عند الله .
 - ٩ - ذكر الجهة التي قررت أحقيته وقضت بذلك فقال : ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّك﴾ فلا أحد أعلم بالحق منه ، ولا شيء أحق بالاتباع من هذا الحق .
 - ١٠ - ثم قال بعد ذلك : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ليطمئن قلبه إلى ما هو عليه ولا توحشه كثرة من لا يؤمن من الناس .
 - ١١ - ثم حذر من لا يؤمن بأن موعده النار فقال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَخْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ .
- فذكر في الآية أن البينة من ربه ، وأن الشاهد من ربه ، وأن الكتب السابقة التي شهدت له من ربه ، وأنه الحق من ربه ، فهل بعد ذلك شيء من الريبة؟!

ثم نعود إلى الآية : ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَىٰ بِينَتِهِ مِنْ رَّبِّهِ، وَيَتَوَهُ شَاهِدُ قَتْنَهُ وَمِنْ قَبْلِهِ، كَتَبْ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُنْ فِي مُرْجَيَّهُ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ وَلَنْكَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

فقد قيل : إن البينة هي القرآن ، وقيل : هي الأدلة العقلية والمعجزات التي تقطع بصحة نبوته ﷺ .

والشاهد قيل هو القرآن ، ومن ذلك نظمه المعجز الذي تحدى به البشر .

وقيل : الإنجيل وقد شهد له بذلك وذكر اسمه صراحة .

وكتاب موسى هو التوراة .

لقد قال : ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَىٰ بِينَتِهِ مِنْ رَّبِّهِ﴾ ولم يذكر المعادل للدلالة عليه بمن تقدم ذكره وهو من كان يريد الحياة الدنيا وزيتها ، وبمفهوم المخالفة ممن لم يكن على بينة ولا دليل .

وقال : ﴿عَلَىٰ بِينَتِهِ﴾ فجعله مستعلياً عليها متمنكاً منها ، وهذا نظير قوله تعالى في أكثر من موضع : (على هدى) فجعله مستعلياً عليه متمنكاً منه .

والبينة نظير الهدى .

وقال : ﴿مِنْ رَّبِّهِ﴾ فذكر الرب لأن الرب هو المربي والمرشد والموجه والمعلم وهو الأنسب مع ذكر البينة . ولم ترد (البينة) في القرآن مقرونة إلا مع الرب ، ولم ترد مع غيره من أسماء الله الحسنى ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بِينَتِهِ مِنْ رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧] ، وقوله : ﴿قَدْ جَاءَنَّكُمْ بِكِتَمْ بِكِتَمْ مِنْ رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥ ، ٧٣] ، وقوله : ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَىٰ بِينَتِهِ مِنْ رَّبِّهِ﴾ [محمد: ١٤] وغيرها .

وذكر شاهدين : شاهداً يتلوه وشاهداً من قبله .



ويبدو - والله أعلم - أن الشاهد الذي يتلوه مستمر على يوم القيمة ، ففي كل زمان يظهر شاهد على صدقه ﷺ كما قال تعالى : ﴿سَرِّيْهُمْ إِنَّا تَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكُفُّ بِرِبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣]. وكما قال ﷺ عن القرآن إنه (لا تنقضي عجائبه).

ولذا جاء بالفعل مضارعاً فقال : ﴿وَيَتَنَوُّهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ فاستغرقت الشهادة له الماضي والحال والاستقبال . فشهادة الماضي شهادة الكتب السابقة ، وشهادة الحال والاستقبال ما يتلوه من الشاهد .

وقال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحَزَابِ﴾ فجاء بفعل الشرط مضارعاً ليشمل كل من يكفر به في الحال والمستقبل ، ولم يقل : (ومن كفر) فيحتمل اختصاص ذلك بمن كفر في زمانه .

وقال : (به) ولم يقل : (ومن يكفر) فقط فيجعل ذلك عاماً ، فجعل الكفر به على الخصوص مدعاة إلى دخول النار وإن لم يكفر بغيره ، فلو آمن بكل شيء وكفر به فهو من أهل النار .

جاء في (تفسير الرازبي) : « فالحاصل أنه يقول اجتماع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة :

أولها : دلالة البيانات العقلية على صحته .

وثانيها : شهادة القرآن بصحته .

وثالثها : شهادة التوراة بصحته . . .

فقوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بِيَنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية .

وقوله : ﴿وَيَتَنَوُّهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام .

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام.

وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه»^(١).

وجاء في (الكساف): «﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِّنْ رَّبِّهِ﴾ معناه: أ فمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بيته؟ أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم ، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبيناً بيناً . وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بيته (من ربها) أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق.

(ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد منه) يشهد بصحته وهو القرآن (منه) من الله ، أو شاهد من القرآن ، فقد تقدم ذكره آنفًا.

(ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة ، أي ويتلوا ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى . (إماماً) كتاباً مؤتمماً به في الدين قدوة فيه .

(ورحمة) ونعمـة عظـيمـة عـلـى المـنـزـل إـلـيـهـمـ.

(أولئك) يعني من كان على بيته (يؤمنون به) يؤمـنـونـ بـالـقـرـآنـ»^(٢).

وجاء في (البحر المحيط): «لما ذكر حال من يريد الحياة الدنيا ذكر حال من يريد وجه الله تعالى بأعماله الصالحة . وحذف المعادل الذي دخلت عليه الهمزة ، والتقدير: كمن يريد الحياة الدنيا .

وكثيراً ما حذف في القرآن كقوله: ﴿أَفَمَنْ زُنِّ لِهِ سُوءُ عَمَلِهِ فَرِءَاهُ حَسَنًا﴾ ،

(١) التفسير الكبير ١٨/٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) الكشاف ٢/٩٣ .



وقوله: «أَمَنْ هُوَ قَبِيتُ إِنَّهَا أَلَيْلٌ» وهذا استفهام معناه التقرير . . .
والبينة: القرآن أو الرسول ، والهاء للمبالغة . . .

والشاهد: القرآن و(منه) عائد على ربه ، ويدل على أن الشاهد القرآن
ذكر قوله (ومن قبله) أي ومن قبل القرآن كتاب موسى ، فمعناه أنه تظافر
على هدایته شيئاً :

كونه على أمر واضح من برهان العقل .

وكونه يوافق ذلك البرهان هذين الكتابين الإلهيين: القرآن والتوراة
فاجتمع له العقل والنقل»^(١).

* * *

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَرَّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَدُ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ
يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْغُونَهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كُفَّارٌ﴾ [هود: ١٨ - ١٩].

هذه الآية مناسبة لما تقدم من قوله سبحانه: «أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَهُ» فقد
ذكر فيها شأن المفترين على الله وحالهم وما لهم .

١ - فقد قال: «وَمَنْ أَظْلَمُ» على سبيل الاستفهام ، والمعنى:
ولا أحد أظلم ممن يفتري على الله .

وقال: «وَمَنْ أَظْلَمُ» ولم يقل: (ولا أظلم) ليشارك المخاطب في
الجواب ، فيقول: (لا أحد أظلم منه) .

وهو أبلغ من (لا أظلم) لأن كل مخاطب أو سامع إذا سئل عن ذلك
فقيل له:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فسيقول: لا أحد أظلم منه ، ويقرر ذلك بنفسه .

٢ - وقال: ﴿ مَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فنكر الكذب ليشمل كل كذب ، ولا يختص بأمر معين . فدخل في ذلك كل افتراء وكل مفتر .

فيشمل ذلك من قال: أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء ، ومن زعم أن ما جاء به هو كلام الله أو من شرع الله وحلل وحرم ما لم يأذن به الله ونسب ذلك إلى الله ، وغير ذلك وغيره من الافتراءات .

٣ - وقال: ﴿ أُولَئِكَ يُرَضُّونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ لتقريرهم بفعلتهم والإشهاد عليهم لفضيحتهم وإلحاد الخزي بهم .

وعرضهم على ربهم إذلال لهم لأنهم عرضوا على من كذبوا عليه ، فيكونون بمواجهته ، ولئلا ينكروا ذلك جاء بالأشهاد فيشهدون عليهم ويقولون: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾

٤ - قال أولاً: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ ﴾ فذكر اسمه العلم (الله) . ثم قال: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ فذكر اسم الرب مضافاً إليهم .

فهؤلاء افتروا على الله خالق السماوات والأرض .

وافتروا على (ربهم) هم ، ربهم الذي أحسن إليهم ورباهم وقام على أمرهم .

فالافتراء على الرب من أسوأ الأفعال وأقبحها ، فمن افترى على ربه وسيده ومتولي أمره ومن أحسن إليه كان مسيئاً بالغ الإساءة .

إإن كان الرب هو (الله) ازدادت الفعلة سوءاً ، فقد جمعت الإساءة الكذب على الله وعلى ربه فكانت أسوأ فعلة وأخزى فضيحة .



ولو جاء باسم واحد فقال في التعبيرين : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ثم قال : (هؤلاء الذين كذبوا على الله) لم تكن بتلك الإساءة ، فإن لكل اسم من أسماء الله الحسنى دلالته فافتروا عليه بذاته وافتروا عليه مع أنه ربهم .

فازدادوا ظلماً على ظلم وقبحاً على قبح .

٥ - قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ والأشهاد جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب ، أو جمع شهيد كأشراف جمع شريف^(١) .

وجاء بالأشهاد ليشهدوا شهادة علنية أمام الثقلين على أن هؤلاء كذبوا على ربهم ليفضحوهم ويخرزوهم .

والإشارة إلىهم بـ (هؤلاء) زيادة في إذلالهم وفضحهم .

جاء في (البحر المحيط) : «لما سبق قولهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَّهُ ﴾ ذكر أنه لا أحد أظلم من افترى على الله كذباً ، وهم المفترون الذين نسبوا على الله الولد واتخذوا معه آلهة وحرموا وحلوا من غير شرع الله .

وعرضهم على الله بمعنى التشهير لخزيهم والإشارة بكذبهم وإلا فالطائع والعاصي يعرضون على الله ﴿ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَا ﴾

وفي قوله : (هؤلاء) إشارة إلى تحقرهم وإصغرارهم بسوء مرتکبهم .

وفي قوله : (على ربهم) أي على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم وكانوا جديرين ألا يكذبوا عليه . وهذا كما تقول إذا رأيت مجرماً : (هذا الذي فعل كذا وكذا) »^(٢) .

(١) انظر الكشاف ٢/٩٤ .

(٢) البحر المحيط ٥/٢١٢ .



فاستحق هؤلاء اللعنة والطرد من رحمة الله .

إنه لم يقل : (ألا لعنة الله عليهم) وإنما قال : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فشملت اللعنة كل ظالم ودخل فيها هؤلاء لأنه لا أحد أظلم منهم فهم أولى باللعنة .

وختم الآية بقوله : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ذكر الظالمين مناسبة لقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ﴾ .

وقوله : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يتحمل أن يكون من قول الأشهاد كما في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿فَآذَنَ مُؤَذِّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ٤٤] .

ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله سبحانه^(١) . فنكون إحدى اللعتين من الأشهاد والأخرى من الله فيتتحقق منها معاً قوله تعالى : ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّادِعُونَ﴾

٦ - وصف الظالمين بقوله : ﴿الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

فقال : (يصدون) و(يبغونها) بالمضارع .

فإن كان ذلك من قول الأشهاد كان من حكاية الحال الماضية وذلك إحضار لسوء الفعلة ومعاييرتها ، كما في قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْنُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة : ٩١] ، فقتل الأنبياء ماض بدليل قوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وعبر عنه بالمضارع حكاية للحال .

وإن كان من قول الله تعالى احتمل أن يكون من حكاية الحال أيضاً .

(١) انظر البحر المحيط ٢١٢/٥ ، روح المعاني ١٢/٣١ .

واحتمل أن يكون ذلك للحال والاستقبال حقيقة ، فتشمل اللعنة
هؤلاء في الدنيا والآخرة .

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يفعلون ذلك على سبيل الدوام.
وكذلك قوله: ﴿وَسَفَرُهَا عَوْجَأٌ﴾.

ومعنى ﴿وَيَعْنَهَا عِوْجَأ﴾ «يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة ، أو يبغون أهلها أن يعوا جوا بالارتداد»^(١).

٧- قال تعالى: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَفُرُونَ﴾ فذكر (هم) الثانية توكيداً.

جاء في (الكشاف): «(هم) الثانية لتأكيد كفرهم بالأخرة
و اختصاصهم به» ^(٢).

وقد تقول: لقد قال في الأعراف: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَفَرُوا﴾ [الأعراف: ٤٥] فلم يكرر (هم) مع أن السياقين متشابهان فما السبب؟

فنقول: إن السياقين مختلفان ، فقد قال في الأعراف: ﴿فَادْنَ مُؤْذِنٌ
بِئْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾٤٤﴾ أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْرُجُونَ
عَوْجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كُفُّرٌ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٥].

وقال في هود: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ لَكَ يَعْرُضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هُوَ لَأَنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ١٨ الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

فزاد في هود ذنبا آخر وهو الكذب على الله الذي هو من أكبر الظلم
فقال: ﴿هَتُؤْلِئُ إِلَّا مَن كَذَّبَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. فلما زاد في ذكر المعصية زاد

الكتاب / ٢ / ٩٤ .

الكتاب / ٢ (٢)

في وصفهم بالكفر ، فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَيَاءٌ
يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْعِطُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْرَءُونَ﴾ [هود: ٢٠ - ٢١]

أولئك لم يكونوا يعجزون الله لو أراد أن يعاقبهم في الدنيا .

وقال : ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ ولم يذكر مفعولاً لـ (معجزين) وإنما أطلق ذلك فنفي عنهم صفة الإعجاز أصلاً ، فهم أذل وأضعف من أن يعجزوا أحداً .

وقال : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي في مكانهم وموضع استقرارهم . والإنسان أعز ما يكون إذا كان في داره ، فإذا انتفى إعجازهم في مكانهم فانتفاؤه في غير الأرض أظهر .

وقد بين ذلتهم وصغرهم من أكثر من ناحية :

١ - فقد نفي أن يعجزوا أحداً فأطلق النفي ولم يذكر مفعولاً فدل ذلك على أنهم لا يعجزون أحداً .

٢ - وقد بيّن نفي قدرتهم واستطاعتهم في مكانهم ومستقرهم . وهذا أذل ما يكون وأهون ما يكون .

٣ - وجعل عدم الإعجاز وصفهم الثابت فقال : ﴿لَمْ يَكُنُوا
مُعْجِزِينَ﴾ فجاء بالاسم الدال على الثبات ، ولم يقل : (لم يكونوا
يعجزون) بل دل على ضعفهم وعدم قدرتهم على جهة الثبوت والدowam .

٤ - ثم ذكر أنه ما كان لهم من أولياء من دون الله .

فنفى عنهم القدرة في ذواتهم وأنفسهم ، ونفى عنهم الولي فلا ولی
لهم يتولى أمرهم .
وهذا أدل على ضعفهم وصغرهم .

فهؤلاء الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ويعgonها عوجا ولا يؤمنون
بالآخرة هم أذل ما يكون على الحقيقة .

جاء في (الكساف) : «**أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**» أي ما
كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من
يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنتظارهم وتأخير
عقابهم إلى هذا اليوم »^(١) .

وقد تقول : لقد قال ه هنا : «**وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَيَاءَ**» فجاء
بالأولياء مجموعة ، وفي مواضع أخرى يفرد الولي فيقول مثلاً : «**وَمَا**
لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [البقرة : ١٠٧] .

أو يقول : «**وَالظَّالِمُونَ مَا هُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**» [الشورى : ٨] .

فما السبب مع أن الإفراد في نحو هذا أدل على الشمول ، فقولك :
(ما في الدار من رجال) نفيت فيه جنس الرجال في حال الجمع ولم تتف
وجود رجلين أو رجل واحد . أما قولك : (ما في الدار من رجل) فقد
نفيت فيه وجود الجنس على سبيل الاستغراق واحداً أو أكثر .

وقولك : (ما لهم من ولی) نفيت فيه أن يكون لهم ولی على سبيل
الاستغراق واحداً أو أكثر . أما إذا قلت : (ما لهم من أولياء) فإنه ينفي
الجنس في حالة الجمع ، ولا ينفي أن يكون لهم ولی واحد أو اثنان؟
والجواب : أن الجمع في هذا الموضع هو الأصوب ولا مندوحة

عنه ، ذلك أن هذا الكلام في الآخرة ، والمذكورون هم جماعات مختلفة ومن أمم متعددة وأزمان مختلفة متباعدة ، وقد يكون بين جماعة وأخرى قرون كثيرة فلا يمكن أن يكون لهؤلاء الجماعات ولـي واحد ، وإنما يكون لكل جماعة أو أمة ولـي أو أولياء يتولونهم ، فلا يصح أن يقال : (ما كان لهم من دون الله من ولـي).

هذا علاوة على أنه قد يتخذ أهل البلد الواحد أو المجتمع الواحد أولياء متعددين ، فنفي الأولياء هو الأصوب بل هو المتعين وليس نفي الولي ؛ وخاصة أن هؤلاء الأولياء إنما هم غير الله فلا بد أن يتعددوا.

هذا علاوة على أنه حيث نفي الأولياء في نحو ذلك ، أي في نحو قوله : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَيَاءٍ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلَيَاءٍ﴾ [الشورى : ٤٦] فإنما ذلك في الآخرة.

وحيث أفرد الولي في نحو ذلك إنما هو الكلام في الدنيا ، ويكون الكلام إما عن فرد واحد أو مجموعة معينة فينفي الولي له أو لها.

جاء في (روح المعاني) : «﴿مِنْ أَوْلَيَاءٍ﴾» : (من) زائدة لاستغراق النفي ، وجمع (أولياء) إما باعتبار أفراد الكفارة ، كأنه قيل : وما كان لأحد منهم من ولـي ، أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بياناً لحال آهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية»^(١).

* * *

﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

«يشدد ويكثر ، وهذا استئناف إخبار عن حالهم في الآخرة ؛ لأنهم جمعوا إلى الكفر بالبعث الكذب على الله وصدّ عباده عن سبيل الله وبغي

(١) روح المعاني ١٢ / ٣٢.



العوج لها وهي الطريقة المستقيمة»^(١).

* * *

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ﴾

أي يكرهون سماعه فلا يطيقون أن يسمعوه لشدة بغضهم له. كما يكرهون أن ينظروا إليه فلا يطيقون ذلك لشدة بغضهم لرؤيته.

جاء في (الكساف): «أراد أنهم لف्रط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع... كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه وهذا مما يمجّه سمعي»^(٢).

و جاء في (البحر المحيط): «﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ﴾ إخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة ، يعني السمع للقرآن ولما جاء به الرسول ﷺ.

﴿وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ﴾ أي ينظرون إليه لبغضهم فيه ، ألا ترى على حشو الطفيلي بن عمرو أذنيه من الكرسف وإبادية قريش ما نقل إليهم من كلام الرسول^(٣).

و جاء في (روح المعاني): «﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ﴾ أي إنهم كانوا يستغلّون سماع الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ويستكرون به إلى أقصى الغايات حتى كأنهم لا يستطيعونه...».

﴿وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ﴾ أي إنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق»^(٤).

(١) البحر المحيط ٢١٢/٥.

(٢) الكشف ٩٤/٢.

(٣) البحر المحيط ٢١٢/٥.

(٤) روح المعاني ٣٢/١٢.

لقد قَدَمَ السمع على الإبصار هنا فقال: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

وقدم آلة الإبصار على السمع في الكهف فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَّاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]: وذلك أنه ذكر في سياق آية هود ما يسمع وهو الكذب فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وقال: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾، وقال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَغُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

في حين ذكر في الكهف ما يرى وهو عرض جهنم فقال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَّاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾، فقدم في كل موضع ما يناسبه.

وهناك أمر آخر في هاتين الآيتين ، فقد عرّف السمع في آية هود فقال: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ﴾ ، ونكره في آية الكهف فقال: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِعُونَ سَمْعًا﴾ ذلك أن آلة السمع في آية هود غير معطلة وإنما كانوا يستقلون سمع نوع معين من الكلام وهو الكلام في دين الله. أما غيره من الكلام فإنهم يسمعونه ويستحبونه . فعرّف السمع الذي يستقلونه ويكرهونه .

وأما في الكهف فإن آلة الإبصار معطلة وآلة السمع معطلة ، فقد قال في آلة الإبصار: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَّاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ فهي لا تبصر لأنها مغطاة.

وقال في السمع: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِعُونَ سَمْعًا﴾ وهذا إثبات لعدم استطاعة السمع ، أي إنهم لا يسمعون لأن آلة السمع معطلة فلا يسمعون أي نوع من الكلام^(١).

(١) انظر كتابنا (معاني التحو) ١/٢٤٠ - ٢٤١ ، روح المعاني ١٦/٤٥ ، ١٢/٢٢ ، الكشاف ٢/٩٤.



ومن كانت آلة السمع معطلة عنده لا يسمع شيئاً فنكره لذلك .

* * *

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

لقد ذكر أن هؤلاء خسروا أنفسهم وهذا أكبر الخسران ، فإن أكبر الخسران أن يخسر الإنسان نفسه .

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

أي زال عنهم افتاؤهم ولم ينفعهم شيئاً . وزالت عنهم أصنامهم وألهتهم التي كانوا يفترون فيها ويقولون فيها ما يقولون وضلت عنهم فلا تهتدي إليهم ولا يهتدون إليها .

جاء في (روح المعاني) : «والمراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها ويقولون فيها : ﴿هَتُرَلَاءٌ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أو نحو ذلك ... أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم التي كانوا يفترون فيها ما يفترون فلم تغن عنهم من الله شيئاً .

وقيل : إن (ما) مصدرية ، أي ضل افتاؤهم ، كقوله سبحانه : ﴿ضَلَّ سَعَيْهِم﴾ أي لم ينفعهم ذلك »^(١) .

فقد خسروا أنفسهم ولا من ينجدهم وينفعهم .

* * *

﴿لَا جَرَمَ أَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] .

فلا أخسر منهم .

وقال : (الأخرون) ولم يقل : (هم الخاسرون) أو (من الخاسرين) ليبين أنه لا أخسر منهم .

(١) روح المعاني ١٢٤ / ٧ ، وانظر تفسير الرازى ٥٠٤ / ٤ .

وقال ههنا : ﴿ لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾
 وقال في سورة النمل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَاهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ بَعْمَهُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ [النمل : ٤ - ٥].

فقال في آية هود : ﴿ لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾.

وقال في آية النمل : ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾.

فأكَدَ الخسران في آية هود ما لم يؤكدَه في آية النمل .

فقد قال : (لا جرم) ومعنى (لا جرم) لا بد ولا محالة ، وقيل : معناه حقاً^(١).

وهي عند العرب تنزل منزلة القسم للتأكيد ، وقد تجاذب بما يجاذب به القسم فيقال : لا جرم لآتينك^(٢).

وقال : (أنهم) فأكَدَ بـ (أن)

وذلك أنه في سياق آية هود زاد على ما ذكره في سياق آية النمل من الآثام .

فقد قال في آية النمل إنهم لا يؤمنون بالآخرة .

وقال في سياق آية هود :

١ - إنهم كذبوا على ربهم .

٢ - يصدون عن سبيل الله .

(١) انظر لسان العرب (جرم).

(٢) انظر شرح الرضي على الكافية ٣٨٩ / ٢ ، شرح الأشموني ٢٧٩ / ١ ، لسان العرب (جرم) ، معاني القرآن للفراء ٨ / ٢.



٣ - يبغونها عوجاً .

٤ - هم بالآخرة هم كافرون .

ثم ذكر أنه يضاعف لهم العذاب فأكده خسراً لهم .

فكان كل تعبير مناسباً للمكان الذي ورد فيه .

جاء في (تفسير الرازي) : «اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكريين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم :

الصفة الأولى : كونهم مفترين على الله ، وهي قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَقْرَئَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

والصفة الثانية : أنهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنکال ، وهي قوله : ﴿أُولَئِكَ يُعَرَّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ .

والصفة الثالثة : حصول الخزي والنکال والفضيحة العظيمة ، وهي قوله : ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هُنُّ لَا إِلَهَ إِلَّاَنَا كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ .

والصفة الرابعة : كونهم ملعونين من الله ، وهي قوله : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

والصفة الخامسة : كونهم صادين عن سبيل الله مانعين من متابعة الحق ، وهي قوله : ﴿أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

والصفة السادسة : سعيهم في إلقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة ، وهي قوله : ﴿وَيَبْغُونَهَا عَوْجَأً﴾ .

والصفة السابعة : كونهم كافرين ، وهي قوله : ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَفُّرُونَ﴾ .

والصفة الثامنة : كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله ، وهي قوله : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ .



قال الوحدى: معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد. يقال: أعجزني فلان ، أي منعني من مرادي . ومعنى (معجزين في الأرض) أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا . . .

والصفة التاسعة: إنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم .

والمراد منه الرد عليهم في وصفهم الأصنام بأنهم شفعاؤهم عند الله .

والمقصود أن قوله : «أَوْلَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجَزِينَ فِي الْأَرْضِ» دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله : «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَائِهِ» هو أن أحداً لا يقدر على تخلصهم من ذلك العذاب . فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم . وبين ذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة . . .

والصفة العاشرة: قوله تعالى: «يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» ، قيل: سبب تضييف العذاب في حقهم . . . أنهم مع ضلالهم الشديد سعوا في الإضلal ومنع الناس عن الدين الحق . . .

والصفة الحادية عشرة: قوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمَعَ وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ» . . .

الصفة الثانية عشرة: قوله: «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ» ، ومعناه: أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران .

الصفة الثالثة عشرة: قوله: «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ» . . .



الصفة الرابعة عشرة: قوله: «لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ»^(١).

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ إِمَانُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ [هود: ٢٣]

لما ذكر ما يؤول إليه أهل الكفر الذين يصدون عن سبيل الله ذكر ما يؤول إليه أهل الإيمان الذين أخبرتوا إلى ربهم.

ومعنى (أخبرتوا إلى ربهم) «اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع ، من الخبت وهي الأرض المطمئنة»^(٢).

* * *

﴿مَثُلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالْسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاً أَفَلَا نَذَكَرُونَ﴾ [هود: ٢٤]

شبه الفريق الكافر بالأعمى والأصم ، ولم يذكر الأبكم لأن هذا الفريق يتكلم ، فهم كذبوا على الله ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهذا إنما يكون في الكلام.

وشبه الفريق المؤمن بالبصير والسميع.

وببدأ بالفريق الكافر لأنه تقدم ذكرهم وذلك من قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» إلى قوله: «لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» [هود: ١٨ - ٢٢].

(١) التفسير الكبير ٦ / ٣٣٤ - ٣٣٢.

(٢) الكشاف ٢ / ٩٤ ، وانظر البحر المحيط ٥ / ١٩٩.

ثم ذكر بعده الفريق المؤمن وهو البصير والسميع وذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ إِيمَانُهُمْ أَكْبَرُ مِمَّا يَصِلُّونَ...﴾.

جاء في (البحر المحيط): «والفريقيان هنا الكافر والمؤمن ، ولما كان تقدم ذكر الكفار وأعقبه بذكر المؤمنين جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر فقال: ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾»^(١).

وقال: ﴿أَفَلَا نَذَكَرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من الفعل ولم يقل (تذكرون) كما في آيات أخرى ؛ ذلك لأن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قدر طويل من التذكر والتأمل «فإنك إذا سالت أي فرد من عقلاه خلق الله: هل يستويي رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستويي الأعمى والبصير والأصم والسميع؟

كان جوابه: كلا لا يستويان.

فحذف من الفعل للدلالة على أن هذا لا يحتاج إلى طول تذكر وتأمل»^(٢).

فلما كان الأمر لا يحتاج إلى وقت طويل من التأمل والتفكير للإجابة اقتطع من الفعل . والله أعلم .

* * *

(١) البحر المحيط . ٢١٣ / ٥

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني . ٢٠



قصة نوح

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [٢٥] ﴿ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٢٦]

وردت قصة نوح في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، غير أنها ليست متطابقة في كل جزئياتها ، وإنما يذكر في كل موضع ما يناسب المقام الذي وردت فيه ، وما يراد أن يسلط عليه الضوء منها. بل قد تكون القصص مكملة إحداها للأخرى ، يذكر قسم منها في موضع ويدرك ما يليه في موضع آخر.

وهي أطول ما ذكرت في هذه السورة ، أعني سورة هود ، فهي قد ذكرت في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصفات والقمر وختمت في سورة نوح ، وهناك إشارات موجزة في مواطن أخرى من القرآن الكريم غير أنها ليست مكررة.

ولتوسيح ذلك نقول :

١ - لقد وردت القصة في سورة الأعراف موجزة ، وهو أول موضع وردت فيه القصة ، والطريف أنها بدأت بقوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ من دون أن تسبق بالواو ، وأما في المواطن الأخرى فيقول فيها جميًعا : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ بالواو فكانها معطوفة على القصة الأولى مع أن هذه الواو فيها كلها ليست عاطفة على ما قبلها وإنما هي استئنافية .



فقد قال في هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وليس قبلها ما تعطف عليه ، وكذا قال في سورة المؤمنون ، وكذا قال في العنكبوت .

أما في سورة نوح فقد بدأت السورة بقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فلا يصح ذكر الواو .

بل إنه قد يذكر الواو في غير هذا التعبير أيضاً ، فقد قال في سورة يونس : ﴿وَأَتَلُ عَيْنَهُمْ بَنَآ نُوح﴾ ، وقال في الأنبياء : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ ، وقال في الصافات : ﴿وَلَقَدْ نَادَنَا نُوح﴾ .

وهو لا يذكر الواو عندما تكون القصص الأخرى الواردة في السورة كلها لا تذكر فيها الواو وذلك في سوري الشعرا و القمر .

فإن جميع القصص الواردة في الشعرا ابتداء من قصة نوح تبدأ ب نحو قوله : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، فقد قال : ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وقال : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وقال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وقال : ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وكلها على نمط واحد في السورة ، تستأنف كل قصة على حدة .

وكذلك في سورة القمر ، فقد قال : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوح﴾ : وقال : ﴿كَذَّبَتْ عَاد﴾ ، وقال : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ ، وقال : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّدْرِ﴾ .

وهي على نمط واحد تبدأ بقصة نوح على هذا النمط وكلها من غير الواو .

إن قصة نوح في الأعراف تبدأ بدعاوة نوح لقومه إلى عبادة الله ، وهي دعوة الرسل جميعاً ، فقد قال لهم : ﴿يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فأجابوه بقولهم: ﴿إِنَّا لَرَبَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فرد عليهم أنه ليست به ضلاله وإنما هو رسول من رب العالمين.

فكذبوه فنجاه الله ومن معه وأغرق الذين كذبوا.

وهذا هو نص القصة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنَّ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾٦٩﴿ قَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمِهِ، إِنَّا لَرَبَّكَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴾١٠﴿ قَالَ يَقُولُونَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾١١﴿ أَبْلِغُكُمْ
رِسْلَاتِ رَبِّي وَأَنْصُحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾١٢﴿ أَوْ عِجَّلْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكْرُ
مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلَنَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرَجُونَ ﴾١٣﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ
مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَأَغْرَقَنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِثَابِتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾١٤﴾

[الأعراف: ٥٩ - ٦٤].

ولم يذكر أن له أتباعاً معه وذلك أنه كان في ابتداء الدعوة.

٢ - وأما القصة في يونس فكانت كأنها استكمال لما ورد منها في الأعراف.

فهو لم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله ولم يذكر ماذا قال له قومه ، وإنما كان كلامه على شخصه هو ، وأنه إن كان كبر عليهم تذكيره بآيات الله فليفعلوا به ما يشاورون ولا يمهلوه ، وأنه لم يسألهم على دعوته لهم أجراً ، وإنما أجراه على الله ، فكذبوه فنجاه الله وأغرق الذين كذبوا. ولم يذكر له أتباعاً ولا أنهم عرّضوا بأتبايعه ، إذ لا تزال الدعوة في مهدها.

وهذا هو نص القصة في يونس:

﴿وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ بَأْ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُونَ إِنَّا كَبَرُّ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكِّرِي
بِثَابِتِنَا اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ



عَمَّةَ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا تُنْظِرُونَ ﴿٦١﴾ فَإِنْ قَوَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٢﴾ فَكَذَبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَّيْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّا يَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ .

فأن ترى أنه اكتفى بالدعوة إلى عبادة الله في الأعراف ، ولم يكررها في يونس واكتفى برد قومه عليه في الأعراف بأنهم يرون أنه في ضلاله ، ولم يكرر ذلك في يونس .

وكلام نوح في يونس في الرد عليهم ليس تكراراً لما قاله في الأعراف ، بل ذكر جوانب أخرى استكمالاً لما ذكره في الأعراف ، ثم إنه تحداهم وهو ما لم يفعله في الأعراف ، فكانت القصة استكمالاً لما ورد في الأعراف .

٣ - وأما في هود فالقصة طويلة ، فقد ذكر أنه لهم نذير مبين ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله ، وذكر رَدَّ الملاَّ الذين كفروا عليه ، وقد أفضوا في ردهم عليه .

وظهر أن له أتباعاً وهو ما لم يذكره في الأعراف ولا في يونس ، إذ قد كانت الدعوة في مهدها ، وذكر رأي الملاَّ في هؤلاء الأتباع وأنهم كانوا يزدرونهم .

وكان هناك كلام طويل وجداول بينهما حتى قالوا له :

﴿ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَنَدْلَتَنَا فَأَكَثَرَتَ جِدَانَ﴾

وذكر كيفية النجاة التي لم يفصل فيها فيما سبق في الأعراف ويونس ، فذكر صنع الفلك واستهزاءهم به ، وذكر حمل ما يحمل ومن يحمل فيها وجريان الفلك وغرق ابنه إلى أن انتهى الأمر وقضى واستوت السفينة وهبوطهم بسلام .



وهي أطول ما ذكر من القصة وأكثر تفصيلاً من كل المواطن الأخرى.

فهي كانت استكمالاً وتوضيحاً لما ورد في القصتين السابقتين.

٤ - وأما في الأنبياء فالقصة ليست في سياق الدعوة والتبليغ ، وإنما في سياق نجاة الأنبياء من أقوامهم واستجابة دعاء من دعا منهم.

فقد ذكر نجاة إبراهيم ونجاة لوط ونجاة نوح واستجابة دعائه ، واستجابة دعاء أیوب واستجابة دعاء ذي النون وذكرها .

وهذا نص ما ورد فيها :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرَبِ الْعَظِيمِ ﴿٧﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِيَوْمٍ نَّا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءً فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وهو مناسب مع سياق ما ورد في السورة من قصص الأنبياء .

٥ - وأما في سورة المؤمنون فقد ذكر القصة بعد ذكر الأنعام وفوائدها والحمل عليها وعلى الفلك ، فذكر قصة نوح والنجاة في الفلك مناسبة لذكر الحمل على الأنعام والفالك ، فقد جاءت القصة بعد قوله :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْآنَعَمِ لِعِبْرَةٍ شُقِّيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحَمَّلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢١- ٢٢].

وأما الجانب المذكور من قصة نوح فهو لا يطابق ما ورد من القصص فيما سبق ، فإنه بلغهم بالدعوة فقال : ﴿ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا نَنَقْوِنَ ﴾ ولم يقل شيئاً آخر .

وإن قومه لم يواجهوه بكلام ولا قالوا له شيئاً ، بل إنهم كانوا يذكرون رأيهم فيه في غيته وفي مجالسهم .

ففي سورة هود ذكر ما كان يواجههم به ويواجهونه ، وما كان يجادلهم



به ويجادلونه ، أما في المؤمنون فقد ذكر ما يحصل بعد ذلك ، بعد الانفراق وفي مجالسهم ، وهذا كأنه كان استكمالاً لما حصل في هود .

ثم ذكر أنه دعا ربه لينصره ، وهي أول مرة يدعو فيها نوح بصورة صريحة ، فقد قال : ﴿رَبِّنَا أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُونِ﴾

وهذه هي القصة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ وَأَنَّا نَنَقْوِنَ ﴾٢٣﴿ فَقَالَ الْمَلَوُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هُنَّ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بُرُيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهِنَّا فِي أَبَابِلِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾٢٤﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهُدِي، حِنْنَةٌ فَتَرْبَصُوا بِهِ حَتَّى حِينَ ﴾٢٥﴿ قَالَ رَبِّنَا أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُونِ ﴾٢٦﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْنَعَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ السَّنُورُ فَأَسْلَكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْيَنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ مُغْرِبُونَ ﴾٢٧﴿ فَإِذَا آسَتَوْتَ أَنَّ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾٢٨﴿ وَقُلْ رَبِّنِي مُنْزَلًا مُبَارِكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُزَلِّينَ ﴾﴾

٦ - وأما في سورة الشعراe فقد قال تعالى في قوم نوح ما قاله في الأقوام الأخرى : ﴿ كَذَّبُتُ قَوْمٌ بِنُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾٢٩﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ نُوحٌ أَنَّا نَنَقْوِنَ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾٣٠﴿ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ﴾ وهو نحو ما قاله في الأقوام الأخرى وفي رسليهم .

ثم ذكر موافق الأمم من رسليهم فكانت كلها على نمط واحد .
وإضافة إلى هذا فإن قصة نوح كأنها استكمال لما قبلها وليست مماثلة لها .

فقد دعا نوح قومه فيما سبق إلى عبادة الله ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أو ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ﴾ .

وأما في هذه السورة فقد طلب منهم تقوى الله وطاعة رسوله ولم يأمرهم بالعبادة فقد قال لهم: ﴿فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ . والتقوى إنما تكون بعد الأمر بالعبادة فهي استكمال للأوامر السابقة.

ولم يذكر أنهم كذبوه وإنما اعتبرضوا على أتباعه قائلين: ﴿أَنْزَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ . وهددهم إن لم يتته بالرجم.

فدعى ربه قائلاً إن قومه كذبوه وطلب النجاة له ولمن آمن ، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن آمن معه وأغرق الآخرين .

وهذا هو نص ماء في الشعراء .

﴿كَذَّبُتُ قَوْمًّا نُوحُ الْمُرْسَلِينَ ١٦٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ نُوحُ أَلَا نَنْقُونَ ١٦٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ١٦٨ أَمِينٌ ١٦٩ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٠ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرَى إِلَّا عَلَى رَبِّ ١٧١ الْعَلَمِينَ ١٧٢ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٣ قَالُوا أَنْزَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ١٧٤ قَالَ وَمَا ١٧٥ عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧٦ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّهِمْ لَوْ تَشَعُّرُونَ ١٧٧ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ ١٧٨ الْمُؤْمِنِينَ ١٧٩ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٠ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْهَهُ يَنْتُوحُ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ١٨١ ١٨٢ قَالَ رَبِّي إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١٨٣ فَاقْتَحَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَّا وَبَجَّنِي وَمَنْ مَعَيْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٨٤ فَأَبْعَجَنِيهِ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاكِ الْمَسْحُونِ ١٨٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ١٨٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً وَمَا ١٨٧ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ١٨٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٨٩﴾

٧ - وأما في سورة العنكبوت فإنه لم يذكر دعوته لقومه ولم يذكر موقف قومه ، وإنما ذكر مدة لبثه في قومه وأن قومه أخذهم الطوفان لظلمهم وأنجاه الله ومن معه .

وهذا ما ورد في القصة في هذه السورة .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَيَّثُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمَسِينَ عَامًا فَأَخْذَهُمُ الْطُوفَافُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٩٠ فَأَبْعَجَنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ١٩١﴾



٨ - وأما في سورة الصافات فإنه ذكر أن نوحًا دعا ربه وأن ربه أجابه وأنه نجاه وأهله من الكرب العظيم وأنه جعل ذريته هم الباقيين مما لم يذكر في المواطن الأخرى ، فإنه ذكر فيها ما كان بعد نوح وبعد النجاة ، وماذا ترك عليه في الآخرين ، وذكر أنه أغرق الآخرين ، ولم يذكر من هم الآخرون ولماذا أغرقهم .

وهذا ما ورد فيها:

﴿ وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَلَنِعَمْ الْمُجِيْبُونَ ﴿٧٦﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِيَّتَهُمْ هُمُ الْبَاقِيَنَ ﴿٧٨﴾ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرِيَنَ ﴿٧٩﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمَيْنَ ﴿٨٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيَنَ ﴿٨٣﴾ ﴾

٩ - وأما في سورة القمر فإنه قال كما قال في بقية الأقوام: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ ﴾ ، وكذلك قال في الأقوام الأخرى:

﴿ كَذَبَتْ عَادٌ ﴾ ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودٌ ﴾ ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ .

فالقصة على نمط ما ذكر في السورة من القصص .

وهي لم تذكر أنه دعا قومه إلى عبادة الله ، وإنما ذكر تكذيب قومه وزجرهم له ، ثم إنه دعا ربه أنه مغلوب ، والمغلوب إنما يطلب النصر ، فطلب النصر قائلاً: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْصُرْ ﴾ فأجابه ربه إلى ذلك .

وقد تقول: وما الفرق بين القصص في سوريتي القمر والشراة وهي كلها تجري على نسق واحد؟

فنقول: إن المشهد يختلف في السورتين .

ففي سورة الشراة كان يذكر ماذا تقول الرسل لأقوامهم ، وإلى ماذا كانوا يدعونهم ، فكان كل رسول يقول لقومه: ﴿ أَلَا نَقُولَنَّ ﴿١١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢﴾ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

وأما في سورة القمر فلم يذكر دعوة الرسل لأقوامهم ، وإنما ذكر فيها تكذيب أقوامهم لرسلهم وعاقبة التكذيب ، وكان التعقیب على القصص كلها واحداً ، وهو قوله بعد كل قصة : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِرِي﴾ .

فالقصص في سورة القمر تذكر جانباً آخر وصورة أخرى من صور القصص القرآني ، وإن قصة نوح على نمط القصص الأخرى في السورة ، فهي لوحة متناسبة .

وإليك ما جاء في سورة القمر :

﴿كَذَّبُتُ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَأَزْدَجَرَ فَدَعَ رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصَرَ فَفَنَحْنَا أَبُوبَ السَّمَاءِ إِمَاءً مُهْمَرٍ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالنَّقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرِ قَدْ فَدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَحْيِ وَدُسْرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفَّارًا وَلَقَدْ رَرَكَنَهَا إِيَّاهُ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِرِي﴾ .

١٠ - وأما في سورة نوح وهي آخر موطن تذكر فيها قصة نوح وآخر موطن يذكر فيها اسم نوح فإنها تختلف عن كل ما جاء في القصص القرآني من هذه القصة .

إنها هنا أشبه بتقرير نهائي قدمه نوح إلى ربها في مسار دعوته ، و موقف قومه منه .

فهو هنا لم يخاطب قومه بشيء ولم يخاطبوه بشيء وإنما ذكر ماذا قال لهم وكيف واجهوه ، فقد قال ربنا : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنَّ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ فأمره ربها بإذلال قومه .

فقال نوح مستجيناً لأمر ربها : ﴿يَقُولُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّئِنُّ﴾ فهو تنفيذ لأمر ربه ﴿أَنَّ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ .

فقد قال له ربها : ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ ، فقال لهم نوح : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّئِنُّ﴾ .



ثم ذكر إلى ماذا دعاهم ، وذلك قوله : ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ﴾
 ثم ذكر نوح لربه ماذا كان منه ومنهم .
 فقال : ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ فَوْمَى لَيْلًا فَنَهَارًا...﴾ ، إلى آخر ما قال .
 ثم ذكر نوح لربه ماذا كان موقفهم منه :
 ﴿قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَرِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا حَسَارًا...﴾ إلى آخر ما ذكر .

ثم ذيل التقرير بمقترح وهو خاتمة التقرير فيهم ، وهو أن يهلكهم كلهم فلا يترك كافراً على وجه الأرض فقال : ﴿وَقَالَ نُوحُ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِنَ دَيَارًا﴾ وقد علل هذا المقترح بقوله : ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضْلُّوْا بِعَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

ثم ختم التقرير بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات فلعله أن يكون قد قصر في شيء من عمله .

وهو تقرير عجيب جمع فيه خلاصة ما حصل في رحلته الطويلة مع قومه وذيله بمقتره .

فقد قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾
 وقال في هود : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .
 وقال في الشعراء : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ﴾
 وقال في التقرير النهائي في سورة نوح : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ﴾

فجمع ما جاء في الأعراف والمؤمنون وهود والشعراء .

فإنه قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾

وقال في سورة نوح : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ۚ ﴾

وقال في هود : ﴿ إِنِّي لِكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۚ ﴾

وكذلك قال في سورة نوح .

وقال في الشعراء : ﴿ فَأَنْقُضُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ ۚ ﴾

ونحوه قال في سورة نوح .

فجمع فيها كل ما قاله نوح في كل ما ورد من القصص القرآني .

حتى إنه جمع في سورة نوح بين القول الصريح و(أن) المفسرة أو المصدرية فقال : ﴿ قَالَ يَقُولُ إِنِّي لِكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۖ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْقُضُوهُ وَأَطِيعُونَ ۚ ﴾

وهو ما تفرق في الأعراف والمؤمنون وهود والشعراء .

فقد قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ ۚ ﴾

وقال في الشعراء : ﴿ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ نُوحٌ لَا نَنَقْرُونَ ۚ ﴾ بذكر القول .

وقال في هود : ﴿ أَنَّ لَا تَغْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ۚ ﴾

ولم يجمع بينهما في القصة في موطن آخر .

ثم ذكر موقف قومه ، فذكر أنهم عصوه واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، وأنهم مكرروا مكرراً كباراً .

ثم ذكر عاقبتهم في الدنيا والآخرة وهي أنهم أغرقوا ، وهذا في الدنيا ، وأنهم أدخلوا ناراً ، وهذا في الآخرة ، فهو تقرير جامع مع ذكر العقوبة الجامعة في الدنيا والآخرة .

وقد وافق ربنا على طلبه مبيناً سبب الإجابة وهو قوله : ﴿ مَمَّا حَطَّتْ إِلَيْهِمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ۚ ﴾ فإنه حصل ذلك بسبب الخطئات لا بسبب آخر .



ثم ختم التقرير بالدعاء بالمغفرة لأوسع مجموعة من المؤمنين وهو ما لم يذكر في غير هذا الموطن من القرآن فقال: ﴿رَبِّ أَعْفُرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِمُؤْمِنَاتِي وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

ولم يذكر دعاء بمثل هذا التفصيل في طلب المغفرة وذلك مناسبة للتقرير الجامع.

ذكر الدعاء في القصة:

من الملاحظ في مسار قصة نوح أنه لم يدع بالنجاة في سوري الأعراف ويونس ؛ لأن الدعوة كانت في مهدها فلا يناسب طلب النجاة.

وكذلك في سورة هود فإنه لم يدع بالنجاة وإنما أخبره ربه في هذه السورة أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، وأمره بصنع الفلك ، وقال له ربه: ﴿وَلَا تُخَطِّبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فعلم من ذلك أنهم ناجون لأنه قال له إنه سيغرق الذين ظلموا.

وأول دعاء صريح له كان في سورة المؤمنون وهو قوله: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ فطلب النصر. وهذا أول دعاء صريح.

قد تقول: لقد قال ربه في هذه السورة أيضاً: ﴿وَلَا تُخَطِّبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ كما قال في سورة هود ، فلم دعا لنفسه ولم يكتف بما أخبره ربه فيعلم أنه ناجٍ من غير دعاء؟

فنقول: إن الأمر مختلف في السورتين ، فإنه في سورة المؤمنون قال له ذلك بعد الدعاء فكانه استجابة لدعائه.

وأما في سورة هود فقد قاله ربه ابتداء فلا حاجة إلى طلب النجاة بعد إخباره ، فاختلف الأمر.

وكل تعبير مناسب في مكانه ، فإن سورة المؤمنون بعد هود في

تسلسل السور ، ومن المناسب أن يكون الطلب والدعاء بعد أن يمضي وقت طويل مع قومه وأن ينال من أذاهم الكثير فيلجأ إلى الدعاء فأخر الدعاء إلى الموقف المتأخر .

ولما اشتد عليه الأمر في سورة الشعراة وهددوه بالرجم ونالوا منه ومن المؤمنين قائلين له : ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ و﴿لَئِنْ لَمْ تَنْهِ يَنْثُوْحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ دعا بالنجاة له ولم ينالوا منه من المؤمنين .

وقد تقول : ولم دعا لنفسه فقط بالنجاة في سورة المؤمنون ولم يذكر معه من آمن كما فعل في الشعراة ؟

فنقول : إن قومه لم يذكروا من معه من المؤمنين في سورة المؤمنون فدعا لنفسه ولم يذكر من معه ، فإنه لم يرد لهم ذكر .

ولما ذكروا من معه في الشعراة دعا لنفسه ولم من آمن معه قائلاً : ﴿فَافْتَحْ بَيْنِ وَيْنِهِمْ فَتَحًا وَبِخَيْرٍ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ولم يذكر له دعاء صريح في سورة الصافات ، فإنه لم يذكر له موقف مع قومه ، وإنما ذكر ربنا أن نوحًا ناداه فاستجاب له .

وأما في سورة القمر فقد دعا لنفسه ولم يذكر من آمن ، ذلك لأنه ذكر تكذيب قومه وزجرهم له ولم يرد ذكر لمن معه فقال : ﴿أَبِي مَغْلُوبٍ فَانْصِرْ﴾ . وكان الدعاء بطلب النصر وليس بطلب النجاة ؛ لأنه ذكر أنه مغلوب ، وذكر الانتصار هو الأنسب مع المغلوب .

وأما في سورة نوح والتي هي التقرير النهائي فنرى نوحًا يدعوا على قومه بأن يهلكهم الله جميًعاً قائلاً : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا نَذَرَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضْلُلُوا عَبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجْرَ أَكَفَارًا﴾ .

وهذا هو الموطن الوحيد الذي دعا فيه على قومه بالهلاك ولم يدع



لنفسه بالنجاة ، في حين كان يدعو بالنجاة في القصص الأخرى .

ذلك أن هذا هو الموقف الأخير ، فدعا ربه أن يكون هؤلاء الكفرا
آخر عهدهم في الدنيا أن يستأصلهم جميعاً .

ولم يدع لنفسه بالنجاة ، فإنه إذا أهلك الله الكافرين فقد نجا المؤمنون
منهم ومن شرورهم فلا داعي لطلب النجاة ، فإنه رأى أن المقام لا يناسب
الدعاء بالنجاة بعد هلاكهم فإن هذا من باب تحصيل الحاصل . وإنما دعا
بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات لأن هذا هو المناسب ، فإن
الدعاء بالمغفرة في خواتيم الأمور هو الأنسب ، ألا ترى إلى قوله
سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ قُتْلُتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمَ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَحْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧] فجعل خاتمة الحياة لهؤلاء المغفرة ، وأنه
أمر رسوله في آخر سورة نزلت عليه وهي سورة النصر بالاستغفار فقال :
﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرٌ أَللَّهُ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ أَلْتَاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفَوْجًا ﴿٢﴾ فَسَيَّحَ بِهِمْ دَرِّيْكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّمَا كَانَ تَوَابًا ﴾ [النصر: ١ - ٣] .

وكان رسول الله ﷺ يدعو إذا أوى إلى فراشه قائلاً : (إن أمسكت
نفسی فاغفر لها) فطلب المغفرة عند طي صفحة الحياة .

وقد يكون بعد ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلَاخُونَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] .

وقد يكون يوم الحساب وقد دعا سيدنا إبراهيم قائلاً : ﴿ رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُولُونَ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] .

وقد يطلب المؤمنون المغفرة في عرصات القيامة كما قال تعالى :
﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ الَّتِي وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُمْ وَوَرَهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨] .

ومن الملاحظ أنه لم يرد التصريح بذكر المؤمنين في دعاء نوح

بالنجاة ، أو في أمر الله له أن يحمل معه من آمن إلا حيث ورد ذكر المؤمنين وازدرائهم في القصة وذلك في مكانيين :

الأول : في سورة هود حيث قال الملا الدين كفروا : ﴿وَمَا نَرَدْكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِإِدَيَ الرَّأْيِ﴾ وقد جرى ذكرهم أيضاً في بقية القصة فقال له ربنا : ﴿قُلْنَا أَتَحْمِلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمَنَ﴾ .

والآخر : في سورة الشعراة حيث قالوا له : ﴿ قَالُوا أَنَّمُنْ لَكَ وَأَتَبْعَكَ الْأَرَدْلُونَ﴾ [الشعراة : ١١١] فدعوا نوح لنفسه ولهم قائلاً : ﴿ وَنَجَحَى وَمَنْ مَعَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراة : ١١٨] .

فذكر وصف الإيمان لمن معه .

وحيث لم يرد لهم ذكر فإنه يذكر النجاة له ولمن معه على العموم من دون تقييد بذكر صفة الإيمان فإنه مفهوم من المقام .

ذكر الناجين :

تحتفل المواطن في قصة نوح في ذكر الناجين :

فهو أحياناً يذكر نجاته ومن معه ولا يذكر أهله مكتفياً بذكر من معه .

وأحياناً يذكر أهله ولا يذكر معهم غيرهم .

وأحياناً يذر أهله ومن معه .

وأحياناً يذكر نوحًا ولا يذكر أحدًا معه لا من أهله ولا من غيرهم .

وهذا يجري على وفق ضوابط دقيقة .

فحيث يذكر تبليغ قومه يذكر من معه وقد يذكر أهله معهم .

ففي سورة الأعراف قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْتَورُ أَعْبُدُ وَأَلَّهَ ﴾



فقال في النجاۃ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾

وفي سورة يومن قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ﴾

فقال في النجاۃ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾

وفي سورة هود قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
۝ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ . . .﴾

فقال في النجاۃ: ﴿قُلْنَا أَحِيلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾

وفي سورة المؤمنون قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُرَأَبْدُوا
اللَّهَ﴾

فقال في النجاۃ: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنَّتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ .

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ قَوْمٌ نُوحٌ الْمُرْسَلِينَ
۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُرْ نُوحٌ
اللَّهُ أَنْتُمْ قُوْنَ﴾

فقال في النجاۃ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾

وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾

فقال في النجاۃ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَاصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾

وحيث لم يذكر تبليغ قومه ذكر أهله فقط وذلك في سورة الأنبياء فإنه
قال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ﴾

فذكر أهله ولم يذكر من معه ، فإنه ذكر دعاءه ولم يذكر تبليغ قومه .

وفي سورة الصافات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَنِعْمَ الْمُجِيْبُونَ
۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾

فذكر أهله ولم يذكر من معه ، فقد ذكر دعاءه ولم يذكر قومه .

أما في سورة القمر فقد ذكر نجاته ولم يذكر معه لا أهله ولا الذين معه ، فإنه دعا ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصِرْ﴾ فنصر المغلوب .

وذكر الأهل ومن معه في مكانين :

الأول : في سورة هود ، وقد ذكر الأهل لما ورد في القصة من ذكر مناداة نوح لابنه ليركب معه ، ومناداة نوح ربه قائلاً : ﴿رَبِّتِ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحَقُّ الْحَكَمَيْنَ﴾ فناسب ذكر أهله .

والوضع الآخر : في سورة المؤمنون وذلك مناسبة لجو السورة .

فمما بدأت به السورة قوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَفَظُونَ ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكُتُ أَيْمَنُهُمْ فَإِيمَانُهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٦] . والأزواج أهل ، وأهل الرجل زوجه .

ثم ذكر خلق الإنسان وتطوره من سلاله من طين إلى نطفة في قرار مكين إلى أن أنشأه خلقاً آخر ، وهذا إنما يكون في رحم الأزواج ، والأزواج أهل ، وإن ذلك إنما يكون بين الرجل وزوجه .

ثم إنه ذكر في السورة بعضاً من الرسل وذوي قرباه ، فقد ذكر موسى وأخاه هارون فقال : ﴿ثُمَّ أَرَسَلْنَا مُوسَى وَلَخَاهُ هَارُونَ بِثَائِبَتِنَا وَسُلْطَنِيْنِ﴾ [المؤمنون : ٤٥]

ثم ذكر ابن مريم وأمه فقال : ﴿وَجَعَلْنَا أَبَنَ مَرِيمَ وَأَمَّهُءَاءِيَّةَ وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبِّوْقَةِ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

وذكر البنين ، والبنون من الأهل فقال : ﴿أَيَّهُسَبُونَ أَنَّمَا نُعِذُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ لِسَانِهِمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِلَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] فناسب ذكر الأهل في النجاة .



خاتمة القصص:

إن خاتمة القصص ونهاياتها ليست متطابقة في جميع الموضع ، بل إن كل موضع مناسب للسياق الذي وردت فيه ، كما إن النهايات قد يكمل بعضها بعضاً.

فقد قال في الأعراف : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال في يونس : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَيَّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَّيْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا إِنَّهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣].

فقد وصف قوم نوح في الأعراف بأنهم كانوا قوماً عميماً ، وذلك أنهم قالوا له : ﴿ إِنَّا لَرَبِّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فإنهم لما وصفوه بالضلالة ناسب أن يصفهم بالعمى من جهتين :

الجهة الأولى : أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا لَرَبِّكَ ﴾ ضد الرؤية العمى ، فإن الذي لا يصر أعمى ، فناسب أن يصفهم بالعمى لأنهم في الحقيقة لا يرون.

وقال : (عمي) ولم يقل : (عمي) لأن العمى هو أعمى القلب وال بصيرة ، والأعمى أعمى البصر.

والرؤية في قولهم : ﴿ إِنَّا لَرَبِّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ رؤية قلبية فوصفهم بعمى القلب فقال : ﴿ عَمِينٌ ﴾ مناسبة للرؤية القلبية.

والجهة الأخرى : أنهم وصفوه بالضلالة ولم يتبيّن لهم الهدى وعموا عنه ، فناسب وصفهم بالعمى.

وأما في يونس فقد أندراهم وذّكرهم ولم يردو عليهم بشيء فناسب أن يقول : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

ثم ذكر أنه نجا و من معه وجعلهم خلائق ؛ وذلك مناسبة لما تقدم



في السورة من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾^{١٣} ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَتِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ - ١٤].

فناسب قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَتِيفَ﴾ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَتِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

وأما في هود فالمشهد طويل ، والقصة مفصلة وقال في خاتمتها: ﴿قَيلَ يَنْجُوحُ أَهْبِطُ إِسْلَامِ مَنَا وَرَكِّتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمِّيَّهُمْ ثُمَّ يَمْسِهُمْ مَنَا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ .

والهبوط إنما هو بعد الركوب والجري والاستواء على الجودي مما لم يذكره في الأعراف ويونس .
ثم إن المشاهد متسلسلة .

فقد قال في الأعراف: ﴿فَانْجِيَنَّهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلْكِ﴾ .

وذكر في يونس أنه جعلهم خلائف وهي بعد النجاة في الفلك .
وقال في هود: ﴿يَنْجُوحُ أَهْبِطُ إِسْلَامِ﴾ فطلب منه الهبوط وهي مرحلة بعد النجاة في الفلك .

ثم قال: ﴿وَأُمَّمٌ سَنَمِّيَّهُمْ ثُمَّ يَمْسِهُمْ مَنَا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ ، وهي مرحلة تأتي بعد قوله في يونس: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَتِيفَ﴾ .

فقد ذكر في يونس أنه جعل الناجين خلائف .
وذكر في هود من يكون بعدهم من الأقوام .

واما في المؤمنون فقد قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنِّي مُنْزَلًا مُبَارِكًا وَأَنَّ خَيْرَ الْمُنْزَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] ، وهذا إنما يكون بعد الهبوط ، فطلب المنزل إنما يكون بعد الهبوط من السفينة .



فبعد الهبوط بسلام دعاه إلى أن يطلب المنزل المبارك .
وأما في الشعرا فالقصة متناسبة مع القصص في السورة .
فقد بين وحدة الرسالة وأن الأنبياء دعوا إلى أمر واحد ، وكان موقف
أممهم منهم واحداً وكان التعقيب واحداً .

فنوح قال لقومه : ﴿ أَلَا نَنْقُونَ ﴾ إِنِّي لِكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَطِيعُونَ ﴾ وَمَا أَشَدُ لُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَطِيعُونَ ﴾ [الشعرا : ١٠٦ - ١١٠] .

وكذلك قال هود : [الشعرا : ١٢٤ - ١٢٧] .

وكذلك قال صالح : [الشعرا : ١٤٢ - ١٤٥] .

وكذلك قال لوط : [الشعرا : ١٦١ - ١٦٤] .

وكذا قال شعيب : [الشعرا : ١٧٧ - ١٨٠] .

وكان التعقيب واحداً وهو قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ أَعَزِيزُ الرَّحِيمِ ﴾ .

وذلك بعد هلاك قوم نوح ١٢١ ، ١٢٢ و هلاك عاد ١٣٩ ، ١٤٠ ،
وهلاك ثمود ١٥٨ ، ١٥٩ ، وهلاك قوم لوط ١٧٤ ، ١٧٥ ، وأصحاب
الأيكة ١٩٠ ، ١٩١ .

فهي متناسبة مع القصص الواردة في السورة في وحدة الرسالة ،
والخاتمة ، والتعقيب .

ثم ذكر أن الفلك مشحون ، أي ممتليء ، ولم يذكر ذلك في موضع آخر .

وأما في سورة العنكبوت فقد قال : ﴿ فَأَنْجَنَّاهُ وَأَصْبَحَ السَّفِينَة وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] وهذا هو الموطن الوحيد الذي

ذكر فيه لفظة السفينة في قصة نوح . وقد بينا في كتابنا (أسئلة بيانية) سبب اختيار السفينة على الفلك في هذا الموطن ، وما الفرق في الاستعمال القرآني بين السفينة والفلك فلا نعيد القول فيه .

ثم بين أمر السفينة فقال فيها: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فذكر أنه جعلها آية للعالمين ، ومما قيل في معنى ذلك أنه أبقاها بعد ذهاب نوح لتكون آية لمن بعده ، فقد قيل إنها بقيت زماناً طويلاً على الجودي يشاهدها المارة^(١) .

ولم يذكر ذلك في موطن آخر .

فذكر أمر الفلك في الشعراء عند النجاة ووصفه بأنه مشحون .

وذكره هنا بعد خلوه مما فيه وأنه جعله آية للعالمين .

وأما في سورة الصافات فقد قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا دُرْيَتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٦ - ٧٧] فذكر نجاته وأهله ولم يذكر من معه .

وهذا من دقيق مراعاة المقام ، فإن المقام لا يناسب ذكر من معه ، وذلك أنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا دُرْيَتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي جعل ذريته هم الباقيين على قيد الحياة ، وأما من نجا معه من المؤمنين فقد هلكوا وبادوا ، وإن البشر بعدهم إنما هم من ذرية نوح فهو أبو البشر الثاني والأول هو آدم .

فلو قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا دُرْيَتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ لدل ذلك على أنه أهلك من معه من المؤمنين ، وأبقى أهل نوح وذريته ، وهذا لا يناسب مع ذكر النجاة ، إذ سيكون المعنى أنه أنجاهم من الماء ليهلكهم على اليابسة ويبيقي ذرية نوح وحده .

(١) انظر روح المعاني ١٤٣/٢٠ ، تفسير ابن كثير ٣/٤٠٧ .

فلما ذكر أنه أبقى ذريته وحدهم ناسب ذكر نجاة أهله وعدم ذكر الآخرين .

وأما في سورة القمر فقد ذكر أن نوحًا دعا ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْصُرْ﴾ فذكر نجاته ولم يذكر أحدًا معه ، ذلك أنه دعا لنفسه فذكر نجاته فقط .

ثم ذكر السفينة التي حملته فقال هي : ﴿ذَاتُ الْوَرَجَ وَدُسْرِ﴾ ولم يذكر ذلك في موطن آخر . وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها صفة السفينة وأنها تجري برعایة الله ، ثم ذكر مآلها بعد ذلك فقال : ﴿وَلَقَدْ رَكِنْنَا إِيمَانَهُ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِ﴾ .

فذكر في سورة هود حال نوح وهو يصنع الفلك ومرور قومه عليه ساخرين .

وذكر هنا حال السفينة وشأنها . فكان ما ذكره في سورة القمر استكمال لما ورد في السور قبلها .

وقد تقول : لقد دعا نوح في سورة القمر لنفسه فقال : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْصُرْ﴾ فذكر نجاته ولم يذكر أحدًا معه .

وقد دعا في سورة المؤمنون لنفسه أيضًا فقال : ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فذكر نجاته ونجاة أهله وذكر من معه ، فما الفرق ؟

فنقول : لقد دلّ السياق في سورة المؤمنون على أن هناك مؤمنين .

فقد قال : ﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ فذكر قول الذين كفروا من قومه ، ومعنى ذلك أن هناك من قومه من آمن .

وقال : ﴿وَلَا تُحَطِّبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ ومعنى ذلك أنه من لم يكن من الذين ظلموا لا يغرق ، فدل ذلك على أن هناك صنفًا غير المذكورين .

ثم أمره ربه إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي بَخَّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فذكر أن هناك من استوى معه على الفلك وليس هو وحده.

وطلب أن يكون الدعاء بصيغة الجمع ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي بَخَّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ووصف القوم الذين نجاه منهم بأنهم ظالمون. فالامر مختلف عما في سورة القمر.

فإنه لم يذكر في سورة القمر أن معه من آمن ، ولم يجعل قومه على قسمين :

قسم مؤمن وقسم ظالم ولو على سبيل التضمين أو الإشارة.
 وإنما ذكر تكذيب قومه على جهة العموم فقال: ﴿كَذَّبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُّوحٌ﴾ .

وقال: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَأَزْدُجَرٌ﴾ ، وهذا قولهم على العموم وليس كما قال في المؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمُلْؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ .

فهو وحده بإزاء قومه فناسب ذكره هو .

فكان كل تعبير مناسباً لسياقه الذي ورد فيه .

وأما سورة نوح فقد ذكرنا ما فيها .

فتبيين أن القصة ليست مكررة وأنه ذكر في كل مكان أمراً لم يذكره في المواطن الأخرى .

* * *

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٢٥﴿أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦]



الواو في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ ابتدائية .

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ على إضمار القول^(١) أي فقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ﴾ يحتمل أن يكون معلقاً بـ (أرسلنا) أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [المؤمنون : ٣٢] أي أرسلناه بهذا الأمر .

كما يحتمل أن يكون معلقاً بقوله : (نذير) أي إنني لكم نذير بأن لا تعبدوا إلا الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَقُولُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ أَنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ﴾ [نوح : ٢ - ٣] والمعنى أنني أنذركم بهذا الأمر .

ويحتمل أيضاً أن تكون مفسرة للإرسال ، أي لقد أرسلنا نوحًا والرسالة هي ﴿ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ﴾ .

كما يحتمل أن تكون مفسرة للإنذار^(٢) أي قال لهم : إنني لكم نذير مبين . وإنذاري لكم هو ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ . . . ﴾ والمعنى أنه سبحانه أرسل نوحًا بعبادة الله وعدم عبادة غيره ، وأن نوحًا بلغهم وأنذرهم بذلك .

فدللت الآية على ما قاله نوح وما أرسل به وما أنذرهم به .

قد تقول : لقد قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

فصرح بالقول وذلك قوله : ﴿ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وكذا قال في سورة المؤمنون ٢٣ .

(١) انظر روح المعاني ١٢ / ٣٥ - ٣٦ ، البحر المحيط ٥ / ٢١٤ .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٩٤ ، البحر المحيط ٥ / ٢١٤ ، روح المعاني ١٢ / ٣٦ .

وقال ه هنا : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ . . . أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ﴾ فجاء
بـ (أن) فما الفرق؟

ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالتصريح بالقول ،

وقوله في سورة المؤمنون مثلاً : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ بذكر (أن)؟

والجواب : أنه إذا صرخ بالقول فقال : ﴿ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ فذلك
ما قاله لقومه وبلغهم به .

وأما إذا ذكر (أن) فالمعنى مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ . . . أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي
أرسلنا بهذا الأمر ، أي إن هذه هي الرسالة التي أرسلناها بها وليس هذا
قوله .

وكذا قوله في سورة المؤمنون : ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي أرسلناه بهذا الأمر ، أي هذه هي الرسالة التي
أرسلناها بها ، فـ (أن) مصدرية أو مفسرة .

فقوله في الأعراف : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ هو قول نوح
لقومه .

وقوله في المؤمنون : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون : ٣٢] هو
الرسالة التي أرسلناها بها إليهم وليس قول نوح .

وكذا قوله في سورة هود كما أوضحتنا .

قد تقول : لقد ذكرت أن قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ في قوله :
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ على إضمار القول ، فما



الدليل على ذلك؟ ولمَ لم تعلقه بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ كما في قوله: ﴿أَنَّ لَا نَعْبُدُوَا
إِلَّا اللَّهُ﴾؟

والجواب: أن الدليل على إضمار القول هو كسر همزة (إن)، ولو كان معلقاً بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لفتحت الهمزة كما هو المعلوم.

وهناك قراءة متواترة بفتح الهمزة أيضاً، فيكون المعنى على التعليق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ويكون المعنى على ذلك أنه أرسله بالإذار وما بعده.

وقد أنزلت هاتان القراءتان المتواترتان لتدللاً على أن نوحًا أرسل بذلك وأنه بلغهم بما أرسل به.

قد تقول: ولم حذف القول في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمَهُ إِنِّي لَكُمْ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يصرح به فيقول: (قال إنني لكم نذير مبين)؟

والجواب: أنه لو ذكر القول لوجب كسر همزة (إن) كما هو معلوم، ولكن المعنى أن ذلك قوله، ولا يفيد معنى آخر.

فلما حذف القول صح أن تفتح همزة (إن) وأن تكسر فيكون لكل منها معنى.

فالكسر يدل على القول ،

والفتح يدل على التعليق بالإرسال ، فجمع بين المعนدين ، فدل ذلك على أن هذا ما أرسل به وهو ما بلغه .

وهو الأولى .

* * *

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

لقد وصف اليوم بأنه أليم ، واليوم لا يكون أليماً وإنما يقع فيه الألم . وهو تعبير مجازي يدل على اتساع الألم وشدته في ذلك اليوم ووقوعه فيه

على سبيل الاستغراب بحيث يكون اليوم كله شاملًا للألم.

ولو قال : (إنني أخاف عليكم عذابًا أليمًا) لا يتحمل أن يكون ذلك في وقت من الأوقات دون سائر اليوم .

فلما قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ﴾ دل على أن الألم شامل لليوم كله وليس في وقت منه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه إذا ذكر اليوم مع العذاب كما في الآية كان العذاب عامًا وليس خاصًا بفرد . وإذا لم يذكر اليوم فقد يكون العذاب واقعًا على فرد واحد وذلك نحو قوله تعالى : ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ [يوسف : ٢٥] .

ومن الملاحظ أنه لم يوصف اليوم بأنه عظيم أو كبير أو محظوظ إلا في سياق العذاب ولم يرد في الجزاء الحسن أو في الجنة . فلم يقل في يوم دخول الجنة يوم عظيم أو كبير .

* * *

﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَيْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَيْنَا كَتَّبَكُمْ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِأَدِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَنُنَّكُمْ كَذِيلِكَ﴾ [هود : ٢٧]

ذكر الملائكة الذين كفروا أمرًا تدعوهם إلى الشك في دعواه وهي :

١ - أنه بشر مثلهم فلماذا يؤثره الله بهذا الفضل دونهم ؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنهم يرون أن الله لو أراد أن يرسل رسولاً لأرسل ملائكة ، كما قالوا في موطن آخر : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون : ٢٤] .

٢ - أن الذين اتبعوه هم أراذل المجتمع في نظرهم ، وأما هم فملا



ال القوم أي أشرافهم ، فكيف يرى هؤلاء الأراذل ما لا يراه أشراف القوم من الحق؟

وحتى لو كان نوح على حق فإن هؤلاء لا ينبغي أن يكونوا معهم في جالسوهم ويخالطوهم .

٣ - وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الذين اتبعواه وهم أراذل القوم اتبعواه بادي الرأي ، أي أول الأمر من دون تفكير ولا رؤية ، ولو فكروا وتربوا لم يفعلوا .

٤ - أنا لا نرى لكم علينا من فضل لا في حصافة عقل ولا في مكانة اجتماعية فلماذا اختاركم الله دوننا في الرسالة أو التصديق؟

جاء في (تفسير الرازبي) : «والمعنى لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل . فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات» ^(١) .

٥ - وذكروا أنهم يظلونهم كاذبين . والخطاب للجميع لنوح وأتباعه ، فنوح في ظنهم كاذب ، وأتباعه في ظنهم كاذبون . فهم لم يؤمنوا به حقاً وإنما قد يكون إيمانهم لغرض من الأغراض أو أنهم آمنوا به أول الأمر ولم يرجعوا عن ذلك .

لقد قال هنا : ﴿بَلْ نَظَرْتُكُمْ كَذِيلِكُم﴾ من غير توكيده للظن .

وقال في الأعراف : ﴿وَإِنَّا لَنَظَرْنَا مِنَ الْكَذِيلِ﴾ [الأعراف: ٦٦] فأكده بإأن واللام .

(١) تفسير الرازبي / ٦ - ٣٣٦ - ٣٣٧ .

وقال في الشعراء: ﴿وَإِنْ تَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِّابِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦] فأكده بـ(إن) المخففة وذلك بحسب المقام الذي يقتضي كل تعبير.

وإيضاح ذلك أن مقام التكذيب في الأعراف أشد من الموطنين الآخرين ، فقد قالوا النبيهم: ﴿إِنَّا نَرَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] ولم يرد نحو هذا في الموطنين الآخرين .

ثم إنه كان بينه وبين قومه مشادة عنيفة ، فقد قالوا له: ﴿قَالُوا أَجِحْتَنَا لِتَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ إِبَّا اؤْفَى فَأَنِّي بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]

فرد عليهم قائلاً: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَدِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُهَا أَنْتُ وَمَابَأْوَكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ فَأَنْظُرُوهُ إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] فناسب ذلك قوة المواجهة في التكذيب .

وأما في الشعراء فالمواجهة أخف مما هي في الأعراف ، فقد قالوا لشعيб في الشعراء: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [١٨٦] وما أنت إلا بشّرٌ مثلكما وَإِنْ تَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِّابِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦].

ثم تحدوه قائلين: ﴿فَأَسْقَطْتُ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وهو لم يواجههم بتلك الشدة التي واجههم بها في الأعراف ، فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

فوازن بين قول هود في الأعراف: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ وقول شعيب في الشعراء: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨]



ووازن بين قولهم في الأعراف : ﴿إِنَّا لَرَبِّنَاكَ فِي سَفَاهَتِهِ﴾ وقولهم في الشعراء : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾

يتضح لك الفرق بين المقامين ، ويتبين لك الفرق بين التكذيبين .
فجاء التكذيب في الشعرا بـ (إن) المخففة .

وأما في هود فالسياق والمقام مختلفان ، فهما لم يكونا بذلك العنف والقوة . فهم لم يزيدوا على ما ذكروا من دون مواجهة عنيفة .

حتى إن نوحًا في رده عليهم لم يكن عنيفًا وإنما قال لهم : ﴿قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّةٍ مِّنْ رَّبِّي وَإِنِّي رَّحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ، فَعَمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلِزِي مَكْمُوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] .

أي لم يُلبِّست عليكم البينة .

فكانت المواجهة أخف وكان التكذيب أخف .

فناسب كل تعبير مكانه .

* * *

﴿قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّةٍ مِّنْ رَّبِّي وَإِنِّي رَّحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ، فَعَمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلِزِي مَكْمُوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]

بدأ بالرد العام عليهم قائلاً لهم : يا قوم أخبروني إن كنت على بينة من ربِّي وهي البرهان والحجة التي تثبت صدقِي وصحة ما أقول فإنه أيدني بمعجزات تدل على ذلك .

وأتاني رحمة من عنده وهي النبوة خصني بها .

ثم إن هذه البينة أبهمت عليكم ولبسَت أنزلتكم الحجة مع إيهامها وأنتم كارهون لها لا تحبونها ولا تحبون أن تظهر ؟

كيف نلزمكم الحجة وهناك مانعان من ذلك:

١ - الإبهام والالتباس.

٢ - الكراهة لها ، إذ لو كنتم تحبونها وتودون معرفتها لتوصلتم إلى ذلك بكل سهل ، ولكنكم تكرهونها فكيف نلزمكم إياها؟

جاء في (الكساف): «رأيتم: أخبروني ، ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ على برهان ﴿مِنْ رَّبِّي﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواي ، ﴿وَأَنَّنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ بإياته البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوة»^(١).

﴿فَعِبَّثْتُ عَلَيْكُمْ﴾ : أبهمت وأخفيت^(٢).

والآن لنتنظر في تأليف هذه الآية:

١ - قال (يا قوم) بنداء قومه وأضافهم إلى نفسه تألفاً لهم ومداعاة على أن يستمعوا له.

٢ - قال: (رأيتم) ، ومعنى (رأيتم) أخبروني ، «ومعنى هذا الفعل منقول من الرؤية إلى معنى الإخبار ، فقولك مثلاً: (رأيت إن أصبحت أميراً ماذا أنت فاعل؟) معناه: أنظرت في هذا الأمر؟ فأنت تستخبره بما سأله عنه»^(٣).

فهو لا يطابق (أخبروني) ، فلا تقول في: (أخبرني حين يسافر محمود) مثلاً: (رأيت حين يسافر محمود) ولكن هذا الفعل فيه معنى التعجب . جاء في (شرح الرضي على الكافية): «ومعنى (رأيت) أخبر ،

(١) الكشاف ٩٥/٢.

(٢) البحر المحيط ٥/٢١٦.

(٣) معاني النحو ٢/٤٣٢.



وهو منقول من (رأيت) بمعنى (أبصرت) أو (عرفت) كأنه قيل : أبصرته وشاهدت حاله العجيبة ، أو أعرفتها ، أخبرني عنها . فلا يستعمل إلا في الاستخار عن حالة عجيبة^(١) .

وفي الآية معنى التعجب ظاهر ، إذ المعنى : أفكترتم ونظرتم إذا كانت البينة مبهمة عليكم وأنتم لها كارهون فكيف نلزمكموها؟ أيسuch ذلك؟ أيكون ذلك مقبولاً عقلاً؟ !

فاستعماله هنا أنساب من (أخبروني) الذي قد لا يكون فيه معنى التعجب .

٣ - قال : ﴿إِنْ كُثُرْ عَلَىٰ يَتِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّي﴾ فذكر أن البينة من ربه ، ولم يقل : (من ربكم) لأن البينة جاءته هو ، ولو كانت البينة جاءتهم هم لقال : (من ربكم) ذلك أنه حيث كان الكلام على المتكلم نفسه يقول إن البينة من ربي فيضيق الرب إلى ياء المتكلم ، وحيث قال : إن البينة جاءتكم يقول : إن البينة من ربكم ، بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين .

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ فِي عَلَىٰ يَتِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّي وَكَذَّبُتُمْ بِهِ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

وقال : ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُثُرْ عَلَىٰ يَتِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّي﴾ [هود : ٢٨] .

ونحو ذلك جاء في [هود ٦٣] ، و[هود ٨٨] .

بإضافة الرب إلى ضمير المتكلم .

في حين قال : ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .

وقال : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

ونحو ذلك قال في [الأعراف ٨٥ و ١٠٥] .

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/٢١٢ .

إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين .

وكل تعبير مناسب في مكانه ، فكل تأتيه البينة من ربه ؛ لأن الرب هو المربي والمعلم والمرشد والموجه فناسب أن تكون البينة من رب من تأتيه .

ومن الطريف أن نذكر أن جميع الأمم السالفة التي خوطبت بنحو هذا الخطاب قيل لها : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ وذلك في قوم صالح [الأعراف : ٧٣] ومدين [الأعراف : ٨٥].

وقال موسى لفرعون : ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف : ١٠٥] إلا الذين أرسل إليهم سيدنا محمد فإنه قال فيهم : ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام : ١٥٧] ، بزيادة الهدى والرحمة على البينة .

أما الأقوام البائدة فلم يزد فيها على البينة ولم يذكر هدى ولا رحمة ، ذلك أنهم عذبوا وهلكوا .

أما قوم سيدنا محمد فقد هدوا ورحموا .

وقال في الأقوام البائدة : ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾ بتأنيث الفعل لأنها يراد بها المعجزات الدالة على صدق الرسول .

وأما في سيدنا محمد فقد قال : ﴿جَاءَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ بتذكير الفعل لأن المراد بها القرآن ، فقد قال تعالى في سياق هذه الآيات : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَأَتَيْعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٥].

فذكر الفعل لأن المراد به مذكر وهو الكتاب .

٤ - قال : ﴿وَإِنَّنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ فقدّم الرحمة على الجار والمحروم ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ وذلك لأن الكلام على الرحمة ، فقد قال في تمام الآية :



﴿أَنْلَزْتُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرْهُونَ﴾ فالكلام على الرحمة.

في حين قال في السورة نفسها في موطن آخر : ﴿وَإِنَّنِي مِنْ رَّحْمَةٍ فَمَنْ يَنْصُرُ فِي مِنْكَ اللَّهُ إِنَّمَا عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣] فقدم الجار وال مجرور المتصل بضمير الرب أي (منه) لأن الكلام على الله لا على الرحمة ، ألا ترى إلى قوله : ﴿فَمَنْ يَنْصُرُ فِي مِنْكَ اللَّهُ إِنَّمَا عَصَيْتُهُ﴾ .

فلما كان الكلام على الرحمة قدمها .

ولما كان الكلام على الله قدم ضميره عليها .

٥ - قال : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ ، وهو يقول في مواطن أخرى : ﴿رَحْمَةٌ مِّنْهُ﴾

ذلك أنه يستعمل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ بذكر الكلمة (عند) لما هو أخص فلا يستعمل ذلك إلا مع المؤمنين .

وأما مع (من) فيستعملها عامة للمؤمن والكافر^(١) . قال تعالى : ﴿وَإِنْ شَاءَ نُفِّرْقُهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ [٤٣] إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَعًا إِلَى حِينِ﴾ [يس: ٤٣ - ٤٤] .

وقال : ﴿وَلِئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَثُوْسُ كَفُورًا﴾ [هود: ٩] .

وقال : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣] .

أما مع (عند) فلم يستعملها إلا مع المؤمنين .

٦ - قال : ﴿فَعَيْمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي أبهمت وأخفيت ، واستعمل (عمّيت)

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البصري) ٢ / ١٥٠ وما بعدها .



دونَ (أَبْهَمْت) أو (لُبْسَت) أو نحو ذلك ، ذلك أنهم قالوا في الآية السابقة : ﴿ مَا نَرَنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَنَاكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِإِدَيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧] بذكر فعل الرؤية ، ونقض الرؤية العمى ، فلما كانت رؤيتهم لم تهدهم إلى الحق وإلى رؤية البينة ناسب أن يذكر أنها عميّة عليهم ، فاستعمال (عميّة) أنساب بالمقام . ولما ذكر الرؤية ثلاث مرات ناسب تضييف التعمية .

وقرى أيضاً (فعَمِيت) بالتحفيف والبناء للفاعل ، أي التبست عليهم البينة .

والقراءتان معًا تفيدان أن البينة التبست عليهم وأبهمت فهي ملتبسة وبمهمة ، فكان الالتباس مضاعفاً عليهم من كل وجه : من الشيء نفسه ومُعَمَّى من غيره فزاد ذلك التباساً وتعمية .

وإيضاح ذلك أنك تقول : (التبس عليه الأمر ولبسته عليه) فالامر في نفسه ملتبس لا يهتدي إليه صاحبه ، فإن زدت على ذلك أنك لبسته أيضاً فإنه يزيد التباساً . وكما تقول : (عسر عليه فهم المسألة وعُسر عليه فهمها أيضاً) فجمع ذلك عسرتين : عسرها هي وتعسيرها عليه ، وكذلك هنا (عميّة عليهم) و(عميّة عليهم) فجمعت القراءتان هذين المعنيين .

وقال : ﴿ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ ﴾ ولم يقل : (فعَمِيتُمْ عنها) تلطفاً في الكلام . فنسب ذلك إلى البينة لا إليهم .

٧ - قال : ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ فقدم الجار والمحرر (لها) على اسم الفاعل ولم يقل (وأنتم كارهون لها) وذلك لإفادة القصر والاختصاص ، أي تخصون هذا الأمر بالكرابة .

أي أنلزمكم البينة وأنتم تخصونها بالكرابة فلا تكرهون شيئاً ككراهتكم لها .



ولو قال : (وأنتم كارهون لها) لأفاد ذلك أنهم يكرهونها ولكن لا يخصونها بالكرابة . فلما قدم الجار والمجرور دل على قصر الكراهة عليها ، وبين ذلك شدة كراهتهم لها فكيف يلزمهم إياها ؟

٨ - قال : ﴿ وَأَنْتَمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ بالاسم ، ولم يقل : (وأنتم لها تكرهون) للدلالة على ثبات هذه الكراهة ودوامها . ولو قال : (تكرهون) لكان ذلك دالاً على الحدوث .

فذكر كل شيء يحول بينهم وبين البينة .

* * *

﴿ وَيَقُولُونَ لَا أَسْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ أَمْنَوْا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِفَّتْ أَرْبَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُ فِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدُوهُمْ أَفَلَا نَذَكَرُهُنَّ ﴾ [هود: ٢٩ - ٣٠]

قال نوح إنه ليس طالب مال ولا جاه فهو لا يسألهم مالاً ولا يبغى جاهًا ، وإنما هو حامل دعوة فهو لا يطرد ما يسمونهم الأراذل فإنهم ملائق ربهم .

وفي قوله هذا رد على ما قاله الملا إنهم اتبعوه بادي الرأي من غير تفكير ولا رؤية . فقال لهم : أنا لا أعلم ذلك وإنما أحكم بظواهر الأمور والله يعلم دخائل النفوس وما في القلوب ، وهم ملائق ربهم ، وهو أعلم بهم .

ثم لماذا يتبعني هؤلاء وليس عندي مال ولا جاه ولا سلطان ؟

جاء في (الكساف) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ ﴾ : «إِنْ قلتَ ما معنى ﴿ إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ ﴾؟

قلت : معناه إنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم ، أو يلاقونه

فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم ، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكير . وما عليّ أن أشُق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك حتى أطربهم إن كان الأمر كما تزعمون .

ونحوه ﴿ وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ الآية . أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة .

(تجهلون) تتصرفون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ، من قوله : (ألا لا يجهلن أحد علينا) أو تجهلون لقاء ربكم ، أو تجهلون أنهم خير منكم »^(١) .

وجاء في (تفسير الرازي) في قوله : ﴿ وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا . . . ﴾

«اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهي قولهم : لا يتبعك إلا الأراذل من الناس . وتقرير هذا الجواب من وجوه :

الوجه الأول : أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنياً ، وإنما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين . وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك .

الوجه الثاني : بأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيراً وظننتم أنني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم ، وهذا الظن منكم خطأ فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا إن أجري إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من



سعاة الدين بسبب هذا الظن الفاسد»^(١).

والآن ننظر في هذا التعبير من الناحية البيانية:

١ - فقد قال ههنا: «لَا أَشْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا...» وفي جميع المواطن الأخرى وردت كلمة (أجر) بدل المال ، وذلك كما في قوله: «يَنَقُولُ لَا أَشْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» [هود: ٥١] ، قوله: «وَمَا أَشْلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» [الشعراء: ١٠٩] ، وكما في آيات أخرى نحو ما جاء في الشعراة ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ وغيرها.

قيل: وذلك أنها وقعت بعدها كلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق»^(٢) فقد جاء بعدها على لسان نوح: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ» [هود: ٣١] فناسب ذكر المال .

٢ - نفى السؤال بـ (لا) فقال: «لَا أَشْلُكُمْ» ، وحيث نفى هذا الفعل بـ (لا) جرد مفعوله من (من) الاستغرافية ، وذلك نحو قوله: «لَا أَشْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» [الأنعام: ٩٠] وكما في آيات عدة ، منها في هود ٥١ ، يس ٢١ ، الشورى ٢٣ .

وحيث نفاه بـ (ما) أدخل (من) الاستغرافية على المفعول فيقول مثلاً: «مَا أَشْلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» وذلك في آيات عدة ، منها في الفرقان ٥٧ ، الشعراة ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ ، ص ٨٦ و غيرها ، وذلك في جميع القرآن بلا استثناء .

ولعل من أسباب ذلك أن (لا) أكثر إطلاقاً من (ما) وأوسع استعمالاً ، بل هي أوسع حرف نفي^(٣).

(١) تفسير الرازي ٦ / ٣٣٦ .

(٢) البرهان للكرمانی ٢٣٤ - ٢٣٥ ، وانظر التعبير القرآني ٢١٠ .

(٣) انظر معاني النحو ٤ / ٥٨٠ وما بعدها .



وهي إذا دخلت على الفعل المضارع فقد تنفي جميع الأزمنة ، فهي قد تنفي الحال أو الاستقبال أو الاستمرار وذلك نحو قوله تعالى : ﴿مَا لِكَ لَا أَرَى الْهُدُّدَ﴾ [النمل : ٢٠] ، قوله : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْظِقُونَ﴾ [الصافات : ٩٢] وهي فيهما لنفي الحال .

وقوله : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجِدُونَ نَفْسًا عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة : ٤٨] وهي هنا لنفي الاستقبال .

وقوله : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنَّ﴾ [طه : ٦٩] ، قوله : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، قولك : (الأعمى لا يبصر) وهذا للاستمرار .

وأما (ما) إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها لنفي الحال .

وإن النكرة المنافية قد تكون عامة وقد تكون للواحد . فقولك : (ما جاءني رجل) يحتمل أنه لم يأتك أحد من جنس الرجال ، كما يحتمل أنه لم يأتك رجل واحد بل أكثر .

فإن دخلت عليها (من) كانت لاستغراق الجنس نصًا .

فمع (لا) جاء بما يحتمل الجنس والمفرد مناسبة لإطلاق (لا) .

ومع (ما) جاء بما هو للجنس نصًا . فناسب التنصيص على الحال التنصيص على الجنس .

٣ - قال : ﴿وَمَا آتَيْتَهُ الَّذِينَ أَمْنَوْا﴾ فأكيد النفي بالباء الزائدة .

وجاء بـ (طارد) اسم الفاعل للدلالة على الدوام ، أي إن هذه هي حالة الدائمة . ولم يقل : (ولا أطرب) أو (ولن أطرب) بالفعل فيدل على حدوث وعلى زمن معين ، وإنما هو لا يطردهم على سبيل الدوام والثبات .

٤ - وأضاف اسم الفاعل (طارد) إلى ما بعده وهو الاسم الموصول



ولم ينون اسم الفاعل ، فلم يقل : (وما أنا بطارد) ، وذلك للدلالة على إطلاق الزمن ، أي لم أفعله في الماضي ولا أفعله في الحال ولا في الاستقبال .

ولو نوّن لكان عدم الطرد في الحال أو في الاستقبال ؛ لأنَّ اسم الفاعل إذا عمل في المفعول كان للحال أو الاستقبال .

٥ - قال هنا : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وقال في الشعراة في القصة نفسها : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الشعراة : ١١٤] .

فجعل صلة الموصول في آية هود فعلاً (الذين آمنوا) .

ووصفهم بالإيمان على جهة الثبوت في الشعراة (المؤمنين) وذلك لأنَّ الكلام في هود كان في زمن أسبق مما هو في الشعراة ، فقد قال الملا في هؤلاء : ﴿ وَمَا زَرَنَاكَ أَتَّبَعْكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِأَدَى الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] .

في حين كان الكلام في الشعراة على ما بعد ذلك ، فقد لبث فيهم نوح زماناً يدعوهם بعد ذلك حتى هددوه بالرجم إن لم يكفّ ، ولم يفعلوا مثل ذلك في سياق آيات هود ، وإنما قالوا له : ﴿ قَدْ جَنَدْلَتْنَا فَأَكَثَرْتَ جِدَلَنَا فَأَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴾ [هود : ٣٢] فدل ذلك على أن المشهد في الشعراة إنما كان بعد ما قضى مرحلة طويلة وبرموا به فهدده بالرجم وإن نوحًا برم بهم فدعا ربه قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّي إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِي ۝ فَأَفْتَحْ يَنْيِي وَيَنْهَمْ فَتَحَّا وَبَنِيَ وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراة : ١١٧ - ١١٨] ، فوصف جماعته هنا بالإيمان الثابت لصبرهم وثباتهم والدلالة على أن إيمانهم عن يقين وليس إيماناً بلا ترُّوٌ ولا تمحيص ، فكان كل وصف في مكانه أنساب .

٦ - قال : ﴿ وَلَكِفْتَ أَرِنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فقال : (أراكم) كما قالوا

فَكَانَهُ رَدْ عَلَيْهِ مَا قَالُوهُ فِيهِ وَمَا كَانُوا يَرْوَنَهُ .

فقد قالوا له: ﴿مَا نَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ فقال لهم: ﴿وَلَكِفْتُ أَرِنُكُمْ قَوْمًا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٧ - قال هنا: ﴿وَلِكُفَّارَنِكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وكذلك قال في الأحقاف (٢٣) فقال في الموطنين: (أراكم).

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ، وقال في النمل: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] ولم يقل فيهما: أراكم.

ذلك أن الكلام في هود والأحقاف فيما يراه كلا الفريقين من الدعوة إلى التوحيد ، فقد قال ذلك في قصة نوح بعدهما دعاهم إلى عبادة الله قائلاً: ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] وما واجهه قومه به .

وقال ذلك في قوم عاد بعد أن قال لهم نبيهم: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَيْتَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] وما واجهه قومه به.

فكان الكلام فيما يراه كل فريق في الآخر.

وأما في سياق آية الأعراف فليس كذلك ، وإنما قال ذلك موسى لقومه
بني إسرائيل بعدما أغرق آل فرعون أمام أعينهم وجاوز بهم البحر ، قال
تعالى : ﴿ وَجَزَّنَا بِبَيْنِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا
يَمْوَسَى أَجْعَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ١٣٦ ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُّ مَا هُمْ
فِيهِ وَنَاطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩] فقد قال لهم موسى :
﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ مؤكداً ذلك بـ (إن) ولم يقل : (أراكم) ذلك لأن هؤلاء
مؤمنون بما جاء به موسى ، وقد أنجاهم الله وأغرق آل فرعون بمعجزة
شاهدوها وعاشوها ومع ذلك طلبو أن يجعل لهم نبيهم صنماً يعبدونه كما



ي فعل عبد الأصنام ، أليس هذا من أعجب العجب ؟ !

لماذا إذن أنجاهم الله وأغرق آل فرعون إذا كان كل منهم يعبد غير الله ؟

فقال لهم موسى : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل : (أراكم) ، فهذا ليس ما يراه وإنما هو أمر محقق مؤكد .

وأما ما ورد في سياق آية النمل فهو في قوم لوط وما يأتونه من الفاحشة . قال تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ كَالَّقَوْمَهُ أَتَأْتُوْنَ الْفَحْشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

[النمل : ٥٤ - ٥٥]

وهذه فاحشة معلنة ، ومن يأتيها واقع في المنكر لا محالة ، فليست هي في سياق مناقشة أفكار ، وإنما هو تقرير أمر واقع وليس رأياً يراه نبيهم فيهم ، فقال لهم مقرراً : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فمن يفعل ذلك كان كذلك ، ليس على رأي دون آخر .

وقال في قوم موسى : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ بالتأكيد بإيّاً ، وقال في قوم لوط : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يؤكده بإيّان كما فعل موسى مع قومه ؛ وذلك لأن جهلبني إسرائيل أكبر ، فهم مع إيمانهم لموسى وبدعوته طلبوا صنماً ليعبدوه ، فهذا من أكبر الجهل ، وهو أكبر من فعل الفاحشة . فالمؤمن بالله الموحد إذا عبد صنماً كان فعله أكبر وأعظم من فعل الفاحشة ، فهذه ردة بعد الإيمان وشرك بعد التوحيد .

والشرك أكبر الكبائر ، وقد ذكر ربنا أن الله لا يغفر للمسرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨] فناسب تأكيد جهل قوم موسى بإيّان دون قوم لوط مع نسبتهما كليهما إلى الجهل والله أعلم .



﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا نَذَكَرُونَ﴾ [هود: ٣٠]

ذكر أمرین یمنعان من طرد من آمن معه:

الأمر الأول: أنهم ملاقو ربهم وهو أعلم بحالهم.

والأمر الآخر: أنه ليس ذلك إلى ولا أستطيعه ، فإن فعلت فإن الله سيعاقبني ولا ینجیني أحد منه . ومن ذا الذي یننصرني من الله إن طردتهم؟

وقال: ﴿إِنْ طَرَدْتَهُمْ﴾ ولم یقل: (إن أطربهم) أي لا أحد ینجیه من الله إن طربهم ولو مرة واحدة . فكيف إذا کرر طربهم؟

وهذا یدل على أنه إن طربهم ولو مرة یوجب عليه العقاب.

وقال: ﴿أَفَلَا نَذَكَرُونَ﴾ ولم یقل: (أفالا تذکرون) أي إن هذا الأمر لوضوھه وظہوره لا يحتاج إلى طول تذکر وإنما هو أمر ظاهر . فإنهم عباده وهم ملاقوه وهو أعلم بحالهم.

ثم إنني إن فعلت ذلك عاقبني ربی ولا ینجیني أحد منه ، فإنه هو الذي أرسليني وكلفني تبليغ دعوته لعباده . والكل عباده غنیهم وفقیرهم .

* * *

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَرَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتَيْهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنَّ إِذَا لَمْ يَأْتِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١]

ثم ذكر أنه ليس عنده مغريات تدعو إلى اتباعه بسببها ، فهو لا يملك المال الكثير حتى يتبعه طلاب المال . والناس إنما یستهويهم المال أكثر ما یستهويهم كما قال تعالى: ﴿وَنَحْبُوْنَ الْمَالَ حُبًّا جَمِّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وهو لا یعلم الغیب ، ولا یظنّ أحد أني لكوني رسول الله أعلم الغیب فأنا لا أعلم الغیب ، ولذا لا أستطيع أن أصنف الناس فأعلم المؤمن من



مدعى الإيمان وإنما علم ذلك إلى الله ، ولا أستطيع أن أجيب عما يحصل في المستقبل ، ولا من يريد أمراً من أمور الغيب يجد جوابه عندي .
ولا أقول إني ملك وإنما أنا بشر كما تقولون .

فإذا كان الفضل تحسبوه في هذه الأشياء فما لي عليكم من فضل .
ثم إنني لا أقول للذين تزدرونهم لن يؤتیهم الله خيراً ، وهذا توکيد لعدم علم الغيب . ثم أكد ذلك بقوله : ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فالله هو الذي يعلم بما في أنفسهم ، وأما أنا فلا أعلم الغيب .

فهو لا يملك - كما هو واضح من كلامه - مغريات تدعو الفقير أو الغني إلى اتباعه بسببيها ، وإنما هي دعوة إلى عبادة الله ، والله هو الذي يجزي عن ذلك وليس إليه شيء منه .

جاء في (الكساف) : «لا أقول : عندي خزائن الله ، ولا أقول : أنا أعلم الغيب ، ومعناه : لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعني فضلاً عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم ﴿وما زرنا لكم علينا من فضل﴾ .

ولا أدعني علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم .

﴿ولَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ﴾ حتى تقولوا لي : ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ، ولا أحکم على من استرذلتمن من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتیهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزاولاً على هواكم»^(١) .

ومن الملاحظ في هذا التعبير :

١ - إنه قال : ﴿ولَا أَقُولُ لَكُم﴾ فجاء بالفعل المضارع (أقول) ونفاه

بـ (لا) ، ولم يقل : (ما أقول) أو (ما قلت) أو (لم أقل) للدلالة على الاستمرار في عدم القول . فهو لا يقوله في حال من الأحوال .

فهو لم ينفه بـ (ما) فلم يقل : (ما أقول) فيكون النفي للحال فقط .

كما هو لم يقل : (ما قلت) أو (لم أقل) فيكون النفي في الماضي ، وقد ي قوله في وقت آخر . وإنما نفاه بـ (لا) التي تستعمل لجميع الأزمنة .

٢ - وقال : ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ بإضافة الخزائن إلى الله ولم يقل : (خزائن الله) فتكون الخزائن نكرة ، وقد تكون الخزائن قليلة أو كثيرة ، فلو كانت ثلاثةً صح ذلك . ولكنه قال : ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ فشملت جميع خزائنه ، وذلك أدلى إلى اتباعه لو كانت عنده .

٣ - قال هنا : ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

وقال في الأنعام على لسان سيدنا محمد : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٥٠] فكرر (لكم) ذلك أن المقام في هود مقام التلطف بقومه ، فقد قال قبلها : ﴿قَالَ يَقُولُ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِينَتِي مِنْ رَّبِّي .. وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا .. وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدُوهُمْ .. وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ .

«فتأمل جليل ملاحظته عليه السلام لهم ، وما يفهم من كلامه من عظيم الإشراق من حالهم ، وإرادته ما به نجاتهم من العذاب ، ومن أخذه بمرتكباتهم . فهذا كله استلطاف في الدعاء لا يناسب تكرار كلمة تفهم تعنيها أو توبيخا ، والتأكيد والتكرار يفهم ذلك ويردان حيث يقصد»^(١) .

أما السياق في الأنعام فهو في مقام التبيكير والتعنيف ، فقد قال : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنَّ أَخَذَ اللَّهُ سَمَّاكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِهِ﴾

أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدرون ﴿قُلْ أَرَءَيْتُكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِغَنَّةٍ أَوْ جَهَرَةً هَلْ يُهَلِّكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ - ٤٧].

وقد يكرر ضمير الخطاب في نحو هذا المقام «فتكرر فيها قوله: (لكم) تأكيداً يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقرير»^(١).

٤ - قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فقال: (تزدرى) بالفعل المضارع ، ولم يقل (ازدرت) للدلالة على الاستمرار ، قيل: أو لحكاية الحال^(٢).

٥ - قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فحذف العائد ، والأصل (تزدرىهم) ، فحذف العائد إكراماً لهم لئلا ينال الازدراء ضميرهم صراحة.

ونحو ذلك يكون في كلامنا ، فإذا أردنا أن نكرم أحداً فلا نعدي إليه فعلاً فيه إهانة ، فلا نقول مثلاً: (أنا ما شتمت فلاناً) أو (أنا لم أضربه) وإنما نحذف المفعول إكراماً له.

فكما نذكر المفعول إكراماً وذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَنَاهُمُ اللَّهُ أَوْلَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨] قد يحذف المفعول إكراماً أو لغير ذلك من الأغراض.

٦ - وقال: ﴿لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فأسند الازدراء إلى الأعين ولم يقل (للذين تزدرونهم) فيسند الازدراء إليهم. وذلك أنه أراد إكرامهم أيضاً ، فكانه قال: (أنتم ترون ظواهرهم ولم تخبروا حقيقتهم) ، وهذا الازدراء إنما وقع من ظاهر الرؤية ، والمرأى قد لا يدل على الحقيقة ،

(١) ملاك التأويل ١/٣٢٩.

(٢) انظر روح المعاني ١٢/٤٣.

فكم من رجل تزدريه عيناك وهو في الحقيقة رجل أيّ رجل.

ثم إن هذا التعبير مناسب لقوله : ﴿وَمَا زَرْنِكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوكَ﴾ فعلقوا ذلك بالرؤى ، والرؤى إنما تكون بالعين ، فناسب أن يقول : ﴿تَزَدَّرِي أَعْيُنَكُمْ﴾ فكأنه قال : إنما حكمتم بالظواهر ولم تدركوا الحقائق .

٧ - قال : ﴿لَنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فجاء بـ (لن) الدالة على الاستقبال ، وهذا الاستقبال عام قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة وقد يكون فيما بينهما .

فإن تكن تزدرיהם الأعين الآن فلربما يتغير الحال في المستقبل ، فقد يصبح الفقير غنياً ، وقد يكون ممن يملأ العين .

وقد يكون ذلك في الآخرة ، وقد يكون فيهما ، وكل ذلك استقبال ، فجاء بحرف الاستقبال .

٨ - وقال : ﴿لَنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فجاء بضمير الغيبة ولم يقل : (لن يؤتيكم الله خيراً) بضمير الخطاب . وكان الأصل أن يقول - كما هو ظاهر السياق - (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لـ *لن* يؤتيكم الله خيراً) . قيل : وقد عدل عن ذلك إلى قوله : ﴿لَنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ لأن اللام ليست للتبلیغ وإنما هي لبيان العلة أي لأجلهم .

جاء في (روح المعاني) : «واللام للأجل لا للتبلیغ وإلا لقیل فيما بعد : (يؤتيكم) »^(١) .

وقد يكون لغرض آخر لطيف وهو أن الإنسان قد يتكلم في الشخص في غيبته ما لا يستطيع أن يواجهه به تلطفاً أو حياء أو خوفاً أو لأي سبب .

. ٤٣ / ١٢) روح المعاني (



فقد تقول: (إن فلاناً لا يصلح لهذا المنصب) ولكن لا تقول ذلك له مواجهة.

وسيدنا نوح قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرُونَ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي لا أقول ذلك في غيتهم مع أنه في مأمن من أن يسمعوا كلامه فيتآثروا إكراماً لهم. ولا شك أنه لا يقول ذلك في حضرتهم وهم يسمعون كلامه من باب أولى.

فأن ترى أنه حذف مفعول (تزدرى) وهو العائد ، وأسند الاذراء إلى الأعين ليدل على أن هذا حكم بالظاهر.

وقال: ﴿لَنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا أَلَّا يَرَوُهُ﴾ بضمير الغيبة ليدل على أنه لا يقول فيهم ما يسيء إليهم في غيتهم فكيف في حضورهم؟ وكل ذلك مما يدل على إكرام هؤلاء الذين تزدرى بهم الأعين.

ثم إنه جعل باب الاحتمال مفتوحاً في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله ، فلربما أتاهم الله خيراً يجعلكم تندمون على ما قلتم في حقهم . وهذا من ناحية فيه تخفيف من غلواء القوم فيهم ، ومدعاة إلى إكرامهم من ناحية أخرى .

٩ - قال: ﴿أَلَّا يَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ توكيداً لما قاله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ﴾ .

وقال هنا: ﴿بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فجاء بالأنفس بجمع القلة .

وقال في سورة الإسراء: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥] فجاء بالنفوس بجمع الكثرة ؛ وذلك لأن آية هود في جماعة نوح من المؤمنين وهم قلة كما قال تعالى: ﴿وَمَاءَ امَّنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وأما الخطاب في الإسراء فلعموم الخلق من المكلفين وهم كثير ولا

شك . فجاء بالجمع الذي يناسب المقام في كل تعبير .

١٠ - وقال في هود : ﴿اللَّهُ أَعْلَم﴾ بذكر لفظ الجلالة .

وقال في الإسراء : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَم﴾ بذكر الرب ، ذلك لأن الكلام في هود في مقام العبادة ، فقد قال لهم نوح : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ﴾ فناسب ذكر لفظ الجلالة .

وأما في الإسراء فهو في مقام الإحسان إلى المربى وهم والدان ، فقد قال تعالى في هذا السياق : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يُلْعَنَ عَنْكُمُ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَّاهُمَا فَلَا تُنْقِلْ لَهُمَا أُفْرِيٌّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا...﴾ [الإسراء : ٢٣]

والوالدان يربّان أبناءهم ، أي يربّانهم .

والرب هو المربى ، فناسب ذكر الرب .

١١ - ثم ختم بقوله : ﴿إِنِّي إِذَا لَمْنَ الظَّالِمِينَ﴾ بتأكيد ذلك بإدانة اللام .

والطريف أن يتافق ما قاله أول رسول مذكور في القرآن لقومه وهو سيدنا نوح مع ما أمر به أن يقوله خاتم الرسل لقومه ، مما يدل على وحدة الرسالة ووحدة موقف المجتمع البشري منها منذ فجر التاريخ إلى حين نزول الرسالة الخاتمة .

فقد قال سيدنا نوح : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَرَابٌ اللَّهُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ .

وأمر سيدنا محمد أن يقول نحو هذا القول ، قال تعالى : ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَرَابٌ اللَّهُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٥٠].

وقال نوح : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ أَلَّذِينَ إِمَّا نَوَّا إِنَّهُمْ مُلْكُوْرَبِهِم﴾ [هود : ٢٩].

وقال ربنا لسيدنا محمد : ﴿وَلَا تَنْظِرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾

يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَفَتَطَرَّدُهُمْ فَتَكُونُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأنعام: ٥٢].

مما يدل على وحدة الطلب من هذين المجتمعين المتباعددين مع ما بينهما من تطاول القرون.

ووصف من فعل ذلك بالظلم في الحالين فقال نوح: «إِنَّ إِذَا لَمْ يَرَوْهُمْ فَتَكُونُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ».

وقال ربنا سيدنا محمد: «فَتَكُونُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ».

مما يدل على أن من فعل ذلك بمؤمن إرضاء لكافر كان من الظالمين.

* * *

«قَالُوا يَنْثُوُخْ قَدْ جَنَدْلَتَنَا فَأَكْتَرَتْ جِدَلَنَا فَأَنْتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ» [هود: ٣٢]

بعد أن أسقط الشبه التي ذكروها فيه وفي أتباعه ولم يبق عندهم ما يحتجون به أرادوا أن يقطع الجدال معهم ، إذ لا فائدة من الكلام والجدال وإن طال وكثير.

قالوا له: إنك قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا به من العذاب الأليم إن كنت صادقاً في دعواك . وقالوا: «جَنَدْلَتَنَا» ولم يقولوا: (تجادلنا) ، وقالوا: «فَأَكْتَرَتْ جِدَلَنَا» ولم يقولوا: (فكثراً الجدال بيننا) وذلك ليدل على أنه هو الذي كان يتعرض لهم ليدعوهם ويكثر جدالهم ، ولم يترك الأمور لتجري على ما هي عليه ، بل كان يلاحقهم ليدعوهם إلى ربهم ، وذلك شأن الدعاة الذين يحملون هم الدعوة . فلم يكف ولم يفتر ولم تثنه كثرة التكذيب أو السخرية عن دعوتهم فلعلهم يلينون أو يرعنون ، ولكن الأبواب كانت موصدة دونه ،

كما قال تعالى على لسانه في التقرير النهائي : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ فَرَّمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمَّا يَزَدَهُ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي مَا ذَرَهُمْ وَأَسْتَغْشَوْا شَابِهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا وَأَسْتِكْبَارًا ۝ ۷ - ۵ ۝ ۷ - ۵ ۝ [نوح : ۵ - ۷] .

وقالوا : ﴿ فَأَئِنَا بِمَا تَعِدُنَا ۝ ۷ - ۵ ۝ بالفعل المضارع (تعدنـا) ، ولم يقولوا : (فائـنا بما وعدـنا) بالفعل الماضي ، للدلالة على أنه كان يكثر تذكيرهم بما يعدـهم به .

وقالوا : ﴿ فَأَئِنَا بِمَا تَعِدُنَا ۝ ۷ - ۵ ۝ ولم يقولوا : (فـائـنا بما تعدـنا) أو (فـائـتـنا بما تعدـنا) أو (فـائـنا بما تعدـنا) للدلالة على عدم المبالغة بما ينذرـهم وشدة تكذـيـهم ، فـهم طـلبـوا أن يـأتـيـهم هـم بما وعدـهم .

فـكان لـهـم ما أـرـادـوا ، فـقطـع دـابـر الـقـوم الـذـين ظـلـمـوا ، والـحـمـد لـلـه ربـالـعـالـمـين .

* * *

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيـكـم بـهـ اللهـ إـنـ شـاءـ وـمـاـ أـنـتـمـ بـمـعـجـزـينـ ۝ ۷ - ۳ ۳ ۝ [هـود : ۳۳] .

فـقال لـهـم : إنـ الـأـمـرـ لـيـسـ إـلـيـ ، وـإـنـ الـأـمـرـ الـذـي أـعـدـكـمـ بـهـ لاـ يـسـطـطـعـ بـشـرـ أـنـ يـفـعـلـهـ أـوـ يـأـتـيـ بـهـ ، إـنـمـاـ أـمـرـهـ إـلـىـ اللهـ وـهـوـ الـذـي يـأـتـيـكـمـ بـهـ إـنـ شـاءـ .
وـجـاءـ بـ (إـنـمـاـ) لـلـدـلـالـةـ عـلـىـ أـنـ ذـلـكـ بـيـدـ اللهـ حـصـرـاـ لـاـ يـقـدـرـ عـلـىـ ذـلـكـ غـيرـهـ .

وـقـالـ : ﴿ يـأـتـيـكـمـ بـهـ ۝ ۷ - ۳ ۴ ۝ وـلمـ يـقـلـ : (يـأـتـيـ بـهـ) فـيـجـعـلـهـ عـامـاـ ؛ ذـلـكـ لـأـنـهـمـ قـالـواـ : ﴿ فـأـئـناـ بـمـاـ تـعـدـنـاـ ۝ ۷ - ۳ ۵ ۝ فـأـرـادـواـ ذـلـكـ لـأـنـفـسـهـمـ ، فـقـالـ لـهـمـ : ﴿ يـأـتـيـكـمـ بـهـ ۝ ۷ - ۳ ۶ ۝ فـيـصـيـبـكـمـ أـنـتمـ .

وـقـالـ : ﴿ إـنـ شـاءـ ۝ ۷ - ۳ ۷ ۝ فـجـعـلـ ذـلـكـ مـرـتـبـاـ بـمـشـيـتـهـ . وـهـذـاـ تـأـكـيدـ لـعـدـمـ عـلـمـهـ وـعـدـمـ قـدـرـتـهـ . فـلـمـ يـقـلـ : (إـنـهـ سـيـأـتـيـكـمـ) وـإـنـمـاـ أـعـادـ ذـلـكـ عـلـىـ مـشـيـةـ اللهـ ،



ونسب الإتيان به إلى الله .

﴿ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ ﴾ « بدفع العذاب أو الهرب منه » ^(١) .

وقد أكد عدم إعجازهم بالباء الزائدة .

وجاء باسم الفاعل ﴿ بِمُعْجِزٍ ﴾ ولم يقل : (تعجزون) للدلالة على ذلك على جهة الدوام والثبوت . فهم لا يعجزونه أبداً على كل حال . وقد مرّ بيان نحو ذلك في آية سابقة .

وقد أطلق نفي الإعجاز من كل متعلق لا في مكان دون مكان ، ولا في زمان دون زمان ، ولا غير ذلك من المتعلقات ، بل إن ذلك على جهة الإطلاق والدوام .

وفي الآية أكثر من تهديد وتخويف :

١ - فقد قال : ﴿ إِنَّمَا ﴾ للدلالة على القصر ، وأن الذين توعدون به أمر عظيم لا يستطيع أن يفعله غير الله .

٢ - وقال : ﴿ يَأْتِيْكُم ﴾ فعداهم إلى ضميرهم للدلالة على أن ذلك إنما يأتيهم هم حسراً ، ولم يقل : (يأتي) على العموم فيصيّبهم أو لا يصيّبهم .

٣ - قال : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ فقدّم الجار والمجرور المتصل بضمير العذاب على الفاعل وهو الله .

ولم يقل : (إنما يأتيكم الله به) وذلك لأكثر من سبب :

منها : الدلالة على عظم ما سيأتيهم فلذلك قدمه .

ومنها : أن الكلام في سياق الآيات فيما بعد على ما سيأتيهم والتفصيل فيه .

(١) تفسير البيضاوي ٢٩٥

والسبب الآخر: أن ذلك ما يقتضيه المعنى ، ذلك أن المعنى (ما يأتيكم به إلا الله) ، فـ (إنما) أداة حصر وهو من باب قصر الفعل على الفاعل .

ولو قال (إنما يأتيكم الله به) لكان المعنى (ما يأتيكم الله إلا به) فيكون من باب قصر فعل الفاعل على شيء واحد ، وهو غير مراد ولا يصح ، إذ سيكون المعنى: لا يأتيكم الله إلا بهذا الشيء ، وهو لا يصح إذ لربما يأتيهم من أمور العذاب والآيات أمور أخرى لا يعلمها إلا الله .

٤ - أسند ذلك إلى لفظ الجلالة تصريحًا ، وفيه من التهديد والتخييف ما فيه ، فلم يسند إلى وصف دون وصف ، بل إلى الاسم الجامع لكل الأوصاف .

٥ - وعلق ذلك بمشيئته فقال: ﴿إِن شَاءَ﴾ لأن ذلك عائد إليه حصرًا ، ولو شاء الخلق كلهم أن يفعلوا ولم يشاً الله ذلك لما استطاعوا . وهذا دال على عظم ما يصيّبهم من الموعود .

جاء في (روح المعاني): «﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أي إن ذلك ليس إليّ ولا مما هو داخل تحت قدرتي ، وإنما هو لله عز وجل الذي كفرتم به وعصيتم أمره يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلقت به مشيئته التابعة للحكمة .

وفيه كما قيل ما لا يخفى من تهويل الموعود ، فكأنه قيل: الإتيان به خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله تعالى .

وفي الإتيان بالاسم الجليل الجامع تأكيد لذلك التهويل»^(١) .

٦ - ثم قال: ﴿وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ﴾ وذلك للدلالة على ضعفهم



وعجزهم على جهة الإطلاق والثبات والدואم .

فهو دال على عظم ما يوعدون به ، وعلى عجز من يقع عليهم . وفي ذلك تهديد وتحذير عظيمان للذين يفهون .

* * *

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِيَّةٌ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغُوِّبَكُمْ هُوَ بِكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]

يعني : إذا نصحتكم وأنا أريد لكم النصح لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد غير ذلك ، فإن الإنسان قد ينصح شخصاً وهو - أي الشخص الناصح - لا يرغب في نصحه ولا يريد ذلك ، ولكن قد ينصحه لسبب من الأسباب ، فإنه في هذه الحال لا يبالغ في النصح ولا يهتم به ، ولكنه إذا أراد النصح وهو حريص على ذلك فلا شك أنه سيبالغ في النصح بكل ما أوتي من مقدرة .

فقال لهم نوح : إنه لا ينفعكم نصحي وإن أردت ذلك ، أي مع إرادتي لنصحكم ورغبي فيه وشدة اهتمامي به إن كان الله يريد أن يغويكم .

وهذا بيان لعظيم قدرة الله ، فإنه إن نصحهم بهذه الحال وهذا الاهتمام وكان الله يريد أن يغويهم لم ينفع نصحه لهم . فمجرد إرادة الله الإغراء تمنع من النفع .

فهو لم يقل : (لا ينفعكم نصحي وإن بالغت في ذلك إن كان الله أغواكم) فيجعل فعله بمقابل الإغراء ، وإنما قال : (لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم) فجعل عدم النفع بمقابل إرادة الإغراء ، فمجرد الإرادة تمنع من الانتفاع فكيف إذا فعل ؟

جاء في (روح المعاني) : « وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة

الإغواء دون نفسه حيث لم يقل: (إِنْ كَانَ اللَّهُ يَغْوِيْكُمْ) مبالغة في بيان غلبة جنابه جل جلاله ، حيث دل ذلك على أن نصيحة المقارن للاهتمام به لا يجدهم نفعاً عند إرادة الله تعالى إغواههم فكيف عند تحققه وخلقه فيهم^(١).

قد تقول: لقد قال في الأعراف: «أَبْلِغُوكُمْ رِسْلَتِي رَقِّيْ وَأَنْصَحُوكُمْ كُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ» [الأعراف: ٦٢].

فذكر أنه ينصح لهم ، ولم يقل كما قال هنا: «وَلَا يَنْفَعُوكُمْ نُصْحِحَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيْكُمْ».

فلم ذاك؟

فتقول: إن السياق في كل منهما مختلف.

فإن السياق في الأعراف كان في بيان أول الدعوة ، وقد ذكر مهمته لقومه وهي أنه رسول من رب العالمين يبلغهم رسالات ربه وينصح لهم . وأما في هود فالسياق مختلف ، فإنه قال ما قال بعدهما تطاول الزمن وكثير الجدال بينه وبين الملا من قومه ، وبعدما أوصدوا الباب دونه وطلبو منه أن يأتيهم بما يعدهم به . فقال لهم: «وَلَا يَنْفَعُوكُمْ نُصْحِحَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيْكُمْ» فقد قال لهم ذلك بعد أن لم ينفعهم نصيحة مع حرصه على ذلك وتطاول الزمن فناسب أن يقول لهم ذلك . ولا يناسب أن يقول هذا لهم في أول الدعوة وعند أول التبليغ .

فكان كل تعبير أنساب في مكانه .

لقد قال في المؤمنين الذين ازدروهم «إِنَّهُمْ مُلَاقُواْرَبَهُمْ» .

وقال للملائكة الذين كفروا: «هُوَرَبُوكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»

فقوله : ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوْرَبِهِمْ﴾ بمقابل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

وقوله : ﴿رَبِّهِمْ﴾ بمقابل ﴿رَبِّكُمْ﴾

والتعبيران إنما هما في الرجوع إلى الله ولقائه .

ومعنى قوله : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي ليس لكم رب غيره .

وبذا يكون قد دعاهم إلى توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

فتوحيد الألوهية دعاهم إليه بقوله : ﴿أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ﴾ .

وتوحيد الربوبية هو قوله : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

فقوله : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يعني ليس لكم رب غيره .

وقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني أنكم ترجعون إليه حصرًا لا إلى

غيره .

غير أن ثمة فرقاً بين اللقاءين ، فإن المؤمنين ملاقوه وهم مطيعون له مستجيبون لأمره .

وأنتم ملاقوه وأنتم كافرون به عاصون لأمره .

لقد قال في المؤمنين : ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوْرَبِهِمْ﴾ .

ولم يقل في الكافرين كذلك ، وإنما قال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ولعل سبب هذا الاختلاف أو من أسبابه أن القرآن يستعمل التعبير ﴿مُلْقُوْرَبِهِمْ﴾ ونحوه في المؤمنين ولم يستعمله في الكافرين ، واستعمله في عموم الإنسان مرة واحدة .

قال تعالى فيمن أotti كتابه بيمنيه : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنَّ مُلْقِ حَسَابِهِ فَهُوَ فِي عِيشَةِ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٢٠ - ٢١] .

وقال في الصلاة: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَشِيعِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَطُوْنَ أَنَّهُمْ مُلْقُوْا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجِعُوْنَ ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

وقال في جنود طالوت الصابرين: ﴿ قَالَ الَّذِي كَيْنَتِ يَطُوْنُكَ أَنَّهُمْ مُلْقُوْا اللَّهُ كَمِّ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٤٩].

وقال ربنا مخاطبا المؤمنين: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال ربنا مخاطبا الإنسان على العموم: ﴿ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدَّحًا فَمَلِقِيْهِ ﴾ [الأشفاف: ٦].

ولم يستعمل نحو هذا في الكافرين.

قد تقول: ولكنني قال في اليهود: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّوْنَ مِنْهُ إِنَّهُ مُلَاقِيْكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

فنقول: إنه لم يقل إنهم ملاقو الموت ولكن الموت هو الذي ملاقيهم. ونحن قلنا فيمن يلاقونه لا فيما يلاقيهم.

ومن جهة أخرى أنه لم يستعمل ذلك مع الله وإنما مع الموت ، ونحن قلنا ذلك في لقاء الرب .

فاختلَفَ التعبيران والسياقان.

وأما ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ ﴾ فهي عامة في المؤمن وغيره ، وأكثر ما تستعمل للعموم .

* * *

﴿ أَمْ يَقُولُوْنَ أَفَتَرَنَّهُ قُلْ إِنَّ أَفْتَرَنَّهُمْ فَعَلَى إِحْرَامٍ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْزِمُوْنَ ﴾

[هود: ٣٥]



قيل : إن هذه الآية من كلام قوم نوح ، أي يقولون افترى الوحي على الله .

وقال آخرون : إن هذه الآية معتبرة في قصة نوح والقائلون مشركون مكة ، أي افترى محمد خبر نوح أو افترى القرآن^(١) .

ومنطوق الآية يصلح في كل رسول كذبه قومه ورموه بالافتراء على الله .

والرد يصلح على كل من قال هذا القول .

فقوم نوح رموه بالافتراء على الله ، والرد يصلح ردًا عليهم .

وهناك أقوام آخرون رموا رسلاً لهم بالافتراء على الله ، والرد يصلح ردًا عليهم .

ومشركون قريش رموا سيدنا محمداً بالافتراء على الله . وذكر القرآن ذلك في أكثر من موضع ورد عليهم في كل موضع بما يناسب قولهم .

وهذا الكلام يصلح أن يكون في الكلام على سيدنا محمد ، والرد يصلح أن يكون ردًا عليهم .

فالأمر لا يختلف أياً كان القائل والجواب يصلح للجميع .

واختلف في معنى الآية :

فقد قيل إن معناها : إن افترتيه فعليّ إثم ذلك ، وأنا بريء مما ترتكبون من الآثام «والكفر والتکذیب»^(٢) . فكل منا محاسب عما يعمل كما قال تعالى : ﴿أَتُمْ بِرَبِّيْعُونَ مِتَّأَعْمَلُ وَأَنَا بِرِّيْئٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ٤١]

(١) انظر روح المعاني ٤٨/١٢ ، تفسير الرازبي ٣٤٣/٦ ، البحر المحيط ٥/٢٢٠ .

(٢) البحر المحيط ٥/٢٢٠ .

وقيل إن معناها: إن افتريته فعلٌ عقوبة افترائي .
ولكن الحقيقة أنني بريء مما تنسبوه إليّ من الافتراء .
وادعاؤكم أنني افترته هو إجرام . فأنت إذا نسبت الافتراء إلى شخص
وكان بريئاً من ذلك فأنت مجرم في حقه .

جاء في (الكساف): «والمعنى: إن صح وثبت أنني افترته فعلٌ عقوبة
إجرامي: أي افترائي ، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عنى وتتألبوا عليّ .

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ يعني ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه .
ومعنى ﴿مِمَّا تُبْخِرُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ . فلا وجه
لإعراضكم ومعاداتكم»^(١) .

والمعنيان صحيحان يصلحان لكل من قال ذلك .
وقال: ﴿إِنِّي أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُبْخِرُونَ﴾ ولم يقل: (وأنا
بريء من إجرامكم) كما قال: ﴿فَعَلَى إِجْرَامِي﴾ ذلك لأنهم رموه بأمر واحد
وهو الافتراء فقال: ﴿فَعَلَى إِجْرَامِي﴾ .

وأما هم فإجرامهم مستمر من الكفر والتكذيب وغيرهما من الآثام
فقال: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُبْخِرُونَ﴾ أي مما أنتم مستمرون عليه من الإجرام .

* * *

﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمَكَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ أَمَانَ فَلَا يَنْتَسِسُ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]

بعد أن أغلقوا باب الجدل بينهما وتحدوه أن يأتي بما يعدهم إن كان
صادقاً أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فلا يدخل
أحد في دينه بعد .



قد تقول : لقد قال ههنا : ﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ﴾ ببناء الفعل للمجهول : (أوحي). .

وقال في سورة المؤمنين : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْنَعَ الْفُلَكَ﴾ [المؤمنون : ٢٧] بالبناء للمعلوم فلم ذاك؟

والجواب من أكثر من وجه :

من ذلك أن نوحًا دعا ربه في سورة المؤمنون لينصره ﴿قَالَ رَبِّي انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون : ٢٦] فاستجاب له ربه فقال : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْنَعَ الْفُلَكَ﴾ فالذي طلب منه النصر استجاب له فقال : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ ولم يقل : (فأوحي) بحذف فاعل الاستجابة.

والامر الآخر : أنه حيث جاء فعل أمر متصل بالإيحاء لم يقل : (أوحي) بالبناء للمجهول ، وإنما يذكر الفاعل فيقول : (أوحيانا) أو (أوحيت) أو (أوحي ربك) ونحوه .

قال تعالى : ﴿﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا مُوسَى أَنَّ الْقِعْدَكَ﴾﴾ [الأعراف : ١١٧].
وقال : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾﴾ [النحل : ١٢٣].

وقال : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا مُوسَى أَنَّ أَسْرِي بِعِبَادِي﴾﴾ [طه : ٧٧].
وقال : ﴿وَإِذَا أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيْكَنَ أَنْ يَأْمُنُوا بِهِ وَرَسُولِي﴾﴾ [المائدة : ١١١].

وقال : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى الْحَمْلِ أَنَّ أَنْخِذِي مِنَ الْجَبَالِ مُؤْنَةً﴾﴾ [النحل : ٦٨].
ولما جاء أمر بعد الإيحاء في آية المؤمنون وهو قوله : ﴿أَنْ أَصْنَعَ الْفُلَكَ﴾﴾ ناسب ذلك قوله : ﴿﴿وَأَوْحَيْنَا﴾﴾ من هذا الوجه أيضا .
﴿لَنْ يُؤْمِنَ﴾﴾

نفي فعل الإيمان بحرف الاستقبال (لن) للدلالة على أنه لا يؤمن له أحد في المستقبل ، فإن الأمر انتهى ولافائدة من دعوتهم.

﴿فَلَا تَبْتَسِّسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

أي لا تحزن لما كانوا يفعلونه من استهزاء وتكذيب وإيذاء^(١).

وقال ههنا: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بذكر الفعل (يفعلون).

وقال في سورة يوسف: ﴿إِنَّ أَخْوَكَ فَلَا تَبْتَسِّسُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فقال: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فذكر العمل ، ذلك أنه يستعمل الفعل (فعل) مع الإهلاك ولم يستعمل الفعل (عمل). قال تعالى: ﴿أَتَهْلَكُنَا إِمَّا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال: ﴿أَفَهَلَكُنَا إِمَّا فَعَلَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

ولم يرد في نحو هذا (عمل).

ثم إن ربنا يستعمل الفعل (فعل) في عقوبات الأقوام وإهلاكهم ولم يستعمل (عمل)

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [النجر: ٦].

وقال: ﴿أَلَقَرَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

وقال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَكِينَ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلَنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقال: ﴿أَلَمْ يُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۖ ثُمَّ نُتَعَاهُمُ الْآخِرِينَ ۚ ۝ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾

[المرسلات: ١٦ - ١٨].

ولم يقل في نحو هذا: (عمل).

(١) انظر روح المعاني ٤٩/١٢.



فلما قضى ربنا إهلاك قوم نوح استعمل الفعل الذي يستعمله في الإهلاك فقال: ﴿فَلَا تُبَتِّسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي إن فعلهم يقتضي إهلاكهم كما قال: ﴿أَتَنْهَكُمْ بِمَا فَعَلَ الْسُّفَهَاءُ مِنْنَا﴾ فإن فعل هؤلاء يقتضي إهلاكهم.

وليس الأمر في قصة يوسف كذلك ، فاستعمل فعلاً آخر يؤدي إلى المعنى المقصود . والله أعلم .

* * *

﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ يَأْغِيْنَا وَوَحِيْنَا وَلَا نُخَطِّبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغَرَّبُونَ﴾

[هود: ٣٧]

بدأ بما فيه النجاة وهو صنع الفلك وقدمه على مصير الطالبين وهو الإغراء . وهذا هو الكثير في القرآن في قصة نوح وغيرها ، يقدم نجاة المؤمنين على إهلاك الكافرين وذلك نحو قوله: ﴿فَانجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤] فقدم نجاة المؤمنين على إغراء الذين كذبوا .

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَنَجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَالِقِينَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِنَا﴾ [يوسوس: ٧٣].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَجَيْنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّكَّا... وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَصْبَحَهُمْ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٧].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَجَيْنَا شَعِيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَصْبَحَهُمْ﴾ [هود: ٩٤] وغيرها .

ومعنى (بأعيننا): برعايتنا وحفظنا ، وجاءت بالجمع للدلالة على تكثير الحفظ وديموته كما قيل .



جاء في (البحر المحيط) : (بأعيننا) «بمرأى منا وكلاء وحفظ وجمعت هنا لتكثير الكلاء والحفظ ديمومتها»^(١).

وجاء في (روح المعاني) : «الأعين حقيقة في الجارحة وهي جارية مجرى التمثيل ، لأن الله سبحانه أعيناً تكلوه من تعدي الكفرة ومن الزيف في الصنعة ، والجمع للمبالغة وقيل : المراد من أعيننا ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك»^(٢).
 (ووحينا) أي تعليمنا لك كيف تصنعها^(٣).

ولما قدم ما فيه نجاتهم وهو الفلك قدم ما يدل على عنایته وحفظه لهم ، وما يدفع الشر عن الفلك ، وحفظها مما يمنعه من العمل في إتمامها وذلك قوله : ﴿بِأَعْيُنَنَا﴾.

فقدم كل ما يتعلق بالنجاة والحفظ ، من صنع الفلك وحفظ الله ورعايته .

ثم قال : (ووحينا) أي تعليمنا لك كيف تصنعها .

وهذا يتضمن مراقبة ما يعمل ثم توجيهه إلى أن يستكمل صنعها ، وذلك يتضمن أيضاً تقديم قوله : ﴿بِأَعْيُنَنَا﴾ على قوله : ﴿وَوَحِينَا﴾.

ثم إن تعليمه ووحيه إنما هو لغرض النجاة فقدم ما يتعلق بالحفظ والنجاة .

جاء في (تفسير الرازي) : «إن إقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرین :

(١) البحر المحيط ٢٢٠ / ٥.

(٢) روح المعاني ٤٩ / ١٢ .

(٣) انظر تفسير الرازي ٣٤٥ / ٦ ، روح المعاني ٤٩ / ١٢ .



أحدهما: أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل.

والثاني: أن يكون عالماً بأنه كيف ينبغي تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه.

وقوله: «وَوَحِينَا» إشارة إلى أنه تعالى يوحى إليه كيف ينبغي عمل السفينة^(١).

وال الأول متعلق بقوله: «يَا عِينَا».

* * *

﴿وَلَا تُخَطِّبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغَرَّقُونَ﴾

أي لا تراجعني فيهم فتطلب إمهالهم وتأخير العذاب عنهم^(٢).

وقال: «وَلَا تُخَطِّبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» ذكر صفتهم ، ولم يقل: (ولا تخاطبني فيهم) ذلك أنه ذكر الصفة التي تستدعي إهلاكم وهي الظلم.

وهذه الصفة توجب عقوبتهم لا أن تستشع فيهم.

فناسب ذكر صفتهم التي تستدعي عقوبتهم وعدم مراجعة ربه في إمهالهم.

جاء في (روح المعاني): «وَلَا تُخَطِّبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعني فيهم^(٣).

﴿إِنَّهُمْ مُغَرَّقُونَ﴾.

(١) تفسير الرازى / ٦ - ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) انظر فتح القدير / ٢ ، ٤٧٤ ، روح المعانى / ١٢ ، ٥٠ .

(٣) روح المعانى / ١٢ ، ٥٠ .

قال : ﴿مُّعَرَّفُونَ﴾ بالاسم ، ولم يقل : (سأغرقهم) للدلالة على الثبوت ، فكأنهم أغرقوا وانتهى الأمر .

* * *

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَ عَيْهِ مَلَأً مِّنْ قَوْمِهِ سَخَرُوا مِنْهُ قَالَ إِنَّنِي سَخَرُوا مِنَّا إِنَّنِي سَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا سَخَرُونَ ﴾٢٨﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخَزِّيَهُ وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩-٣٨]

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ﴾ حكاية حال ماضية^(١) لاستحضاره صورته وهو يصنع الفلك ، فكأنك تشاهده وهو يعمل .

وقيل : تقديره : وأخذ يصنع الفلك ، أو طفق يصنع الفلك ، أو أقبل يصنعها^(٢) ونحوها من أفعال الشروع .

وعدم التقدير أولى ؛ لأن قولنا : (أخذ يعمل) أو (طفق يعمل) ونحوه يحيلنا على بداية العمل ، أي بدأ يعمل .

وأما قوله : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ﴾ فإنه يذكر الحال المستمرة للعمل وليس بداية العمل . وهو نظير قوله : (أخذ محمود يقرأ) قوله : (محمود يقرأ) فالجملة الأولى تشير إلى بداية القراءة ، وأما الثانية فهي تدل على أنه في داخل الحدث مستمر على فعله . ولذا تخرجه على حكاية الحال أولى ؛ لأنه ينقل المخاطب إلى المشهد ونحو منهمك في العمل .

* * *

(١) الكشاف ٩٧/٢ ، وانظر فتح القدير ٤٧٤/٢ .

(٢) انظر روح المعاني ٥٠/١٢ ، فتح القدير ٤٧٤/٢ .



﴿وَكَلَمًا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخِرُوا مِنَّا فَإِنَا نَسْخِرُ
مِنْكُمْ كَمَا سَخَرُونَ﴾

قال: ﴿وَكَلَمًا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ ولم يقل: (وكلما مرّ به ملأ) وذلك يدل على أنه ليس يصنع في طريق المارة ، بل هو مت Peng عنهم في مكان أخفض من طريق المارة معه الألواح ومعه أدواته . يدل على ذلك قوله: (عليه) ، و(على) للاستعلاء .

ولم يقل: (به) التي تفيد الإلصاق كما قال: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَغْأَبُونَ﴾ [المطففين: ٣٠] أي في الطريق الذي هم فيه أو المكان الذي هم فيه .

وجواب (كلما) يتحمل أن يكون ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ فيكون المعنى: كلما مر الملا على سخروا . فالسخرية مستمرة عند كل مرور . وتكون جملة ﴿قَالَ إِنْ تَسْخِرُوا﴾ استئنافية .

كما يتحمل أن يكون جواب (كلما): ﴿قَالَ إِنْ تَسْخِرُوا مِنَّا﴾ ، وجملة ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ صفة للملا . فيكون المعنى: (كلما مرّ عليه ملأ ساخر قال إن تسخروا منا) . فهو لا يترك ساخرا إلا رد عليه ، وكلما سخر أجابه نوح بقوله: ﴿إِنْ تَسْخِرُوا مِنَّا...﴾ .

وعلى الاحتمال الأول يكون المعنى: (كلما مرّ عليه ملأ سخروا منه) ، ولا يدل ذلك على أنه يجيئهم في كل مرة ، بل قد يجيئهم أحيانا وقد يتركهم أحيانا ، أو هو يجيئهم دائما . لكن لا يدل ذلك على أن الإجابة كانت في كل مرة حتما .

وأما على الاحتمال الثاني: فإنه يدل على أنه كلما مرّ عليه ملأ ساخر رد عليه ولا يترك سخرية من دون رد . ولكن لا يدل على أن كل ملأ يمر عليه يسخر منه ، فقد يسخر منه ملأ وقد لا يسخر آخر .

ولو قال: (وكلما مَرَ عليه ملأً من قومه يسخرون منه قال) لكان الجواب (قال) حتماً ، ولكان المعنى أنه لا يترك ملأً يسخر إلا ردًّا عليه.

جاء في (الكساف): «إِنْ قُلْتَ: فَمَا جَوَابُ كَلْمَاتِ؟

قلت: أنت بين أمرتين:

إما أن تجعل (سخروا) جواباً، و(قال) استئنافاً على تقدير سؤال سائل.

أو تجعل (سخروا) بدلاً من (مرّ) أو صفة لملاً ، و(قال) جواباً^(١).

وجاء في (روح المعاني): «و(كل) منصوب على الظرفية ، و(ما) مصدرية وقتيّة ، أي كل وقت مرور ، والعامل فيه جوابه وهو (سخروا) ، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ استئناف بياني ، لأن سائلاً سأّل فقال: فما صنع نوح عليه السلام عند بلوغهم منه هذا المبلغ؟ فقيل: قال ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ لهذا العمل و مباشرة أسباب الخلاص ومن العذاب ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ لما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعة بالإيمان والطاعة . . .

هذا وجوز أن يكون عامل (كلما): (قال) ، وهو الجواب ، وجملة (سخروا) صفة لملاً أو بدل من (مر) بدل اشتغال . . . ويلزم على هذا التجويز استمرار هذا القول منه عليه السلام وهو ظاهر.

وعلى الإعراب الأول قيل: لا استمرار ، وإنما أجابهم به في بعض المرات»^(٢).

وقال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ ولم يقل: (إن سخرتمنا) للدلالة على استمرار السخرية ، فهم دائمون عليها. وهو مناسب لقوله: ﴿وَكُلَّا مَرَّا

(١) الكشاف ٩٨/٢.

(٢) روح المعاني ١٢/٥١.



عَلَيْهِ مَلَأً》 بذكر (كلما) التي تفيد الاستمرار.

وقال : ﴿إِن تَسْخِرُوا مِنَّا﴾ ولم يقل : (إن تسخروا مني) مع أنه قال : ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ إشارة إلى أنهم لم يكتفوا بالسخرية منه ، بل يسخرون من المؤمنين أيضاً .

فهم يسخرون منه إذا رأوه يصنع الفلك ، ويسيخرون من المؤمنين إذا رأوه ، ولذلك كان جواب الشرط بالجمع أيضاً وهو قوله : ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم﴾ ولم يقل : (فإني أسخر منكم).

جاء في (روح المعاني) : «وجمع الضمير في (منا) إما لأن سخريتهم منه عليه السلام سخرية من المؤمنين أيضاً ، أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه السلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة في قوله : ﴿سَخَرُوا مِنْكُم﴾»^(١).

وقال : ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم﴾ ولم يقل : (سنسر منكم) أو (سوف نسر منكم) ، وذلك أن الفعل (نسخر) يحتمل الحال والاستقبال ، وقوله : ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم﴾ يحتمل أنهم يسخرون من الكافرين في الحال لعدم معرفتهم بما سيتحقق بهم وهم لا هون عابثون ساخرين من الآخرين ، وهؤلاء يستحقون أن يسخر منهم في هذه الحال .

وأنهم يسخرون منهم في المستقبل أيضاً عندما يَحْلُّ عليهم العذاب فياخذهم الطوفان فيغرقهم أجمعين .

ويسيخرون منهم في الآخرة وهم في السعير كما قال تعالى : ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ أَمْنَوْا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين : ٣٤] .

فقوله تعالى : ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم﴾ أفاد السخرية منهم في الحال وفي

(١) روح المعاني ١٢/٥١



الاستقبال عند الغرق وعند حلول العذاب المقيم وهو عذاب الآخرة .

* * *

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾ يحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً ، أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب الذي يذله ويفضسه .

كما يحتمل أن تكون (من) اسم استفهام مبتدأ ، وجملة (يأتيه) خبر ، والجملة مفعول (يعلم) والفعل معلق سدت الجملة مسد مفعوليته^(١) .

وقوله : ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني عذاب الدنيا وهو الغرق .

ومعنى (يُخْزِيهِ) يفضسه ويذله .

وقوله : ﴿وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يعني عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿مِمَّا حَطَّيْتُ لَهُمْ أَغْرِقُوهُ فَأَدْخِلُوْنَاهُمْ﴾ [نوح : ٢٥] .

ومعنى (يحل عليه) : يجب عليه ويلزمه لزومًا لا ينفك عنه ، ومعنى (مقيم) : ثابت لا يتحول^(٢) .

ووصف العذاب أنه يخزيهم مجانسة لأفعالهم التي كانوا يسترذلون بها المؤمنين ويسخرون منهم ، فأتى بالعذاب الذي يخزيهم ويذلهم .

وقال أولاً : ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ ثم قال : ﴿وَيَحْلُّ عَلَيْهِ﴾ ذكر الإitan أولًا . والإitan لا يستلزم الدوام ، فقد يأتيهم ثم ينصرف عنهم . ولئلا يخطر في الذهن ذلك أتبعه بقوله : ﴿وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي يجب عليهم وجوبًا لا ينفك عنهم ولا يرحل أو يتحول ، أعاذنا الله منه .

* * *

(١) انظر البحر المحيط ٥/٢٢٢ .

(٢) انظر الكشاف ٢/٩٨ ، روح المعاني ١٢/٥١ .



﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ النَّسُورُ قُلْنَا أَتَحْمِلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَيْنَهُ الْقُولُ وَمَنْ مَاءَ أَمَنَ وَمَاءَ أَمَنَ مَعْهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾

قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ ﴾ ولم يقل (أتى) ذلك أن (جاء) يستعمله القرآن لما فيه مشقة وصعوبة ، أو لما هو أصعب مما يستعمله له (أتى) ^(١) ، ولما كان في هذا المجيء مشقة وهو العذاب استعمل (جاء) .

ولذا حيث ورد (أمرنا) بمعنى العذاب والعقوبات استعمل له (جاء) وذلك نحو قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيَّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ [هود: ٥٨] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيَّنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ [هود: ٦٦] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيلَاهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود: ٨٢] .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيَّنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ [هود: ٩٤] .

وقد تقول : ولكنه قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ رُزْفَهَا وَأَزْيَنَتْ وَظَرَبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَنَهَا أَمْرُنَا يَلَا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ يَا لِلْأَمْسِ ﴾ [يوحنا: ٢٤] فقال : ﴿ أَتَنَهَا أَمْرُنَا ﴾ .

فنقول : إن ذلك ليس في عقوبات الأقوام وإنما هو في الكلام على الحياة الدنيا وزوالها ولا يتعلّق بذلك بقوم من الأقوام .

وقد تكلمنا على الفرق بين (جاء وأتى) في كتابنا (المسات بيانية) ^(٢) فلا نعيد القول فيه .

﴿ وَفَارَ النَّسُورُ ﴾

(١) انظر المفردات للراغب الأصفهاني (أتى) و(جاء) .

(٢) انظر كتابنا (المسات بيانية) صفحة ١١٣ وما بعدها .

قيل: هو تنور الخبز وجعل فوران الماء منه علامة على بداية الطوفان.
وقيل: هو مجاز عن شدة الأمر، كما يقال: (حمي الوطيس)،
ولا مانع أن يكون الأمران مرادين.

* * *

﴿قُلْنَا أَحْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمَنَ وَمَا أَمَنَ﴾

قال: (قلنا) بإسناد القول إلى نفسه في نجاة المؤمنين.
وقال في هلاك الكافرين: ﴿وَقَيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ببناء فعل القول
للمجهول: (قيل).
وأظنك تحس الفرق بين رعايته للمؤمنين وتوجيهه سبحانه لنجاتهم
في قوله: (قلنا)، وبين هلاك الكافرين وإبعادهم في قوله: ﴿وَقَيلَ بُعْدًا
لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقد بدأ بذكر حمل الحيوانات في قوله: ﴿قُلْنَا أَحْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ﴾ لأنها قوام حياة الإنسان وسبب بقاءه، وإلا فماذا يأكل
وكيف يعيش؟

ثم ذكر حمل الأهل بعد ذلك فقال: (وأهلك) لأن الأقربين أولى
بالمعروف كما قال تعالى: ﴿وَأُفْلُوا الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِعَصِيرٍ فِي كِتَابٍ
اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٦].

ألا ترى كيف نادى نوح ابنه ليركب معه ولم يناد غيره من الكافرين
فقال: ﴿يَكْبُتَ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢].

وكيف نادى نوح ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ أَبْنَيْ مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]
ثم ذكر بعد الأهل من آمن.



واستثنى من أهله (من سبق عليه القول) أي من حق عليه العذاب لعدم إيمانه.

وهو يستعمل نحو هذا التعبير في العذاب. ونحوه قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦] ، و﴿حَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣].

وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا لسورة (يس) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَ الْقَوْلُ عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ [يس: ٧] ^(١).

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾:

«وجيء بـ(على) لكون السابق ضاراً لهم. كما جيء باللام فيما هو نافع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَةَ﴾» ^(٢).

وأما التشابه والاختلاف بين هذه الآية وما جاء في سورة المؤمنون وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ مَا أَمْرَنَا وَفَكَارَ الْتَّسْوِيرُ فَأَسْلَكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَطِّبَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ مُغْرِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ، فقد ذكرناه في كتابنا (أسئلة بيانية) فلا نعيد القول فيه.

* * *

﴿وَقَالَ أَرْكَبُوْ فِيهَا إِسْمِ اللَّهِ بَجْرِنَاهَا وَمُرْسَنَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]

وردت قراءتان متواترتان في (مجراها) وهما: بفتح الميم وضمها. وهي بالفتح مصدر أو اسم مكان أو زمان من (جرى) الثلاثي ، أي

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البشري) ١٧/٢ وما بعدها.

(٢) روح المعاني ١٢/٥٥.

جريانها هي كما قال تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْعِدٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]. وبالضم مصدر أو اسم مكان أو زمان من (أجرى) الرباعي . نقول : أجرى الله الفلك في البحر ، وأجرتها الرياح . والمصدر الميمي (مجرى) بضم الميم .

وأما (مُرساها) فهي بضم الميم في جميع القراءات المتواترة ، وهي أيضاً مصدر واسم مكان واسم زمان من (أرسى) الرباعي ، وليس من (رسا) الثلاثي .

يقال : (رست السفينة) إذا رست هي ، والمصدر الميمي (مرسى) بفتح الميم ، وتقول : (أرسى الملاح السفينة) أو أرساها الله سبحانه ، والمصدر الميمي (مرسى) بضم الميم .

وقد جمعت هذه العبارة معاني عدة كلها مراده ، منها :

بسم الله جريانها هي وإراؤها من الله سبحانه ، وبسم الله إجراؤها وإراؤها ، فالله هو مجريها ومرسيها . فيكون المعنى : إجراؤها وجريانها وإراؤها كل ذلك حاصل وكائن بسم الله ربنا .

وبسم الله مكان جريها وإجرائها ومكان إرسائها ، أي في المكان الذي تجري فيه وتجرى فيه ، وفي المكان الذي ترسى فيه .

وبسم الله في الزمان الذي تجري فيه وتجرى فيه ، وفي الزمان الذي ترسى فيه .

وعلى هذا يكون المعنى :

بسم الله جريانها وإراؤها ومكان جريها ومكان إجرائها ، وزمان جريها وزمان إجرائها .

وبسم الله إراؤها ومكان إرسائها وزمان إرسائها .



ولو غيرت أية صيغة من الصيغ لم يجمع هذه المعاني .
وهذا يدل على أن جريانها ومكان الجريان وزمانه ، وإجراءها ومكانه وزمانه مقدرات . وإرساءها ومكان إرسائهما وزمانه كل ذلك مقدر .
فهي تجري وتُجري في المسار الذي قدره ربنا . وترسو في المكان الذي قدره ربنا لها .

هذا علاوة على ما في التأليف من معان .

فقوله تعالى : ﴿إِسْمِ اللَّهِ بَعْرِبَتَهَا وَمُرْسَهَا﴾ يحتمل أن يكون الكلام مبتدأ وخبرا ، فقوله : ﴿إِسْمِ اللَّه﴾ خبر مقدم ، وقوله : ﴿بَعْرِبَتَهَا وَمُرْسَهَا﴾ مبتدأ مؤخر ، فيكون المعنى على ما ذكرنا .

ويحتمل أن يكون المعنى : (اركبوا فيها بسم الله) أي مسمين الله حين جريها وحين إرسائهما ، أي ذاكرين الله في الجري والإرساء ، و(مجراها ومرساها) مصدران أو ظرفان كما ذكرنا .

ويحتمل أن يكون تقدير مجراتها ومرساها على الحال ، فيكون المعنى : اركبوا فهي جارية ومجراة ومرساة بسم الله .

فجمع هذا التعبير معاني متعددة لا يجمعها غير هذا التعبير :

اركبوا فيها :

بسم الله جريها وإجراؤها وإرساؤها ، أي يكون ذلك باسمه سبحانه .

بسم الله في مكان جريها وإجرائها وإرسائهما .

بسم الله في زمان جريها وإجرائها وإرسائهما .

اركبوا فيها مسمين الله في مكان جريها وإجرائها وإرسائهما .

ومسمين الله في زمان جريها وإجرائها وإرسائهما .



واركبوا فيها جارية ومجراة ومرساة بسم الله .

جاء في (الكشاف) : «يجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين .

فالكلام الواحد أن يتصل (بسم الله) بـ (اركبوا) حال من الواو ،
معنى : اركبوا فيها مسمى الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت
إرسائتها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران
كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم : خ فوق النجم
ومقدم الحاج .

ويجوز أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء وانتصابهما بما في (بسم الله)
من معنى الفعل أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان أن يكون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الْمَرْءُونَ﴾ جملة من مبدأ وخبر
مقتضبة ، أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها . . .

ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال . . .
وانتساب هذه الحال عن ضمير الفلك ، كأنه قيل : اركبوا فيه مجرة
ومرساة بسم الله »^(١) .

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ بذكر الرب ، والرب هو المربي والمعلم والوجه
والمرشد والقيم . وهو أنساب اسم ه هنا لأنه يوجههم ويرشدهم إلى سبيل
نجاتهم . ألا ترى أن رئيس الملاحين في السفينة يسمى (ربان) وهو
مأخوذ من لفظ (الرب) لأنه يوجه ويرشد إلى المسار الصحيح وإلى سبيل
النجاة .

وقال : ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأكيد ذلك بـ (إن) واللام ، في حين قال



على لسان سيدنا يوسف : ﴿إِنَّ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٣] فأكده بـ (إنَّ) وحدها .

وقال على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف : ٩٨] فأكده بـ (إنَّ) ، وجاء بضمير الفصل وتعریف الاسمين الجليلين : الغفور الرحيم . وكل تعبير في مكانه هو المناسب .

فإن سيدنا يوسف لم يرتكب ذنباً وإنما سجن ظلماً بضع سنين ، فهو معتدى عليه فلا يحتاج إلى توکید المغفرة كتوکیدها فيما لم يظلم ولم يقع عليه عدوان وهو طليق حر قد يقع في اللهم أو في الذنب .

هذا علاوة على أنه واحد وقوم نوح جمع ، فزاد المغفرة لما زاد في العدد .

وأما ما قاله يعقوب فهو جواب عما اعترف به أبناءه من الخطيئة من إلقاء يوسف في غيابة الجب وما حصل لأبيهم من جراء ذلك وطلبوه منه أن يستغفر لهم ﴿قَالُوا يَا ابْنَاهَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كَانَ كَاخْطَعِينَ﴾ [يوسف : ٩٧] .

فقال لهم أبوهم : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف : ٩٨] .

فالله وحده هو الذي يغفر في نحو هذا ، فإن في فعلهم ما يتعلق بحقوق الآخرين وذلك ليس إليه . فأكذ ذلك بـ (إنَّ) وبضمير الفصل وجاء بتعریف الاسمين : الغفور الرحيم للدلالة على القصر .

وكل تعبير مناسب في مكانه الذي ورد فيه .

* * *

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ أَبْشِرَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْثُثَ

أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَفَرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَعَوْيٌ إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَهَلْ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّقِينَ ﴿٤٣﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣].

بعد الأمر بالركوب انتقل إلى مشهد الفلك وهي تجري في الماء ، فلم يقل : (فركبوا فيها ثم جرت السفينة) لأنه لا يتعلق غرض بذكر ذلك ، فإن قوله : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ يدل على أنهم ركبوا وقد جرت بهم.

وقوله : ﴿تَجْرِي بِهِمْ﴾ حكاية للحال الماضية ، فكأنك تشاهدها وهي تجري بهم والأمواج تصعد بها وتنزل.

وقوله : ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجَبَالِ﴾ يرسم المشهد الذي هي فيه .

﴿وَنَادَى نُوحُ أَبْنَهُ﴾

أي رفع نوح صوته منادياً ابنه مما يدل على أن ابنه في مكان بعيد لا يسمعه إلا النداء.

والملحوظ هنا أن نوحًا هو الذي نادى ابنه ليركب معه ، وكان المظنون أن ينادي الابن أباه ليحمله فينجو مع الناجين ، وكل الأمر يدل على أن الفلك هي سبيل النجاة الوحيد ولكن الابن رفض هذه الدعوة وأثر على رفقة هؤلاء الذين لا يرغب فيهم أن يلجمًا وحيدًا إلى جبل ظانًا أنه يعصمه من الماء.

وكان نداء نوح هو : ﴿يَنْبِئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَفَرِينَ﴾

فقال : (يا بنّي) بنداء التحبيب وذلك بتصغر ابن وإضافته إلى ياء المتكلّم ، وهو نداء كله حنان ، ولم يقل له : (يا فلان) أو نحو ذلك.

وقال : ﴿أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَفَرِينَ﴾ ولم يقل : (ولا تكن من الكافرين) فلم يدعه إلى الدخول في دينه في هذا الموقف وإنما نهاه أن



يكون مع الكافرين فيفرق معهم .

وقد دعاه إلى النجاة أولاً ليعيش في مجتمع مؤمن غير الذي ألفه وغير الخلاآن الذين كان يحيا معهم فيميلون به إلى معتقداتهم وأسلوب حياتهم . والخليل يؤثر في خليله كما قال تعالى : ﴿يَوَيْلَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَخْذُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [٢٨] . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الْذِكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ [الفرقان : ٢٩ - ٣٠] .

فنجح أراد أن يكون ابنه معهم أولاً فيعيش في مجتمع مؤمن من مرقة إلى أن يكون منهم فيما بعد .

* * *

﴿ قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٣] .

رفض ابن دعوة أبيه للركوب في سفينة النجاة وأشار أن ينجو بنفسه وحيداً على أن يكون مع أسرته ومع الجماعة المؤمنة .

ولم يكرر أبوه الدعوة له وإنما قال : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ فنفي العاصم من أمر الله على سبيل الاستغراب في مثل هذا اليوم .

وذكر اليوم مع أنه لا عاصم من أمر الله على الإطلاق لا في هذا اليوم ولا في غيره ؛ لأن هذا اليوم ليس كسائر الأيام ، فإنه لا ينفع فيه اتخاذ الأسباب . فأنت في سائر الأيام تتحذ الأسباب للنجاة وتفر من قدر الله إلى قدر الله ، وللوصول إلى سائر الغايات .

فالمرض مثلاً من أمر الله ، والدواء من أمر الله وهو خالقه . والدواء يرفع المرض وكلاهما من أمر الله . أما في هذا اليوم فلا ينفع شيء من ذلك ولا يعصم من أمر الله شيء إلا من رحم .

وقال : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : (من الماء) للإشارة إلى

أن هذا الماء ليس كسائر المياه التي تنجو منها بالاتجاء إلى جبل مرتفع أو نحو ذلك ؛ لأن هذا أمر الله الذي أنزله على الذين ظلموا من عباده ولا يعصم شيء منه .

جاء في (روح المعاني) : « وزاد (اليوم) للتبنيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الواقع وتلم فيها الملمات المعتادة التي ربما يتخلص منها بالاتجاء إلى بعض الأسباب العادية .

وعبر عن (الماء) في محل إضماره بـ (أمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله سبحانه : ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَنْرَكَنَا ﴾ تفحيمًا لشأنه وتهويلاً لأمره وتبنيها لابنه على خطئه في تسميته ماء وتوهمه أنه كسائر المياه التي يتخلص منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة ، وتعليقًا للنفي المذكور ، فإن أمر الله سبحانه لا يغالب وعداته لا يرد »^(١) .

وقوله : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ يحمل معانٍ منها : أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الرحيم وهو الله و(من رحم) يعني به الله .

كما يتحمل أن يكون المعنى أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله فإنه يعصمه . والمعنى : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا المرحوم . وذكروا أموراً غير ذلك .

جاء في (الكساف) : « ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ إلا الرحيم وهو الله تعالى . أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله ، أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفوراً رحيمًا في قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّنَا فَغُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ... يعني السفينة .



وقيل: (لا عاصم) بمعنى لا ذا عصمة إلا ذا من رحمه الله ، كقوله: ماء دافق ، وعيشة راضية .

وقيل: (إلا من رحم) استثناء منقطع ، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم»^(١) .

وجاء في (حاشية ابن المنير على الكشاف): «قال أَحْمَدُ: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس .

وزاد الزمخشري خامساً وهو: لا عاصم إلا مرحوم على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف ، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم»^(٢) .

وقوله: «فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّقِينَ» أشار إلى غرقه وغرق الآخرين .

ولو قال: (فرق) لأفاد غرقه ولم يفد غرق الآخرين .

ثم إن قولنا: (غرق) يدل على أنه غرق بنفسه ، أما قوله: «فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّقِينَ» فيدل على أن جهة ما أغرقته وأغرقت الآخرين ، وأن ذلك إنما حصل بفعل فاعل قصد إلى إغراقه وإغراق الآخرين . وفيه إشارة إلى العقوبة التي أوعدوا بها .

* * *

«وَقَيْلَ يَتَأْرِضُ أَبَلَّى مَاءَكَ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَى وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضَى الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجَمُودِيَّ وَقَيْلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّلَمِيِّينَ» [هود: ٤٤].

(١) الكشاف ٩٩/٢

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف ٩٩/٢

ذكر في هذه الآية الشيء الكثير وأفردت فيها رسائل ، ومما قيل فيها: «أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية»^(١).

وقيل فيها أيضًا: إنه «قد أمر فيها ونهى وأخبر ونادى وسمى وأهلك وأبقي وأسعد وأشقى وقصّ من الأنباء ما لو شرح ما ادرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام»^(٢).

ونحن نقول: إن كل تعبير بمقدار أقصر سورة معجز للبشر أجمعين ، بل معجز للثقلين إلى آخر الدهر.

وعلى آية حال فنحن نذكر شيئاً من الأمور البيانية في هذه الآية:

١ - بدأ بفعل القول (قيل) ، والقول يقال لمن يسمع ويعقل.

ثم نادى ، والمنادى ينبغي أن يعلم أنه نودي لسماع شيء ما أو تبليغه بأمر ، وذلك إذا لم يكن النداء مجازاً ، وإنما نودي لأمر ينبغي أن يسمعه أو يفعله .

ثم أمر على سبيل الحقيقة والاستعاء وليس على سبيل المجاز . والمأمور ينبغي أن يكون عالماً بما أمر به وخاصة إذا كان الأمر طلب من المأمور أن يفعل ما أمره به .

وهذا كله يدل على أن الأرض والسماء سمعتا وعقلتا وأذننا للسائل وامتثلتا لما أمرتا به .

وليس هذا نظير نداء أو أمر لما لا يعقل وإنما قيل تجوازاً ، كقول الشاعر مخاطباً الليل :

(١) الإنقاٌن ٣/٢١٨ .

(٢) الإنقاٌن ٣/٢١٧ .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردفَ أعجازاً وناء بكلكـل
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منكِ بأمثلـل
وإنما القول والنداء والأمر في الآية كلهم على سبيل الحقيقة. وإن
كل واحدة من السماء والأرض فعلت ما يخصها ، فاستجابنا وفعلنا كما
يفعل العاقل المقتدر على تنفيذ ما أمر به .

ومع أن النداء للأرض والسماء وهو ما هما من الكبر والعظمة لم يذكر القائل ، وإنما بني فعل القول للمجهول فقال : (وَقَيْلٌ).

وهذا يدل على عظمة القائل ، فإنه أمرهما من وراء حجاب فأطاعتا ،
ويكفي أنهما عرفتا القائل وسلطته وإن لم يفصح عن ذاته فامتثلتا لأمره .

جاء في (الكشاف): «نداء الأرض والسماء بما ينادي به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهم بالخطاب . . .»

ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله (ابلعي ماءك وأقلعي) من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه ، كأنها عقلاً مميزون .. ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والتزول على مشيئته على الفور من غير ريث»^(١).

٢ - وقال : (يا أرض) فنادها بحرف النداء (يا) الذي هو للبعيد ، ولم يرد في القرآن الكريم حرف نداء غيره .

إن هذا النداء يدل على عظمة المنادي ، ذلك أنه ناداها باسم الجنس ﴿يَتَأَرْضُ أَبْلَعِي﴾ ، وهو كما تقول لشخص - والله المثل الأعلى - يا رجل افعل كذا ، أو لا تفعل كذا.



وجريدة من كل وصف أو إضافة أو غير ذلك مما يفيد التشريف أو التكريم ل تستجيب . فلم يقل مثلاً : (يا أرضي) فيضيفها إليه ، أو يا أرض الخير ويا سماء الخير والبركة ، ولا يا أيتها الأرض المباركة ، ولا أي وصف يشعرها بالتكريم والتشريف .

كما إنه لم يقل : (يا أيتها الأرض) فيتوصل إلى ندائها بـ (أيّ) لعلها كانت غافلة فتسمع آخر النداء ، إذ لا يمكن الغفلة عن أي حرف يصدر عن هذا المنادي .

إضافة إلى الإيجاز الذي اتسمت به الآية قال (يا أرض) أو جز من (يا أيتها الأرض) .

جاء في (روح المعاني) : «اختير (يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به .

ولم يقل : (يا أرض) بالكسر ؛ لأن الإضافة إلى نفسه جل شأنه تقتضي تشريفاً للأرض وتكريماً لها فترك إمداداً للتهاون .

ولم يقل : (يا أيتها الأرض) مع كثرته في نداء أسماء الأجناس قصدًا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التي لا تناسب ذلك المقام »^(١) .

٣ - وقال : (ابليعي) ولم يقل (ابتليعي) لأن ابتلع على وزن (افتعل) الذي يدل على التكلف والاجتهاد ، وهو يحتاج إلى وقت أطول ، وإنما قال : (ابليعي) الذي هو أقصر بناءً و زمناً فتبليعه في أقصر وقت .

(١) روح المعاني ٦٥ / ١٢



وهذا إضافة إلى الإيجاز ، فإن (ابلعي) أو جز من (ابتليعي).

جاء في (روح المعاني): «واختير لفظ (ابلعي) على (ابتليعي) لكونه أخص وأوفر تجانساً بـ (أقلعي)» ^(١).

٤ - وقال: «أَبْلَعِي مَاءُكَ» فذكر مفعول البلع ؛ لأن بلع الماء هو المقصود ، ولم يحذف المفعول به فيقول: (يا أرض ابلعي) فيشمل البلع كل ما عليها منأشجار وحيوان وغيرها.

جاء في (روح المعاني): «وإنما لم يقل: (ابلعي) بدون المفعول لثلا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعليم الابتلاء للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظراً إلى مقام عظمة الأمر المهيّب وكمال انقياد المأموم» ^(٢).

٥ - وقال: (ماءك) بالإفراد «دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبراء وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء» ^(٣).

«وعبر عنه بالماء بعدما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى ؛ لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفحيم والتهويل» ^(٤).

٦ - وقال: (ماءك) بإضافة الماء إليها لأن الماء الذي ينزل من السماء إنما هو للأرض ، ينزل إليها وينفذ في داخلها ويخرج منها على هيئة عيون وأبار يستفيد منه الناس . فهو ماؤها سواء ما تفجر منها وما نزل إليها من السماء .

(١) روح المعاني ١٢/٦٥.

(٢) روح المعاني ١٢/٦٥-٦٦.

(٣) روح المعاني ١٢/٦٥.

(٤) روح المعاني ١٢/٦١.



ثم في الحقيقة أن ما ينزل من السماء من ماء إنما هو ماء الأرض ؛ لأن السحب إنما تكون من البخار الذي يتتصاعد من مياه الأرض بحارها وأنهارها ، فهو على كل حال ماء الأرض .

٧ - ثم نادى السماء فقال لها : (أقلعي) أي أمسكي وكفي ، ولم يذكر عما ذا تمسك لأنه معلوم وهو المطر وليس شيئاً آخر ، فلم يذكر متعلقاً .

جاء في (روح المعاني) : «ولما علم أن المراد بـلـعـ المـاءـ وـحدـهـ عـلـمـ أنـ المـقـصـودـ بـالـإـقـلاـعـ إـمـساـكـ السـمـاءـ عـنـ إـرـسـالـ المـاءـ ،ـ فـلـمـ يـذـكـرـ مـتـعلـقاـ (أقلعي) اختصاراً واحترازاً عن الحشو المستغنى عنه» ^(١) .

فذكر متعلق البلع في الأرض أنساب ، وإطلاق الإمساك في السماء أنساب .

٨ - قدم أمر الأرض بـلـعـ المـاءـ لأنـهـ أـهـمـ وـذـلـكـ لـتـرـسـوـ السـفـينـةـ وـهـوـ مـطـلـوبـ أـهـلـ السـفـينـةـ ،ـ فـإـنـهـ إـنـ لمـ تـرـسـ السـفـينـةـ فـلـنـ يـخـرـجـ مـنـ فـيـهـ مـنـهـ .ـ وـإـنـ لـمـ تـبـلـعـ الـأـرـضـ مـاءـهـاـ فـلـنـ تـرـسـ السـفـينـةـ فـقـدـمـ الأـهـمـ .ـ

ثم إن الماء بدأ منها ، فإن ذلك بدأ من التنور الذي فار الماء منه .

جاء في (روح المعاني) : «قـدـمـ أـمـرـ الـأـرـضـ عـلـىـ أـمـرـ السـمـاءـ لـكـونـهـاـ الأـصـلـ نـظـرـاـ إـلـىـ كـوـنـ اـبـتـدـاءـ الطـوفـانـ مـنـهـاـ حـيـثـ فـارـ تـنـورـهـاـ أـوـلـاـ» ^(٢) .

٩ - قال : ﴿وَغَيْضَ الْمَاءِ﴾ أي ذهب ونشف . ومعنى ذلك أن الأرض والسماء امتثلتا لأمر الأمر .

وهذا يدل على عظمة الأمر .

وكانت الاستجابة على الفور ، فلم يقل : فبلغت الأرض ماءها

(١) روح المعاني ٦٦/١٢ .

(٢) ن. م.



وأمسكت السماء ، فإن كل ذلك يدل عليه قوله : ﴿وَغَيْضَ الْمَاء﴾ .
وقد بنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل تعظيمًا للأمر والقائل
والمنادي وللإيجاز .

جاء في (روح المعاني) أنه لم يقل : «(قيل يا أرض ابلي) فبلغت (ويا
سماء أفلعي) فأقلعت ؛ لأن مقام الكبراء وكمال الانقياد يعني عن ذكره
الذي ربما أوهم إمكان المخالفة» ^(١) .

١٠ - قال بعد قوله : ﴿وَغَيْضَ الْأَمْر﴾ أي الأمر الذي
أراده ربنا بقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرَنَا﴾ وهو نجاة من نجا وإلاك من هلك .
وبنى الفعل للمجهول تعظيمًا لمن قضى الأمر . وهو في كل ذلك أمر
واحد وفاعل واحد .

١١ - ثم قال : ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ولم يذكر الفاعل لأنه معلوم وهو
السفينة .

ولم يبن الفعل للمجهول ؛ وذلك لأن الجريان كان منسوباً إلى السفينة
وذلك قوله : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجَ كَالْجِبَالِ﴾ فناسب أن يكون الاستواء
منسوباً إليها أيضاً .

لقد قال ذلك بعد قوله : ﴿وَغَيْضَ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فإن السفينة لا
تستوي حتى يغيب الماء .

وكان استواؤها بعد أن قضي الأمر ، أي بعد أن انتهت المهمة فنجا كل
من كان راكباً فيها وهلك كل من حكم عليه بالهلاك فلم يبق منهم أحد
يؤذى مؤمناً ، وهو أنساب وقت لاستوائها .

إن قوله : ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يدل على النجاة والأمان فناسب الاستواء



لينزل ركاب السفينة وهم آمنون.

جاء في (روح المعاني): «واختير (استوت) على (سوّيت) أي أقرت مع كونه أنساب بأخواته المبنية للمفعول اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار يعني الجريان منسوباً إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل في قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ مع أن (استوت) أخص من (سوّيت)»^(١).

١٢ - قال: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فبني الفعل للمجهول آخرًا عندما بعدوا وهلكوا كما بناه أولاً عند الأمر بتنزول أمره لعذاب الظالمين. لقد بني الفعل للمجهول ولم يذكر فاعلاً معيناً وذلك ليشمل كل قائل من الملائكة وكل عبد صالح.

جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ من قوله الله تعالى كالأفعال السابقة. وقيل: من قول نوح والمؤمنين. ويحتمل أن يكون من قول الملائكة»^(٢).

وجاء في (الكساف): «﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ ... إذا أرادوا البعد بعيد من حيث ال�لاك والموت ونحو ذلك ...

ومجيء إخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكرياء»^(٣).

١٣ - وقال: ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فوصفهم بالظلم لأنه وصفهم بالظلم أولاً فقال: ﴿وَلَا تُحَاطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

جاء في (فتح القدير): «ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة ال�لاك

(١) روح المعاني ٦٦/١٢.

(٢) البحر المحيط ٢٢٩/٥.

(٣) الكشاف ٩٩/٢.



وللإيماء إلى قوله : « وَلَا تُخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » ^(١) .

١٤ - وقال : « لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » ولم يقل : (بعدًا لهم) فذكر الوصف الذي استحق به القوم العقوبة . وهو تحذير لكل ظالم .

١٥ - وقال : « بُعْدًا » بالمصدر ولم يأت بالفعل للدلالة على الحدث المطلق غير المقيد بزمن أو بفاعل وللدلاله على الثبوت .

جاء في (روح المعاني) : « واختير المصدر أعني (بعدًا) على (ليبعد القوم) طلباً لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار في العبارة . . . مع فائدة أخرى هي الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام .

وإطلاق الظلم عن مقيداته في مقام المبالغة يفيد تناول كل نوع فيدخل فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التكذيب من حيث إن تكذيبهم للرسل ظلم على أنفسهم لأن ضرره يعود إليهم . . .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل :

فذلك أنه قدم النداء على الأمر . . .

ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظراً إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولاً . . .

ثم جعل قوله سبحانه : « وَغَيْضَ الْمَاءِ » تابعاً لأمر الأرض والسماء . . . ثم إنه تعالى أتبع غيض الماء ما هو المقصود الأصلي من القصة وهو قوله جلت عظمته : « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » ثم أتبع ذكر المقصود حديث السفينة لتأخره عنه في الوجود ^(٢) .

(١) فتح القدير ٢ / ٤٧٧ .

(٢) روح المعاني ١٢ / ٦٦ - ٦٧ .

وجاء في (الإتقان): أن «جمله معطوف بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة من الابتداء بالأهم الذي هو انحسار الماء عن الأرض المتوقف عليه غاية مطلوب أهل السفينة من الإطلاق من سجنها ، ثم انقطاع مادة السماء المتوقف عليه تمام ذلك من دفع أذاه بعد الخروج ومنع اختلاف ما كان بالأرض ، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادتين الذي هو متاخر عنه قطعاً ، ثم بقضاء الأمر الذي هو هلاك من قدر هلاكه ، ونجاة من سبق نجاته ، وأخر عما قبله لأن علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم منها وخروجهم موقف على ما تقدم .

ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفید ذهاب الخوف وحصول الأمان من الاضطراب ، ثم ختم بالدعاء على الظالمين لإفادته أن الغرق وإن عمَ الأرض فلم يشمل إلا من استحق العذاب لظلمه»^(١) .

ثم إن الآية في غاية الإيجاز فلم يذكر إلا ما لا بد من ذكره. ومن مظاهر الإيجاز فيها:

١ - أنه قال: (وقيل) فبني الفعل للمجهول وحذف الفاعل وذلك للتعظيم كما أسلفنا.

٢ - وقال: (يا أرض) ولم يقل: (يا أيتها الأرض). قوله: (يا أرض) أو جز كما هو معلوم.

٣ - وقال: (أبلي) ولم يقل: (ابتلعي) ، وابلعي أو جز.

٤ - وقال: (ماءك) ولم يقل: (مياهك).

٥ - وقال: (يا سماء) ولم يقل: (يا أيتها السماء).

٦ - وقال: (أقلعي) ولم يذكر متعلقاً.



- ٧ - وقال : (وغيض الماء) فبني الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل .
- ٨ - وقال : (وغيض) الثلاثي ، ولم يقل : (غيض) الرباعي .
- جاء في (روح المعاني) : «واختير (غيض) على (غيض) المشدد لكونه أخصر»^(١) .
- ٩ - وقال : (و قضي الأمر) فبني الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل .
- ١٠ - وقال : (و قضي الأمر) فعبر عن كل ما حدث بـ (الأمر) وهو النجاة والغرق وما أراده ربنا .
- ١١ - وقال : (واستوت على الجودي) فلم يذكر الفاعل وإنما ستره .
- ١٢ - وقال : (وقيل بعدها) فبني الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل .
- ١٣ - وقال : (بعداً) ذكر المصدر ولم يذكر الفعل الذي يتضمني زمناً وفاعلاً .
- وغير ذلك .

* * *

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنَّ أَخْكُمُ الْحَكَمِينَ ﴾^(٢) قَالَ يَنْتُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ عَيْرُ صَلِحٌ فَلَا تَشَلِّنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٦]

- ١ - قال في آية سابقة : ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْتَئِلُ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] فاستعمل فعل النداء وحده (نادي) ولم يستعمل معه فعل القول ، فلم يقل : (ونادى ابني فقال يا بني) .
- وقال هنا : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فاستعمل فعل

(١) روح المعاني ٦٦ / ١٢

القول (فقال) إضافة إلى الفعل (نادى) وذلك أن هذا الموقف أهم من الأول ، فإنه بعد غرق ابنه حين أدركه عاطفة الآباء وأدركه الحزن لغرقه .

وقد ذكرنا الفرق بين ذكر ما فيه معنى القول من الأفعال وحده نحو نادى ووصى وسأل ، وما ذكر معه فعل القول نحو (نادى ف قال) و(سأل ف قال) ونحوها في كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وبيننا أن ما ذكر فيه القول مع ما فيه معناه أكد وأهم ، فلا نعيد القول فيه^(١) .

لقد قال : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ ﴾ والفاء هذه للترتيب الذكري وهي تفيد التفصيل بعد الإجمال ، وذلك أن تذكر المعنى مجملًا أولًا ثم تفصله بعد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَرًا ﴾ [النساء : ١٥٣] فقد ذكر السؤال مجملًا أولًا ثم فصله بقوله : ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا يَبْتَأِلُونَ هُمْ قَاتِلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤] فذكر الإهلاك على العموم وفصله فيما بعد .

ونحوه قوله : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ فإن قوله : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ تفصيل للنداء^(٢) .

فكان الاهتمام في التعبير في الآية من أكثر من جهة :

منها أنه جمع لفظ القول مع ما فيه معنى القول وهو (نادى) (فقال) .

ومنها أنه فصل بعد الإجمال ، والتفصيل بعد الإجمال يفيد المبالغة والاهتمام^(٣) .

٢ - لقد قال : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ فذكر لفظ الرب ولم يذكر غيره من

(١) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) ٢١١ وما بعدها .

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو) ٣ / ٢٢٥ (العاطف بالفاء) .

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢ / ٧٥٧ ، وانظر حاشية الصبان ٢ / ١٩٥ .



الأسماء الحسنى ، فلم يقل مثلاً: (ونادى الله) أو (نادى الحي القيوم) أو غير ذلك من أسمائه الحسنى ، ذلك أنه لم يستعمل فعل المناداة في القرآن الكريم إلا مع الرب دون بقية أسمائه الحسنى ، سواء كان النداء من العبد لله أو من الله للعبد وذلك نحو قوله: ﴿إِذْ نَادَ رَبَّهُ نِدَاءً حَفِيَّا﴾ [مريم: ٣] ، قوله: ﴿وَأَتَوْبَكَ إِذْ نَادَ رَبَّهُ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ، قوله: ﴿وَزَكَرِيَاً إِذْ نَادَ رَبَّهُ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وكذلك إذا كانت المناداة من الله فإنها يسند الفعل إلى لفظ الرب فقط ، وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذْ نَادَ رَبِّكَ مُوسَى أَنِ اتْهِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]

وقوله: ﴿وَنَادَهُمْ رَبُّهُمَا أَلَّمْ أَنْهُ كُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَة﴾ [الأعراف: ٢٢]
وقوله: ﴿هَلْ أَنْكَ حَدِيثُ مُوسَى ١٥ إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمَقْدِسِ طَوِي﴾ [التازعات: ١٥ - ١٦].

وهو المناسب فإن الإنسان إذا احتاج شيئاً طلبه من ربه وهو مربيه والقائم على أمره .

ونحو ذلك الدعاء . فإنه لم يرد في القرآن إلا مع لفظ الرب وذلك نحو قوله: ﴿رَبَّنَا أَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] ، قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ، قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحِقْنِي بِالصَّلِحَيْنَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

ولم يرد الدعاء بغير لفظ الرب إلا في موطن واحد وهو قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وهو الأنسب ، فلا يناسب أن يقال: (ربنا إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) لأن الرب هو المربي والمعلم

والهادي ، فالمناسب إذا جاء بلفظ الرب أن يقال : (إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلية واسرح صدورنا له) فلما كان الدعاء بطلب العذاب لم يصح أن يطلب ذلك من ربهم الذي هو متولى أمرهم والقيم عليهم .

ولم يرد الدعاء بلفظ (اللهم) وحده في غير هذا الموضع .

قد تقول : ولكنه قال : ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبِّنَا أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا مَا إِبَدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤] .

فنقول : إنه ذكر الرب مع (اللهم) فقال : ﴿اللَّهُمَّ رَبِّنَا﴾ .

وقد تقول : لقد قال في أصحاب الجنة : ﴿دَعَوْنَاهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْمِلُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يوسوس: ١٠] .

فنقول : ليس في هذا القول دعاء شيء ولا طلب حاجة .

٣ - قال : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ بحذف حرف النداء وذلك ليصل إلى مقصوده بأقصر سبيل ولئلا يضيع الوقت وابنه غارق تحت الماء ، إذ لعله يجد سبيلاً على إنقاذه في أقصر وقت .

والقرآن يحذف حرف النداء في نداء الكلمة (رب) في الأكثر فيقول مثلاً : ﴿رَبِّ قَدَّ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] ، ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ دُرْيَةً طَيْبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] .

ولم يذكر حرف النداء في نداء الرب على كثرة ما ورد إلا في موطنين وهما قوله : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخْذَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] ، وقوله : ﴿وَقَيْلِهِ يَرَبِّ إِنَّ هَتُولَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وذلك أن الرسول صاح صدره بقومه وكفرهم كما أخبر عنه سبحانه بقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعَمْ أَنَّكَ يَصْبِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فمد صوته بنداء ربه لعله يخفف مما يجد في نفسه من الضيق والبرم .



ومد الصوت قد يخفف عما في النفس ، والفضفضة في الكلام تخفف ، وحبس الكلام قد يقتل صاحبه فقال : (يا رب) فأطال شيئاً في الكلام لعله يرّوح عما يجد في نفسه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ذكر حرف النداء هو المناسب للسياق في الموطنين .

ففي آية الفرقان ناسب ذكر (يا) سياق ما ورد من عذاب أهل النار ومدهم الصوت بالندم وذلك قوله : ﴿وَيَوْمَ يَعْصُمُ الظَّالِمُونَ عَلَىٰ يَدِيهِ يَكُوْلُ يَنَيْتَنِي أَتَخَذَتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّلًا ۝ يَنَوْلَقَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٨] فناسب مدهم الصوت بالندم في الآخرة مد صوت الرسول بنداء ربه لما فعلوا به في الدنيا من ضيق وأذى . فالرسول قال في الدنيا : ﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَتَخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ .

وهم يقولون في الآخرة : ﴿يَنَيْتَنِي أَتَخَذَتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّلًا ۝ يَنَوْلَقَ لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ .

بذكر (يا) في الموطنين .

وكذا السياق في آية الزخرف ، فإنّ مد صوت الرسول بالنداء مناسب لمناداة أهل النار مالكا ليقضي عليهم ربه كما أخبر عنهم سبحانه قائلاً : ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَذَكُونُ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

وهذا مناسب لإيذائهم رسولهم في الدنيا ، فإنه مد صوته منادياً ربه قائلاً : ﴿يَرَبِّ إِنَّ هَتَوْلَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف : ٨٨] .

فقال له ربه : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف : ٨٩] .

فالرسول نادى ربه في الدنيا قائلاً : يا رب إن هؤلاء لا يؤمنون ، وهم في الآخرة ينادون مالكا قائلين : يا مالك ليقضى علينا ربك .

فما أجمل التناصب في التعبير وأجله!

٤ - قال : ﴿رَبِّ إِنَّ آتَيْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ مشيراً إلى ما وعده ربه من نجاة أهله ولم يصرح بذلك تأدباً مع ربه ، فإنه لم يقل : (لقد وعدتنـي بنجـاة أهـلي وهذا ابـني قد غـرق ، فـكيف ذـاك؟)

وقال : ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل : (وما وعدـتـني بـهـ الحقـ) وإنـما أخرجـ وـعـدـهـ مـخـرـجـ العـمـومـ، فـكـلـ ماـ يـعـدـ بـهـ رـبـهـ هوـ الحقـ فـدـخـلـ فـيـهـ مـاـ وـعـدـهـ.

جاءـ فيـ (روحـ المعـانـيـ) : «﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أيـ وإنـ وعدـ ذـلكـ أوـ كلـ وـعـدـ تـعـدـهـ حـقـ لـاـ يـتـطـرـقـ إـلـيـهـ خـلـفـ ، فـيـدـخـلـ فـيـهـ الـوـعـدـ الـمـعـهـودـ دـخـولـاـ أـولـيـاـ»^(١).

وقال : ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل : (وـإنـ وـعـدـكـ حـقـ) بلـ جـعـلـ وـعـدـهـ هوـ الحقـ حـصـرـاـ وـهـ سـيقـ حـتـمـاـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـخـلـفـ أـوـ يـتـغـيـرـ.

جاءـ فيـ (الـكـشـافـ) : «﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أيـ وإنـ كلـ وـعـدـ تـعـدـهـ فـهـوـ الحقـ الثـابـتـ الـذـيـ لـاـ شـكـ فـيـ إـنـجـازـهـ وـالـوـفـاءـ بـهـ ، وـقـدـ وـعـدـتـنـيـ أـنـ تـنـجـيـ أـهـلـيـ فـمـاـ بـالـ وـلـدـيـ؟»^(٢).

﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ الْحَكِيمَيْنَ﴾.

يجـوزـ أـنـ يـكـونـ ذـلـكـ مـنـ الـحـكـمـ وـهـ الـقـضـاءـ ، وـيـجـوزـ أـنـ يـكـونـ مـنـ الـحـكـمـةـ. فـيـجـمـعـ التـعـبـيرـ عـدـةـ مـعـانـ: (أـقـضـىـ الـقـضـاءـ) وـ(أـحـكـمـ الـقـضـاءـ) وـ(أـقـضـىـ الـحـكـماءـ) وـ(أـكـثـرـهـمـ حـكـمـةـ)^(٣) فـجـمـعـ التـعـبـيرـ عـدـةـ مـعـانـ كـلـهـاـ مرـادـةـ.

(١) روحـ المعـانـيـ ٦٨/١٢.

(٢) الكـشـافـ ٢/١٠٠.

(٣) انـظـرـ كـاتـبـاـ (الـتـعـبـيرـ الـقـرـآنـيـ)ـ تـفـسـيرـ سـوـرـ الـتـينـ.



جاء في (الكساف): «وَأَنْتَ أَحَقُّ الْحَكِيمَ» أي أعلم الحكم وأعدلهم ؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل... ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة ، كما قيل دارع من الدرع»^(١).

* * *

«قَالَ يَسُوُّجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا تَشَدِّعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» [هود: ٤٦]

قال له ربها إنه ليس من أهلك ؛ لأن الكفر يقطع النسب ، وبين له علة ذلك قائلاً: «إِنَّهُ عَمَلَ غَيْرَ صَالِحٍ» فأخبر عن ابنه بالمصدر وذلك للمبالغة ، فإنه إذا كان الشخص مكرراً من الوصف مبالغًا فيه قد يخبر عنه بالمصدر وقد يوصف بالمصدر فيقال مثلاً: هو رجل صوم أو زور ونحوه. ولا يقال ذلك لمن لم يكثر.

والمعنى أن ابنك يا نوح قد تحول إلى كتلة عمل غير صالحة ليس فيها من عنصر الذات شيء.

جاء في (الكساف): «وَجَعَلْتَ ذَاهِنَهُ عَمَلاً غَيْرَ صَالِحٍ مبالغة في ذمه كقولها: (فإنما هي إقبال وإدبار)»^(٢).

وجاء في (تفسير الرازى): «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَثُرَ عَمَلُهُ وَإِحْسَانُهُ يُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ عَلَمٌ وَكَرَمٌ وَجُودٌ. فَكَذَا هُنَا لِمَا كَثُرَ إِقْدَامُ ابْنِ نُوحٍ عَلَى الْأَعْمَالِ الْبَاطِلَةِ حَكْمٌ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ عَمَلٌ باطِلٌ»^(٣).

(١) الكساف ٢/١٠٠.

(٢) الكساف ٢/١٠١.

(٣) تفسير الرازى ٦/٣٥٧ ، وانظر تفسير البيضاوى ٢٩٧.

وقال : ﴿ فَلَا تَشْتَدِّنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فحذف ياء المتكلم في الرسم وأشار إليها بالكسرة . وذلك أنه كما أشار إلى الطلب في نجاة ابنه ولم يصرح به أشار ربه بالكسرة إلى ياء المتكلم ولم ترسم خطًا .

قد تقول : ولكنne قال في سورة الكهف في موسى والرجل الصالح :
 ﴿ قَالَ فَإِنِّي أَتَبَعَتُنِي فَلَا تَشْتَدِّنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٠]
 فقال : (فلا تسألني) برسم الياء ، فما الفرق ؟

فنقول أولاً : إن السؤالين مختلفان في المعنى ، فالسؤال الذي خوطب به نوح معناه الطلب ، أي لا تطلب ولا تلتمس مني ما ليس لك به علم .

وأما السؤال الذي خوطب به موسى فمعناه الاستفهام والاستفسار ، أي لا تستفهم ولا تستفسر عن شيء حتى أبينه لك .

ولاشك أن الاستفهام والسؤال يحتاج إلى إيضاح وشرح أكثر مما يحتاجه طلب الحاجة أو طلب شيء من الأشياء .

فطالب الحاجة إما أن يجاب بالإيجاب أو بالرفض .

وأما المستفهم فلا بد أن يبين له الأمر حتى يعيه .

ثم إن السؤال الذي خوطب به نوح إنما هو إشارة إلى طلب معين وهو نجاة ابنه .

وأما الذي خوطب به موسى فإنه غير معين ، ومن الراجح أن تتعدد الأسئلة بحسب الحوادث التي سيواجهها .

فلما كان السؤال في قصة نوح لأمر واحد حذف الياء لقلة الأسئلة .

ولما كان السؤال في قصة موسى غير محدد ويحتمل التعدد ذكر الياء



لأنه سيواجه المسؤول أكثر من مرة. فاختصر في السؤال الواحد بحذف الياء واكتفى بالكسرة.

وأعطى اللفظ كله في احتمال التعدد. وقد قيل إن الياء كسرتان فاكتفى بكسرة واحدة في الطلب الواحد.

وجاء بما هو أطول وأكثر في احتمال التعدد.
فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿قَالَ رَبِّي إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنَّ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرِي وَتَرْحَمِي
أَكُنْ مِّنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [هود: ٤٧]

ذكرنا في كتابنا (على طريق التفسير البیانی) في تفسير سورة الفلق متى يستعمل القرآن (إني أعود) بتوكيد الاستعاذه ، ومتى يقول : (أعود) من غير توکید.

ومما ذكرنا هناك هذه الآية فلا نعيد القول^(١).

لقد قال : ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنَّ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ولم يقل : (إني أعود بك من ذلك) لئلا يفهم أن الاستعاذه من ذلك السؤال الذي سأله نوح لربه حصرًا ، وإنما قال ما قال ليشمل كل سؤال في المستقبل مما ليس له به علم .

وقال : ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنَّ أَسْأَلَكَ﴾ ولم يقل لربه بعد ما نهاه (سأفعل) ذلك لأنه أراد أن يلتجيء إلى ربه ويحترز به ليقيه ويحفظه من نحو هذا السؤال . وهذا إعلان لضعفه وعدم الاعتزاد بقراره من غير إعانته الله له . وهو غاية الالتجاء إلى الله سبحانه .

(١) على طريق التفسير البیانی ١/٢٦ وما بعدها (تفسير سورة الفلق).

جاء في (روح المعاني) : « ولم يقل أعود بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبراً بذكر ما لقنه الله تعالى . وهو أبلغ من أن يقول : (أتوب إليك أن أسالك) لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيس منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته عليه السلام قاصرة من النجاة من المكاره إلا بذلك »^(١) .

وقد تقول : هل يدل قوله : ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ أنه وقع في معصية ؟

والجواب : لا يدل ذلك على ما ذكرت ، فإن طلب المغفرة لا يدل على وقوع صاحبها في المعصية حتماً بل قد يسأل المسلم المغفرة والتوبة وإن لم يكن قد أذنب . فقد سأله الأنبياء لأنفسهم المغفرة ، فقد قال سيدنا إبراهيم : ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

وقال نوح : ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَنَارًا﴾ [نوح : ٢٨] .

وقال موسى : ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥١]

وغير ذلك وغيره .

وأمر الله رسوله أن يستغفر ولم يصدر منه ذنب فقال : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر : ٥٥] .

وقال : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد : ١٩] .

وقال : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ



اللَّهُ أَفَوَاجَهَ ﴿٧﴾ فَسَيَّخَ بِهِمْ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِلَيْهِ كَانَ تَوَابًا﴿٨﴾ [النصر: ١ - ٣]

وكذلك التوبة فإن المسلم يتوب إلى الله سواء أذنب أم لم يذنب.

وهي من الذنب أولى بل هي مطلوبة. وقد وصف الله المؤمنين بأنهم تائدون فقال: ﴿الثَّابِتُونَ الْمُكَدِّرُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاهِرُونَ الْرَّكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبه: ١١٢].

وحضر ربنا أزواج النبي إن طلقهن رسوله أن يبدل ربه أزواجاً خيراً منهم ﴿مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَبَّلَتِ تَبَّاعَتِ عَيْدَاتٍ سَيِّحتِ﴾ [التحریم: ٥].

وقد أمر الله المؤمنين جميعاً بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وربنا سبحانه يحب التوابين. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد أخبر الله أنه تاب على النبي مع أنه لم يأت بذنب ، وأخبر أنه تاب على المهاجرين والأنصار فقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَبُوهُ فِي سَاعَةِ الْعَسْرَةِ﴾ [التوبه: ١١٧].

فأوضح ما قلناه.

وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾.

وقوله على لسان آدم: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقوله على لسانبني إسرائيل بعدما عبدوا العجل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَعْفُرْ لَنَا نَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

والفرق بين هذه التعبيرات فلا نكرر ما قلناه.

* * *

﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ إِسْلَمِ مِنَا وَرَكِّتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّيْ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمْمَ سَنَمَّتْهُمْ تِمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]

إن قوله سبحانه: ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ إِسْلَمِ مِنَا . . .﴾ بعد قول نوح: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ فيه مناسبة لطيفة فإن ربه بشره بالسلامة والأمان والبركات عليه وذلك يدل على مغفرته له ورحمته إياه. جاء في (البحر المحيط): «﴿أَهْبِطْ إِسْلَمِ مِنَا﴾ والباء للحال: أي مصحوباً بسلامة وأمن وبركات وهي الخيرات النامية في كل الجهات. ويجوز أن يكون السلام بمعنى التسليم ، أي اهبط مسلماً عليك مكرماً . . .

وبشر بالسلامة إيذاناً له بمغفرة ربه له ورحمته إياه وبإقامته في الأرض آمناً من الآفات الدنيوية»^(١).

وجاء في (روح المعاني): «ثم ذكر بعد توبته عليه السلام قبولها بقوله عز وجل: ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ﴾ إلخ وهو من الحسن بمكان»^(٢).

قد تقول: قال هنا: (قيل) ببناء الفعل للمجهول ، وقال فيما قبلها: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ أَهْلِكَ﴾ ببناء للمعلوم فلم ذاك؟

والجواب: أنه في الآية السابقة ، أعني قوله: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ أَهْلِكَ﴾ إنما هو حكم شرعي ، والحكم الشرعي إنما هو لله حصرًا.

ولا يجوز أن يكون ذلك لغيره ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الْدِينِ مَا لَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

(١) البحر المحيط ٥/٢٣١.

(٢) روح المعاني ١٢/٧٢.



وأما الآية هذه فإنها أمر بالهبوط من السفينة إلى الأرض وهو يصح من كل قائل . وقد قيل : إن القائل ه هنا ، أي في قوله : ﴿قِيلَ يَنْجُونَ أَهْيَطُ يَسَائِرٍ﴾ هم الملائكة^(١) .

والظاهر أن القائل هو الله بدليل قوله : ﴿إِسَلَمَ مِنَا﴾ ، وقوله : ﴿وَأَمْ سَنَمَ عَنْهُمْ﴾^(٢) . ففرق بين القولين كما ذكرنا .

هذا إضافة إلى أنه في الآية الأولى ما يدعو إلى البناء للمعلوم غير ما ذكرت منها :

١ - أنه نادى ربه قائلاً : ﴿رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فكان من المناسب أن يجيئه ربه لا أن يبني للمجهول .

٢ - أن ربه قال : ﴿فَلَا تَسْتَعْلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فذكر نفسه سبحانه .

٣ - وقال : ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فذكر نفسه .

فناسب كل ذلك أن يقول : (قال) لا (قيل) .

وقال : ﴿إِسَلَمَ مِنَا﴾ فذكر أن السلام منه ، في حين قال مخاطباً أصحاب الجنة : ﴿أَدْخُلُوهَا إِسَلَمًا إِمَّا مِنْ أَهْلِهِ﴾ [الحجر : ٤٦] ، وقال : ﴿أَدْخُلُوهَا إِسَلَمًا ذَلِكَ يَوْمُ الْخَلُودِ﴾ [ق : ٣٤] ولم يقل : (منا) وذلك لأنَّه القائل هناك معلوم من السياق وهو الله .

ففي سياق آية الحجر كان الحوار بين الله سبحانه وإبليس فقال سبحانه : ﴿إِنَّ عَبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر : ٤٢] ثم يستمر الكلام فيقول : ﴿إِنَّ الْمُنَّقِنَ فِي جَنَّتِي وَعَيْنُونِ﴾^(٣)

(١) انظر البحر المحيط ٥/٢٣١ ، روح المعاني ١٢/٧٢ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥/٢٣١ .

أَدْخُلُوهَا إِسْلَامًا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ إِخْرَاجًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَبَّلَاتٍ ﴿٦﴾ وَنَزَّعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ إِخْرَاجًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَبَّلَاتٍ ﴿٦﴾
الحجر : ٤٥ - ٤٧] فلا يحتاج إلى ذكر جهة السلام .

ونحو ذلك في سورة (ق) فإن المتكلّم هو الله والكلام مع أهل النار ، ثم يلتفت إلى أهل الجنة . فقد قال ربنا لاصحاب النار : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴾ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْفُولُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩ - ٢٨] ثم يستمر الكلام إلى أن القول : ﴿ أَدْخُلُوهَا إِسْلَامًا ذَلِكَ يَوْمُ الْحُلُودِ ﴾ ﴿٢٩﴾ لَهُمْ مَا شَاءُوا فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٤ - ٣٥] فالقاتل معلوم من السياق ، بخلاف آية هود التي بني فيها الفعل للمجهول .

ثم إن السلام على أهل الجنة ليس من جهة واحدة ، فإن الملائكة تحييهم إضافة إلى تحية رب العزة قائلاً : ﴿ سَلَّمٌ فَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] والملايكه يحيونهم قائلين : ﴿ سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ طَبَّتْمُ فَادْخُلُوهَا حَلِيلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] ، ﴿ سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عَقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٤] . حتى إن أصحاب الأعراف يحيونهم كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةَ أَنَّ سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٦] .

فلما بين جهة السلام في آية هود بقوله : (منا) علم القائل وهو الله . ولو لم يقل : (منا) لم يعلم القائل فهو الله أم الملائكة .

وقدم السلام على البركات لأن السلام والأمان أهم من البركات ، وهو مقدم عليها ، فإن السلام مقارن للهبوط ، والبركات وهي الخيرات متأخرة .

وذكر جهة السلام فقال : ﴿ إِسْلَامٌ مِنَّا ﴾ ولم يقل : (وبركات من عليك) لأن جهتها معلومة ؛ لأن القائل واحد ، فالذى قال : ﴿ إِسْلَامٌ مِنَّا ﴾ هو الذى قال : ﴿ وَبَرَكَاتٌ عَلَيْكَ ﴾ فالسلام والبركات منه . ﴿ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّكِ مَمَّنْ مَعَكَ ﴾ .



أي على أمم تنشأ ممن معك في السفينة هي من آمن من الأمم، ولذا نكر الأمم، ولم يقل: (وعلى الأمم ممن معك) فتشمل جميع الأمم المتفرعة.

ثم استأنف الكلام على أمم أخرى فقال: ﴿وَأَمْمٌ سَنَمْتَعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَاعَذَابٍ أَلِيمٌ﴾ ذكر أنه سيمتعها في الدنيا ثم يمسهم منه عذاب أليم وهو عذاب الآخرة.

والمعنى : أنه ستنشأ أمم من الذين معك في السفينة ، منها أمم مؤمنة وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿وَبَرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَّ أُمُّرٌ مِّنْ مَعَكَ﴾ ، ومنها أمم كافرة وهي التي سيمتعها في الدنيا ثم يمسها العذاب الأليم في الآخرة. جاء في (البحر المحيط): «والذي ينبغي أن يفهم من الآية أن من معه ينشأ منهم مؤمنون وكافرون .

ونبه على الإيمان بأن المتصفين به من الله عليهم سلام وبركة ، وعلى الكفر بأن المتصفين به يمتعون في الدنيا ثم يعذبون في الآخرة»^(١).

وجاء في (الكساف): «والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشأون ممن معك .

ومن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار»^(٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَأَمْمٌ سَنَمْتَعُهُمْ﴾ بعض الأمم المتشعبه منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيمة»^(٣).

قد تقول: لقد قال في آية سابقة: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا إِسْرَئِيلَ اللَّهُ بَعْرِنَاهَا وَمُرْسَنَاهَا﴾ مخاطباً بالجمع.

(١) البحر المحيط ٢٣١/٥.

(٢) الكشاف ١٠٢/٢.

(٣) روح المعاني ٧٤/١٢.

وقال في هذه الآية: ﴿يَتُّوحُ أَهْبِطُ﴾ بالإفراد ، فلِمَ لَمْ يخاطب بالجمع في هذه الآية فيقول: (اهبطوا) كما قال: (اركعوا)؟

فنقول: إن المتكلم في الآية السابقة هو نوح مخاطبًا من آمن معه فلا بد أن يقول: (اركعوا) ولا يصح بالإفراد.

وأما هنا فالمتكلم هو الله والمخاطب نوح وهو رسوله ، ولا يصح أن ينادي الله المؤمنين في السفينة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يصح الخطاب بالجمع حتى لو قال: (يا نوح اهبطوا) فيخاطب نوحًا ويأمر الجميع بالهبوط كما قال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَاحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] ، فنادي النبي وخاطب المؤمنين ، وذلك أنه قال: ﴿وَرَحِكْتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مَمَّنْ مَعَكُ﴾ فلو خاطب بالجمع لقال: (وببركات عليكم وعلى أمم من معكم) وهو لا يصح ، إذ المعنى سيكون (وببركات عليكم وعلى أمم من الذين معكم) وهذا يقتضي أن في السفينة أممًا مع المخاطبين من غير المؤمنين ، وأن البركات إنما هي على الأمم التي هي من الذين معهم وليس منهم . وهذا لا يصح قطعًا ، وهو ظاهر .

وقد تقول: هل خص السلام نوحًا والبركات عليه وعلى الأمم التي ستأتي ، ولم يشمل السلام البركات من معه؟

والجواب: كلا ، فإن السلام والبركات شملت نوحًا ومن معه ومن سيأتي من معه ، وذلك أن (من) يحتمل - كما قيل - أن تكون بيانية فيكون من معه هم المعنيين ، وذلك كما تقول: (عند أربعة من البنين) و(أكرمت مائة من الرجال) أي من جنس الرجال ، وذلك إذا كان الرجال مائة وليسوا أكثر .

وكما تقول: (وعد الله الكفار من المنافقين والمرتدين نار جهنم)



فيبيت جنس الكفار بـ (من) .

كما يحتمل أن تكون (من) ابتدائية فتشملهم وتشمل من بعدهم ، كما تقول : (أكرمتهم من كبيرهم إلى صغيرهم) فدخل الصغار مع الكبار.

ونحو ذلك قوله ﷺ : (فمطربنا من الجمعة إلى الجمعة) فدخلت الجمعة الأولى في المطر .

وعلى كلا التقديرين شمل السلام والبركات من معه .

جاء في (الكساف) : «﴿وَعَلَى أُمِّ مَمَّنْ مَعَكَ﴾» يحتمل أن تكون (من) للبيان في راد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ، لأنهم كانوا جماعات ... وأن تكون لابتداء الغاية ، أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر» ^(١) .

وكون (من) لابتداء الغاية هو الأظهر ، أي أن البركات تبدأ ممن معهم إلى من سيأتي بعدهم ، وذلك أنه قال : «﴿وَعَلَى أُمِّ مَمَّنْ مَعَكَ﴾» وليس مع نوح أمم بل أفراد . قال تعالى : «﴿وَمَاَءَامَنَ مَعَهُ، إِلَّا قَلِيلٌ﴾» .

جاء في البحر المحيط «والظاهر أن (من) لابتداء الغاية ، أي ناشئة من الذين معك ، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر» ^(٢) .

* * *

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوَحِّيَ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ هَا أَنَّ وَلَا قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَرْبَةَ لِلْمُنْتَقِينَ﴾ [هود: ٤٩]

لقد تحدى القرآن أهل الكفر قبل هذه الآية في السورة نفسها بقوله :

﴿أَمْ يَقُولُونَ كَفَرَ رَبُّهُمْ قُلْ فَأُتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مُّشَاهِدٍ مُّفْتَرِيَتِي وَأَدْعُو أَمَّنِ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ

(١) الكشاف ٢/١٠٢ .

(٢) البحر المحيط ٥/٢٣١ .



دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوْا أَنَّمَا أُنْزَلَ عِلْمٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَأَنَّ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٤﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

ولم يستجيبوا لهذا التحدي فلم يأتوا بما طلب وانقطعوا فألزمهم الحجة .

وفي هذه الآية دليل وبرهان من نوع آخر ، فإنه بعد أن سرد أحداث قصة نوح مفصلة أعلن على الناس جميعاً أن هذه المعلومات إنما هي من أنباء الغيب أو حاها الله إليه ، وأنه لم يكن يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا التنزيل .

ولم ينكِر ذلك أحد من قومه ، ولم يدع أحد أنه كان يعلمها أو أنه أخبر محمداً بها فألزم الناس جميعهم الحجة .

فمن أعلم بهـا إذن إن لم يكن ذلك وحـيـاً من عند الله؟
لا يمكن أن يقال: إنما علمـهـ بـشـرـ ، أو عـلـمـ ذـلـكـ منـ أيـ مصدرـ غـيرـ
الـوـحـيـ ، فقد قالـ: إنـهـ منـ أـنـبـاءـ الـغـيـبـ أوـ حـاـهاـ اللـهـ إـلـيـهـ.

فلو كان قـوـمـهـ أوـ أـحـدـ مـنـ قـوـمـهـ يـعـلـمـهـ لـرـفـعـ صـوـتـهـ وـقـالـ: أـنـاـ أـعـلـمـهـ ،
ولـوـ كـانـ عـلـمـهـ أـحـدـ لـقـالـ: أـنـاـ عـلـمـتـهـ ، وـرـفـعـ صـوـتـهـ بـذـلـكـ وـالـقـرـآنـ يـتـلـىـ فـيـ
مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ ، وـالـأـعـدـاءـ مـتـرـبـصـوـنـ وـهـمـ كـثـرـ .
وـالـآنـ لـنـنـظـرـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ وـتـأـلـيـفـهـاـ :

١ - فقد قالـ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءَ الْغَيْبِ﴾ ولم يـقـلـ: (تلكـ منـ الـأـنـبـاءـ
نوـحـيـهـ إـلـيـكـ) فـتـكـونـ نـبـأـ مـنـ الـأـنـبـاءـ عـلـمـهـ النـاسـ أوـ جـهـلـوـهـ ، بلـ ذـكـرـ أـنـهـ مـنـ
الـغـيـبـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ يـعـلـمـهـ هوـ وـلـاـ قـوـمـهـ .
وـهـذـهـ حـجـةـ مـلـزـمـةـ .

٢ - وـقـالـ: ﴿نُؤـجـيـهـ إـلـيـكـ﴾ أيـ نـحـنـ الـذـيـ أـخـبـرـنـاكـ بـهـاـ وـلـمـ تـعـلـمـهـ مـنـ
طـرـيقـ آـخـرـ .



وهذه حجة وإلزام آخر.

جاء في (روح المعاني): «﴿نُوحِيَهَا﴾ والتعبير بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية . . .

والمقصود من ذكر كونها موجة إلقاء قومه صلى الله تعالى عليه وسلم للتصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين»^(١)

٣ - وقال: «ما كُنْتَ تَعْلَمُهَا» فنفي بـ (ما) ، ولم يقل: (لم تكن تعلمها) وذلك أن نفي الماضي بـ (ما) أكيد ، فإنه نفي لـ (القد فعل)^(٢) . وهي تقع في جواب القسم المنفي إذا كان الفعل ماضياً.

فأفاد ذلك توكيده عدم علمه هو وعدم علم قومه.

٤ - وقال: «ما كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ» فأكيد الفاعل المستتر بـ (أنت) ولم يقل: (ما كنت تعلمها ولا قومك) مع أنه يصح أن يقال ذلك لوجود الفاصل وهو الضمير (ها) ، ووجود فاصل آخر وهو (لا) وكل منهما مسوغ للعطف على الضمير المتصل ظاهراً أو مستتراً.

وفي القرآن نظير لكل منهما^(٣) . ولكنه جاء بـ (أنت) توكيداً لعدم العلم.

(١) روح المعاني ١٢ / ٧٥.

(٢) انظر كتاب سيبويه ١/٤٦٠ ، الإنقان ١٧٦/١ ، معاني النحو ٤/٥٦٩ .

(٣) قال تعالى: «جَئْتُ عَنِّي يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَبَائِهِمْ» [الرعد: ٢٣] فعطف (من صلح) على الواو في (يدخلونها) ، والفاصل الضمير (ها).

وقال: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا مَا بَأْتُنَا» فعطف (آباؤنا) على الضمير (نا) ، والفاصل (لا) . والضمير المستتر من الضمائر المتصلة ، وأما المحذوف فقد يكون متصلةً وقد يكون منفصلاً.

٥ - وقال: ﴿وَلَا قَوْمَكَ﴾ فجاء بـ (لا) النافية ، ولم يقل: (ما كنت تعلمها وقومك)

و(لا) هذه تفيد التوكيد وتفيض القطع بعدم علمه وعلمهم بها لا على سبيل الإفراد ولا على سبيل الاجتماع . فأنت لا تعلمها ، وقومك لا يعلمونها .

ولو قال: (ما كنت تعلمها وقومك) لاحتتمل أن نفي العلم إنما هو عن المجموع وقد يعلمها أحد الطرفين .

٦ - وقال: ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ فجاء بـ (من) ليدل على أن علمهم بها إنما جاء الآن بعد الإيحاء .

ولم يقل: (قبل هذا) فيحتمل القبلية القريبة والبعيدة .

٧ - وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعِقْبَةَ لِلْمُنْتَقِيْنَ﴾ فأمره بالصبر لينال الخاتمة المحمودة في الدنيا والآخرة ، وذلك بعد أن ذكر قصة نوح وصبره على قومه لتكون له عبرة ولئلا يضيق صدره بأذى قومه ، ومن المحتمل أن يكون قد حصل له ذلك وقد أشار ربه إلى هذا الأمر فيما تقدم من السورة بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]

جاء في (تفسير الرازبي): «﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعِقْبَةَ لِلْمُنْتَقِيْنَ﴾» والمعنى: يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار .

وفيه تنبية على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه»^(١) .

٨ - وقال: ﴿إِنَّ الْعِقْبَةَ لِلْمُنْتَقِيْنَ﴾ وكان المظنون أن يقال: (فاصبر



إن العاقبة للصابرين) وذلك أن المتقين يشملون الصابرين وزيادة. فلما ذكر المتقين دخل فيهم الصابرون ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ إِلَّا أَن تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَسْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكُنَ الْبَرُّ مَنْ ظَاهَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخْرَى وَالْمَلَئِكَةُ وَالْكِتَبُ وَالنَّيْشَنُ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ دُوَيْ الْفُرْبَ وَالْيَتَمَّ وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الْصَّلَاةَ وَءَاتَى الْزَّكَوَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَنَهُدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكُمْ هُمُ الْمُنَّصُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

فذكر أن الصبر في اليساء والضراء وحين البأس إنما هو وصف واحد من أوصاف المتقين المذكورة في الآية .

فناسب أن يقول : ﴿ إِنَّ الْعِقْبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ددخل في ذلك الصابرون . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أنه لم يرد مثل هذا التعبير في القرآن مع غير المتقين ، فلم يرد مثلاً (إن العاقبة للصابرين) أو (للمؤمنين) أو غيرهم من غير أصحاب هذا الوصف .

وقد ورد نحو هذا التعبير في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهي قوله : ﴿ وَالْعِقْبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، [القصص: ٨٣]

وقوله : ﴿ إِنَّ الْعِقْبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي آية هود هذه .

وورد تعبير قريب من هذا وهو قوله : ﴿ وَالْعِقْبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] .

٩ - وقال : ﴿ إِنَّ الْعِقْبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بالتوكيد بـ (إن) ، في حين ورد نحو هذا التعبير من غير توكيده في موضوعين من القرآن وهمما قوله : ﴿ وَالْعِقْبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في سورة الأعراف : ١٢٨ ، والقصص : ٨٣ .

أما آية القصص فهي قوله : ﴿ تِلْكَ الْدَّارُ الْآخِرَةُ بَنَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعِقْبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] .

وهي كما ترى في الدار الآخرة ، والعاقبة الحسنة في الدار الآخرة ليست للمتقين فقط بل لعموم المؤمنين وإن لم يكونوا متقين . فقد تكون لعصاة المسلمين ولمن لم يبلغ درجة المتقين أيضاً . فلم يؤكد أن العاقبة للمتقين . والمقام ليس مقام توكيده كما ترى .

وأما آية الأعراف فهي قوله : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَأَصْبِرُ وَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعِنْقَبَةُ لِلْمُتَقْبِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا أُوذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا حِتَّنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَحْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨ - ١٢٩] .

وأنت ترى أن القائل هو موسى لقومه بني إسرائيل .

فإذا كان المقصود بالعاقبة وراثة الأرض المذكورة في الآية ، أعني قوله : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فالمقام ليس مقام توكيده فإن موسى لم يعدهم بذلك وعداً قاطعاً ، وإنما قال : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَحْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ليس استخلافاً على الدوام ، وإنما هو استخلاف زائل . بخلاف أمة محمد الذين وعدوا بالاستخلاف في الأرض وعداً قاطعاً من الله وهو قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْدُونَ لَا يُشْرِكُونَ كَبِيرًا ﴾ [آل عمران : ٥٥] . فأكيد العاقبة للMuslimين بقوله : ﴿ إِنَّ الْعِنْقَبَةَ لِلْمُتَقْبِينَ ﴾ بتوكيدها لنبيهم ، ولم يؤكددها موسى لقومه . وهو المناسب .

وإن كان المقصود بالعاقبة الحسنة في الآخرة فإن المتقين من أمة محمد أكثر بكثير من بني إسرائيل ، فإن اليهودية دين منسوخ نسخته



النصرانية ونسخهما الإسلام ، والإسلام باق إلى يوم القيمة ، وأتباعه باقون حتى نهاية الدنيا ، فلا شك أن العاقبة سواء كانت في وراثة الأرض أو في الآخرة فهي في اتباع الرسول محمد أكثر وأتم وأوسع ولذا فهي أكد.

فناسب التوكيد في خطاب الرسول دون المواطنين الآخرين.

وقد ذكرنا أمة محمد وبني إسرائيل ؛ لأن آية هود إنما هي في خطابنبي الإسلام محمد والوعد يشمله ويشمل أمته.

وإن آية الأعراف إنما هي في خطاب بني إسرائيل كما نصت عليه الآية.

ثم هناك أمر آخر حسن التوكيد في آية هود دون آية الأعراف وهو أن الخطاب في آية هود إنما هو من الله سبحانه لرسوله محمد.

وأن الخطاب في آية الأعراف إنما هو من موسى لبني إسرائيل.

ولا شك أن خطاب الله أكد من خطاب موسى ، فناسب التوكيد في آية هود من جهة أخرى.



قصة هود

كما ذكرنا في قصة نوح فإن قصة هود وردت في القرآن في مواضع متعددة ولكنها ليست متطابقة ، بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في الموضع الأخرى ، وذلك بحسب السياق وبحسب ما يريد التركيز عليه .
لقد وردت هذه القصة في الأعراف وفي سورة هود والشعراء وفصلت والأحقاف والذاريات والقمر والحاقة والفجر .

وهي قد يكون فيها تفصيل في موضع ، وفي موضع آخر يذكر جانبًا من جوانبها بإيجاز .

وإليك إيضاح ذلك :

١ - فقد جاء في سورة الأعراف - وهي أول سورة وردت فيها هذه القصة - أن هودًا دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده : ﴿ قَالَ يَنْقُوِي أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ عَيْرَهُ وَأَفَلَا تَنْتَقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

فتتصدى له الملايين كفروا من قومه وسفهوه واتهموه بالكذب
﴿ قَالَ الْمَلَائِيلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَىكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٦] .

فنفى أن تكون به سفاهة وأكده لهم أنه رسول من رب العالمين وأنه لهم ناصح أمين .



فرضوا ادعاءه قائلين : ﴿ أَحِتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَاؤُنَا فَأَئْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] .

فاشتد عليهم نبيهم قائلًا : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتَجَدِلُونَنِي فِي سَمَاءِ سَمَيَّتُهَا أَنْتُ وَمَاءَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ
فَأَنْظِرُوهُ أَنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٧١] .

ويظهر أن قوله : ﴿ فَأَنْظِرُوهُ أَنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ إنما هو
جواب لتحديهم ﴿ فَأَئْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ ﴾ .

فهم قالوا له : ﴿ فَأَئْنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ وهو أجابهم بقوله : ﴿ فَأَنْظِرُوهُ أَنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ .

ثم جاء الأمر الحاسم بنجاته ومن معه وإهلاك المكذبين تصديقاً لما
وعدهم به ﴿ فَأَبْيَنْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنِّي وَقَطَعْنَا دَارِ الَّذِينَ كَذَبُوا إِعْانِي
وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٢] .

٢ - وفي سورة هود ذكر أيضًا أنه دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ قَالَ
يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود : ٥٠]
غير أن ما قاله في هود لا يطابق ما قاله في الأعراف . فإنه قال لهم في
الأعراف : ﴿ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴾ .

وقال في هود : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ .

وذلك أنهم قالوا في الأعراف : ﴿ أَحِتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا
كَانَ يَعْبُدُءَابَاؤُنَا ﴾ [الأعراف : ٧٠] فقال لهم : ﴿ أَتَجَدِلُونَنِي فِي سَمَاءِ
سَمَيَّتُهَا أَنْتُ وَمَاءَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ ﴾ أي إنهم افتروا على
الله . فقال لهم في هود : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ فكأن ما ذكره في هود
إنما هو تعقيب على ما قالوه في الأعراف واستكمال له .



ثم إنه قال لهم إنه لا يسألهم على دعوته أجرًا.
ولم يقل مثل ذلك في الأعراف.

ووعدهم بالخير الكثير إن هم أطاعوه ، فإن ربه سيرسل السماء عليهم
مدارًا ويزيدهم قوة إلى قوتهم .
ولم يقل مثل ذلك في الأعراف.

فردوا عليه قائلين إنه لم يأتهم ببينة ، وإنهم لا يتركون آلهتهم بسبب
قوله . غير أنه لم تكن المواجهة بينهما على نحو ما ورد في الأعراف ، بل
كانت أخف ، ذلك أن ما ورد في الأعراف إنما هو قول الملايين الذين كفروا
من قومه خاصة .

وأما المواجهة في هود فقد كانت مع عموم القوم ، وعموم القوم
ليسوا بالملائكة الذين كفروا ، أي أشراف قومه الكافرين ، فهم متفاوتون في
الإجابة .

وعلى كل حال فهم أخف من الملائكة الذين كفروا ، ولذا لم يصفوه
بالسفه ولم يصرحوا بکذبه ، وإنما قالوا له : ﴿يَهُودُ مَا جَعْلَنَا بِيَقِنَّةٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ الْهَمَنَّا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٣] إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْرَنَكَ بَعْضُ
إِلَهَتَنَا إِسْوَعُ ﴿[هود: ٥٤]﴾ .

أي أصابك سوء من بعض الآلهة فتقول ما تقول ، ولم يصرحوا بأنه
أصابه جنون مع أنهم يعنون ذلك ، وإنما خففوا في المواجهة فقالوا:
(أصابك سوء).

ولذا كان جوابه لهم مناسباً لما قالوا فيه . فقد قال لهم : ﴿إِنَّ أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشَرِّكُونَ﴾ [٥٥] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴿ فقد
تحداهم وتحدى آلهتهم بأن يكيدوه ولا يمهلوه .



ولم يرد نحو ذلك في الأعراف.

ولما كانت المواجهة في الأعراف أشد وإنهم تحدوه كانت العقوبة أشد ، فقد قال فيها: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِبْلَيْنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

ولم يقل مثل ذلك في هود ، وإنما قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنَا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِظٍ﴾ [هود: ٥٨] ولم يذكر أنه قطع دابر الذين كذبوه.

فهم في الأعراف تحدوه ، وفي هود هو تحداهم.

فأنت ترى أنه ذكر في كل موطن جانبًا لم يذكره في الآخر.

٣ - وفي سورة الشعراء بدأ القصة بقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وهذا ما تبدأ به جملة من القصص في هذه السورة.

فالقصة هنا متناسبة مع القصص في السورة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كأنها استكمال لما ورد في الأعراف وهود ، وذلك بعد تكذيب عاد لرسولهم في الأعراف وهو قال في الشعراء: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ولم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده كما فعل في الأعراف وهو هود ، وإنما ذكر ما بعد ذلك فقال: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ هُودٌ لَا يَنْتَهُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُوْنُ رَسُولُ أَمِينٍ ﴿٣﴾ فَأَنْقَلُهُمْ وَأَطْبِعُونَ ﴿٤﴾ وَمَا أَسْعَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٢٧].

وهذه العبارات قالتها عموم الرسل لأقوامهم في هذه السورة ، فقد قالها نوح لقومه ، وقالها هود وقالها صالح وقالها لوط وقالها شعيب . ثم بكتهم بما يفعلون قائلاً: ﴿أَتَبَتَّنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائِيَةً تَبْثُثُونَ ﴿٥﴾ وَتَتَخْذُلُونَ

مَصانعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٥﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَارِينَ ﴿١٣٦﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠] وذكرهم بالنعم التي أمدتهم بها رب العالمين.

ولم يرد مثل ذلك في قصة هود في المواضع الأخرى من القرآن الكريم. وهذا متناسب مع سائر القصص في السورة.

فرد عليه القوم قائلين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْ عَطَتَ أُمَّةٌ مَّا تَحْكُمْ مِنَ الْوَعِظِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا لِّخُقُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٩﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨]

فأهلتهم رب العزة وجعلهم آية فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْتَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْهِ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤١﴾ [الشعراء: ١٣٩ - ١٤٠].

وهذا التعقيب جرى بعد عموم القصص في الشعراء. فأنت ترى أنه ذكر جوانب من القصة لم يذكرها فيما سبق من القصص.

٤ - وأما في سورة فصلت فقد ذكر استكبارهم واعتدادهم بقوتهم واغترارهم بها حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ، ثم ذكر عقوبتهم وأنه أرسل عليهم ريحًا صرصارًا أذاقتهم عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخرى.

وهذا أول موضع يذكر فيه نوع العذاب الذي حل بهم وأنه بالريح. ولم يذكر دعوة رسولهم لهم ولا موقفاً لهم منه ، وإنما لشخص قصتهم لأهل مكة ولمن يعتبر . فهي تختلف عن كل ما مر من القصص.

وهذا ما ورد من هذه القصة في فصلت:

﴿فَآمَّا عَادٌ فَاسْتَكَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرْفُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا يَأْتِيَنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

رِيحًا صَرَصَرًا فِي أَيَّامٍ تَحْسَاتِ لِذُيْهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ
أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ» [فصلت: ١٥ - ١٦].

٥ - وأما في سورة الأحقاف فإنه ذكر مساكنهم ، وهي أول مرة تذكر فيها المساكن وأنها بالأحقاف فقال: « وَأَذْكُرْ أَحَادِيدَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ
بِالْأَحْقَافِ» [الأحقاف: ٢١]. والأحقاف في اليمن.

وقال لهم رسولهم منذرًا ومحذرًا: « أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» [الأحقاف: ٢١].

فأجابوه قائلين: « أَجِئْنَا إِنْتَافِكَنَا عَنْ إِمَّتِنَا فَأَنْتَ بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّدِيقِينَ» [الأحقاف: ٢٢].

فإنه لما خوّفهم بعذاب يوم عظيم ، تحذّره قائلين: « فَأَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ» .

ثم ذكر كيف أنهم استقبلوا عارض العذاب فظنوه سحاباً ممطراً
وقالوا: « هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌنَا» .

ثم ذكر مآلهم وأنه أرسل عليهم ريحًا دمرتهم فأصبحوا لا يُرى إلا
مساكنهم (الآية ٢٥).

وهذه أول مرة تذكر فيه مساكنهم المدمرة الخالية ، كما أنه أول مرة
ذكرت مساكنهم في الجزيرة .

٦ - وأما في الذاريات والقمر والحافة والفجر فلم يذكر دعوة ولا
موقعًا من رسولهم ، وإنما ذكر عاقبتهم وهلاكهم .

وهو يذكر في كل موضع ما لم يذكره في الموضع الآخر من التفصيل
وكيفية الإهلاك .

وكل منها مناسب لما ورد في موضعه .

وبهذا يتضح أن القصة ليست متماثلة في تفصيل أحداثها.

تذكيرهم بالنعم:

إن التذكير بالنعم في القصة ليس متماثلاً. فقد يذكرهم في موضع على وجه الإجمال ، وفي موضع آخر على وجه التفصيل.

وقد لا يذكر ذلك في مواضع أخرى إذ لا يقتضي السياق ذكره.

١ - فقد قال في الأعراف : ﴿ وَزَادُكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَطَّةً فَأَذْكُرُوكُمْ أَلَا إِنَّ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ لَفْلُحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩].

فذكرهم ببصطة أجسامهم وقوتها ، وذكرهم بما أنعم الله عليهم على العموم .

٢ - وأما في سورة هود فإنه دعاهم إلى الاستغفار والتوبة لمدحهم ربهم ببركات السماء ويزيدهم قوة إلى قوتهم .

ومعنى ذلك أن الله قد أعطاهم قوة وأنه سيزيدهم قوة إلى قوتهم ، فذكر أن لهم قوة على العموم ولم يخصصها .

لقد ذكر في آية الأعراف بصطة الجسم وقوته ، وهنا ذكر القوة على العموم ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَزِدُّ كُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تُنَوِّأُ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢].

٣ - وقد ذكر في الشعراء شيئاً من مظاهر قوتهم وعدّ آلاء الله عليهم ، وكيف تصرفوا في هذه النعم فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ أَيَّةً تَعْبَثُونَ ﴾ [١٢٨] وَتَسْخِذُونَ مَصَائِبَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [١٢٩] وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ [١٣٠] فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ [١٣١] وَأَنْقُوا الَّذِي أَمْدَكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ [١٣٢] أَمْدَكُرْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ [١٣٣] وَجَهَتِ وَعِيُونِ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٤].

ففصل ما أجمله في الأعراف وهو من آلاء الله عليهم في أجسامهم



وأنهم إذا بطشوا بطشوا جبارين .

وفصل فيما أنعم عليهم من الأنعم والبنين والجنات والعيون .

فكأن ما ورد في الشعراء تفصيل لما أجمله في الموطنين السابقين .

٤ - وفي فصلت ذكر استكبارهم في الأرض بغير الحق واعتدادهم بقوتهم واغترارهم بها والاستطالة على خلق الله . قال تعالى : ﴿ فَامَّا عَادٌ فَاسْتَكَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً اُولَئِرَبَّوا اَنَّهُمْ اَلَّا يَرَوْا اَنَّهُمْ اَلَّا يَرَوْا اَنَّهُمْ هُوَ اَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥]

٥ - ولم يذكر شيئاً عن ذلك في الأحقاف ولا في الذاريات ولا في القمر ولا في الحاقة .

٦ - وكذلك في سورة الفجر ، فإنه لم يذكرهم بالنعم وإنما وصفهم أو وصف بلادهم بأنها ذات العمام ثم ذكر صب العذاب عليهم وعلى الأقوام الكافرة الأخرى .

العاقبة والهلاك :

لم يكرر ذكر عاقبة عاد ولا كيفية هلاكهم ، وإنما يذكر في كل موضع جانبًا من جوانب العقوبة .

فقد يذكر العقوبة على وجه العموم في موضع ويفصل في موضع آخر ، ولكنه لم يذكرها على نمط واحد ، بل يذكر في كل موضع ما يناسب السياق وجو السورة .

١ - فقد قال في الأعراف : ﴿ فَأَبْخَتَنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِعْانَنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٢] .

فذكر نجاته والذين معه ، وذكر أنه قطع دابر الذين كذبوا ، غير أنه لم يذكر نوع العقوبة ولا كيف قطع دابرهم .

٢ - وفي هود لم يذكر نوع العقوبة أيضا وإنما ذكر الأمر بصورة أخرى ، فقد قال إنه نجى هودا والذين آمنوا من عذاب غليظ .

ولم يذكر نوع هذا العذاب ولا أنه قطع دابر الذين كذبوا ، وإنما قال إنهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَخَسِنَاهُوْدًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَنَا وَبَخَسِنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ حَمَدُوا إِيَّاينَ رَبِّهِمْ وَعَصَمُوا رُسُلَهُ وَأَتَبْعَوْا أَمْرَ كُلِّ جَبَارٍ عَنِيدٍ ﴾ ﴿ وَأَتَبْعَوْا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٌ هُوْدٌ ﴾ [هود: ٥٨ - ٦٠] .

٣ - وأما في الشعراء فقد قال : ﴿ فَآهَلَكُنَّهُمْ ﴾ ولم يذكر كيفية الإهلاك ، كما أنه لم يذكر نجاته ونجاة من معه ، ذلك أنه خوفهم بالعذاب قائلاً : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فقالوا له : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فأهلوكهم .

٤ - وأول موطن يرد فيه ذكر نوع العقوبة إنما هو في فصلت ، فقد ذكر أنه أرسل عليهم ريحًا صرصارًا في أيام نحسات ، ولم يذكر عدد الأيام تلك . ولم يذكر ماذا فعلت هذه الريح بهم أو بمساكنهم . قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُصْرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦] ولم يذكر نجاة هود ومن معه ، ذلك أنه حذر قريشاً أن تصيبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فذكر عذابهم .

٥ - وأما في الأحقاف فزاد في وصف الريح وأنها جاءت على هيئة عارض ، أي سحاب ممطر واستبشروا بها فإذا هي ريح مدمرة تدمير كل شيء فلم يبق منهم إلا مساكنهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلًا أَوْدَيْهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ شَمَطْرُنَا بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْنَاهُ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ ثُدَمِرٌ كُلُّ شَيْءٍ بِإِمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا



مَسْكُنُهُمْ كَذَلِكَ نَحْنُ أَلْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤ - ٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥].

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه محل سكناهم وأنه بالأحقاف ، وأن الريح أهلكتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها المساكن وأنها بقيت بعدهم خاوية خالية .

ولم يذكر في موضع آخر محل سكناهم ولا مساكنهم .

وذكر المساكن مناسب لذكر موضع سكناهم وهي الأحقاف .

ولم يذكر نجاته ، ذلك أنه خوفهم بالعذاب قائلاً : «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ فقالوا غير مبالين : «فَأَئِنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٣﴾» [الأحقاف: ٢٢] فذكر هلاكهم على نحو ما ورد .

٦ - وأما في الذاريات فقد زاد في وصف الريح وعتوها وأنها عقيم لا تأتي بخير وأنها لا تأتي على شيء إلا دمرته دماراً تاماً . قال تعالى : «وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْمَيْمِنِ ﴿٤٢﴾» [الذاريات: ٤١ - ٤٢].

٧ - وأما في القمر فقد ذكر عمل الريح في الناس فخصص الوصف .

ففي الأحقاف ذكر الدمار على العموم وذكر المساكن .

وزاد في وصفها في الذاريات .

وأما في القمر فخصص فعلها في الناس فقال : «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَّارًا فِي يَوْمٍ نَّحْسِنُ مُسْتَمِرٍ ﴿١٩﴾ تَنْزَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلِ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾» [القمر: ١٩ - ٢١].

وهذا أول موطن يذكر فيه ما فعلته الريح في الناس وأنها تنزعهم كأنهم أعجز نخل منقعر .



فخصص بعد العموم.

٨ - وأما في الحاقة فزاد في وصفها وذكر أنها عاتية وذكر مدتتها . وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه مدة الريح وأنها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً .

ثم ذكر أنه لم يبق من عاد أحد .

قال تعالى : ﴿ وَمَا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرِصِّرَ عَاتِيَةٍ ۝ سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبَعَ لَيَالٍ وَثَمَنَيْةَ أَيَّامٍ حُسُومًا قَرَرَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعَىٰ كَانُوهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٌ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَّةٍ ۝﴾ [الحاقة : ٦ - ٨] .

وانتهى المشهد وكانت الخاتمة هنا ، ولم يذكر بعد ذلك شيئاً عن نهاية عاد وعاقبتها ، فقد انتهى كل شيء بقوله : ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَّةٍ ۝﴾ .

٩ - وختم ذكر عاد في سورة الفجر ، فقد ذكر في هذه السورة اسم بلدhem على ما قيل ووصفها . وهو ما لم يرد في موطن آخر ، فقد ذكر أنها ﴿ إِرَمٌ ذَاتٌ أَعْمَادٌ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلِقْ مِثْلُهَا فِي الْإِلَمِدِ ۝﴾ .

ومما قيل في إرم «أنها مدينة عظيمة في اليمن ، والوصفات لها والمراد ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطير التي لم يخلق مثلها سعة وحسن بيوت وبساتين في بلاد الدنيا» ^(١) .

وقيل : إن إرم هي اسم للقبيلة فهي عاد إرم ^(٢) .

وعلى كلا التفسيرين فقد ذكر في هذه السورة ما لم يذكره في أي موضع آخر من القرآن ، سواء كانت إرم اسمًا لمدينتهم أم اسمًا لقبيلتهم . ومن الملاحظ في هذه القصة أنه ذكر في الأعراف النجاة والإهلاك .

(١) روح المعاني ٣٠ / ١٢٣ .

(٢) فتح القدير ٥ / ٤٢٣ ، روح المعاني ٣٠ / ١٢٣ .



وفي هود ذكر النجاة ولم يذكر عقوبة غير قوله: ﴿وَأَتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمًا أَقِيمَةً﴾.

وفي الشعراء وفصلت والأحقاف والذاريات والقمر والحافة والفجر ذكر العقوبة والإهلاك ولم يذكر النجاة.

وكل ذلك متناسب مع السياق في كل سورة ، ومع جو السورة وما ورد فيها .

ومن الملاحظ أيضاً في قصة عاد أنه لم يذكر أن نبيهم دعا على قومه أو دعا بالنجاة في كل ما ورد من القصة .

كما أنه لم يذكر أهله وكيف كانوا كما مرّ في قصة نوح .

فاتضح من ذلك أن القصة لم تكرر وأنه في كل موطن يذكر ما لا يذكره في موطن آخر .

والآن نعود إلى آيات القصة في سورة هود لتلمس شيئاً من جوانبها الفنية .

* * *

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ إِنَّمَا إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]

ناداهم بقوله: (يا قوم) استعطافاً لهم ليسمعوا قوله وليلينوا له وأضافهم إلى نفسه .

قيل: «وقرأ ابن محيسن (يا قوم) بضم الميم... وهي لغة في المنادى المضاف حكاها سيبويه وغيره»^(١).

والقراءة بكسر الميم - وهي قراءة القراء العشرة - أولى وأظهر في

(١) البحر المحيط ٤/٢٣٢ .

إِلَيْهِ يَأْتِي الْمُتَكَلِّمُ ، ذَلِكَ أَنْ قَوْلَهُ : (يَا قَوْمٌ) بضم الميم ليست نصًا في الإضافة ، بل هي تحتمل النكرة المقصودة ، كما تقول : (يَا رَجُلٌ) أو (يَا وَاقِفٌ) بخلاف كسر الميم فإنها نص في إضافة القوم إلى نفسه . علاوة على كون القراءة بالكسرة قراءة متواترة قرأ بها العشرة .

﴿ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ جاء بـ(من) الاستغرافية لتفادي أن يكون ثمة إله غير الله على سبيل الاستغراف .

وقال ههنا : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ ، وقال في الأعراف : ﴿ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] وذلك أن القصة في الأعراف كانت أول تبليغ لهم ورد في القرآن دعاهم فيه إلى عبادة الله فلا يناسب أن يقول : (إن أنتم إلا مفترون) .

وأما القصة في هود فكانت بعدهما ورد في الأعراف من استمساكهم باللهتهم وردهم على نبيهم قائلين : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِتَعْبُدُوا اللَّهَ وَهُدَىٰ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا ﴾ [الأعراف : ٧٠] واشتداد نبيهم عليهم بقوله : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي فِتْنَةٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف : ٧١] أي إنهم افتروا على الله باتخاذهم الأوثان شركاء الله^(١) .

فناسب أن يقول في هود : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ فكأن هذا التعبير استكمال للمحاورة بينهما والرد عليهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التعبير في هود مناسب أيضًا لما ورد في السورة من الكلام على آلهتهم التي افتروها على الله ، فقد قالوا لنبיהם : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةَ الْهَمَنِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ [هود : ٥٣] وقالوا له أيضًا :

(١) انظر الكشاف ٢/١٠٢ .

﴿إِن تَقُولُ إِلَّا أَعْرَدْتَكَ بَعْضُهَا هَتَنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

فكان كل تعبير في مكانه أنساب.

ونفى ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ بـ (إن) ولم ينفه بـ (ما) ذلك لأن (إن) أقوى من (ما) في النفي وأكد^(١). فأكد افتراءهم على الله سبحانه.

* * *

﴿يَنْقُومُ لَا أَشْكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَ فَإِنَّا لَعَنْ قِيلَوْنَ﴾

[هود: ٥١]

نفى عن نفسه ما قد يظنونه أنه يعني مطمعاً أو مالاً فقال لهم إنه لا يسألهم أجراً على ما يبذله من النصح لهم ، وذلك أدعى إلى قبول النصيحة ؛ لأن ذلك يدل على أنه ناصح لهم حقاً يعني لهم الخير . فإنـه إذا كان القول مشوباً بمطعم كان أبعد عن القبول وأدعى إلى التهمة .

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «خاطب به كل رسول قومه إزاحة لما عسى أن يتوهموه وتحميساً للنصيحة ، فإنـها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير»^(٢).

* * *

﴿إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَ فَإِنَّا لَعَنْ قِيلَوْنَ﴾

قال هنا: (فطريني) أي أوجدني من العدم . وهذا تعريض بالتهم التي يعلمون أنها ليست هي التي أوجدتهم بل أوجدهم الله كما أخبر عن المشركين سبحانه بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقُهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَفَلَا يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

(١) انظر معاني النحو ٤/٥٧٦.

(٢) روح المعاني ١٢/٨٠.

ومعنى ذلك أن آلهتهم لا تستحق أن تعبد وإنما يستحق العبادة الذي فطرهم وفطر السماوات والأرض .

جاء في (البحر المحيط) : «ونبه بقوله : ﴿الَّذِي فَطَرَنِ﴾ على الرد عليهم في عبادتهم الأصنام ، واعتقادهم أنها تفعل . وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة»^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : « وإيراد الموصول للتفخيم ، وجعل الصلة فعل الفطر الذي هو الإيجاد والإبداع لكونه أبعد من أن يتورّم نسبته إلى شركائهم»^(٢) .

قد تقول : لقد قال في قصة نوح في هذه السورة : ﴿وَنَقَوْمٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] .

فقال : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فذكر اسمه العلم .

وقال هنا : ﴿إِنْ أَجْرِيَ كَإِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِ﴾ فذكر الذي فطره . فما السبب ؟

فنقول : إنه لم يجر ذكر للآلهة وعبادتها في قصة نوح في هذه السورة فجاء باسمه العلم ، بخلاف هذه القصة فإنه جرى ذكر آلهتهم ، فناسب ذكر الذي فطره تعرضاً بالآلهتهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده وإبطال عبادة ما يعبدون من دون الله .

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وهذا من ألطاف التعقيب ، فإنه مناسب لقوله : ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فإن الذي لا يبتغي مصلحة لنفسه ناصح صادق ، أفلأ تعقلون هذا ؟ أليس

(١) البحر المحيط ٥ / ٢٣٢ .

(٢) روح المعاني ١٢ / ٨٠ .



الذي لا يتعيّن مصلحة لنفسه ناصحاً صادقاً؟

وهو مناسب لقوله: «إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِ» ، وفحواه أفلأ
تعقلون أنه لا يستحق العبادة غير فاطر السماوات والأرض وفاطر
الإنسان؟

ألا تعقلون أن غير الفاطر لا يستحق أن يعبد «أو تجهلون كل شيء فلا
تعقلون شيئاً أصلاً»، فإن الأمر مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من
العقلاء»^(١).

جاء في (البحر المحيط): «وَأَفَلَا تَعْقِلُونَ» توقيف على استحالة
الالوهية لغير الفاطر.

ويحتمل أن يكون «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» راجعاً إلى أنه إذا لم أطلب عرضاً
منكم وإنما أريد نفعكم فيجب انقيادكم لما فيه نجاتكم ، كأنه قيل: أفلأ
تعقلون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله تعالى ، وهو ثواب
الآخرة؟

ولا شيء أنفي للتهمة من ذلك»^(٢).

* * *

«وَيَقُولُونَ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدَارًا
وَيَرِدُكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تُنَلِّوْ أَمْجَرِيْمِيْنَ» [هود: ٥٢]

المناسبة هذه الآية لما قبلها مناسبة لطيفة ، فإنه نفي إرادة مصلحة نفسه
في الآية السابقة ودعاهم إلى مصلحتهم هم في هذه الآية . فقد قال إنه لا
يطلب أجراً لنفسه ولكن إنهم أجابوه أتاهم الله المال والقوة . فإنهم إذا

(١) روح المعاني ١٢ / ٨٠ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٢٣٢ .

استغفروا ربهم وتابوا إليه أرسل السماء عليهم مدراراً وهم أصحاب زروع وثمار وبساتين^(١) وزادهم قوة إلى قوتهم ، وماذا يطلب الإنسان لدنياه أكثر من ذلك : المال والزيادة في القوة؟

وقد ذكرنا في أول السورة تقديم الاستغفار على التوبة وسبب ذلك فلا نعيد القول فيه .

وقدم هنا إرسال الغيث على زيادة القوة لأن ذلك سبب في زيادتها ، فإن زيادة المال من أسباب زيادة القوة .

* * *

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِيَتِنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ الْهَيْنَاءِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ [٥٣] إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَا بَعْضَ إِلَهِيْنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُو أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [٥٤] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ [٥٥ - ٥٣] [هود : ٥٣ - ٥٥]

بعد أن محض لهم النصح ودعاهم إلى أن يحكموا عقولهم فيما هم عليه وأن فيما دعاهم إليه مصلحتهم هم لا مصلحته هو ردوا عليه بقولهم : **مَا جِئْنَا بِيَتِنَةٍ** ومعنى ذلك أنك لم تأتنا بحججة واضحة . ولعلك لو جئت ببينة لامنا لك وصدقناك .

وقولهم هذا لا ينفي أن يكون هو صادقاً ، فقد يكون صادقاً غير أنه لم يأت بحججة تبين ذاك .

ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا : **وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ الْهَيْنَاءِ عَنْ قَوْلِكَ** مؤكدين موقفهم ، وأنهم لا يتركون آلهتهم لقول قاله .

ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا : **وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ** أي لسنا مصدقين لك أصلاً .

(١) انظر البحر المحيط ٥/٢٣٣ ، الكشاف ٢/١٠٢ ، فتح القدير ٢/٤٨١ .



فقد نفوا أن يكون صادقاً ، فذهبوا من السيء إلى الأسوأ ، ذلك أنهم قالوا له أولاً: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ﴾ فلم ينفوا صدقه ، ثم أمعنوا في السوء حتى قالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فنفوا أن يكون صادقاً.

ثم ذهبوا أبعد من ذلك في السوء فقالوا: ﴿إِن تَقُولُ إِلَّا آعْتَرَنَا بَعْضُ إِلَهَيْنَا بِسُوءٍ﴾ أي أصابك بعض الآلهة بالجنون ، فكأنه لما قال لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أرادوا أن يتهموه بعقله أيضاً وأن يرموه بأبعد مما رماهم به فاتهموه بالجنون ، فلم يدعوا مجالاً للإيمان وآيسوه من ذلك ، فكل حالة أسوأ من التي قبلها.

جاء في (روح المعاني): «لقد سلكوا طريق المخالفة والعناد على سبيل الترقى من السيء إلى الأسوأ حيث أخبروه أولاً عن عدم مجىئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به حجة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد».

وثانياً: عن ترك الامثال لقوله عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِ إِلَهَيْنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له في كلامه.

ثم نفوا عنه تصديقهم له عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مع كون كلامه عليه السلام مما يقبل التصديق.

ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضاً حيث قالوا ما قالوا»^(١).

إن هذه الآية كل جزئياتها مؤكدة ، إذ كل تعبير فيها مؤكد بمؤكد أو أكثر.

فقوله: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه قال: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ﴾ ففي الفعل الماضي بـ(ما) ، ولم يقل: (لم تأتنا ببينة) فينفيه بـ(لم).

وال فعل الماضي المنفي بـ (ما) آكـد من الفعل المنفي بـ (لم) ، ذلك أن الفعل الماضي المنفي بـ (ما) يقع جواباً للقسم ، بخلاف المنفي بـ (لم) فهو آكـد^(١) . فهـذا التعبير منفي نفـياً مؤكـداً.

وقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ الْهَئِنَّا عَنْ قَوْلِكَ﴾ تعبير مؤكـد ، فإنه قال : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ الْهَئِنَّا عَنْ قَوْلِكَ﴾ ولم يقل : (ولـسـنا تـارـكـيـةـاـنـاـ عنـ قـوـلـكـ) بالجملـةـ الفـعلـيةـ . فـنـفـيـ التـعـبـيرـ بـالـجـمـلـةـ الـأـسـمـيـةـ المـصـدـرـةـ بـ (ما) ، والـجـمـلـةـ الـأـسـمـيـةـ آـكـدـ منـ الجـمـلـةـ الفـعلـيةـ كـمـاـ هوـ مـعـلـومـ .

ثم جاء بـالـباءـ الزـائـدـةـ المؤـكـدـةـ فـيـ الـخـبـرـ فـقـالـ : ﴿بِتَارِكِيَّةِ﴾ و﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ فيه معـنـيـانـ :

الـمعـنـىـ الـأـوـلـ : (صادـرـينـ عنـ قـوـلـكـ)

وـالـمعـنـىـ الـآـخـرـ : التـعـلـيلـ أـيـ (الـقـوـلـكـ) أـيـ لـاـ نـتـرـكـ آـهـتـنـاـ لـقـوـلـ قـلـتـهـ عـلـىـ أـيـةـ حـالـ .

وقـولـهـ : ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تـعبـيرـ مؤـكـدـ ، ذلكـ أـنـهـ نـفـواـ إـيمـانـهـ بـالـجـمـلـةـ الـأـسـمـيـةـ الـمـنـفـيـةـ بـ (ما) ، وجـاءـ بـالـباءـ الزـائـدـةـ فـيـ الـخـبـرـ وـهـيـ تـفـيدـ التـوكـيدـ .

وـقـدـ الجـارـ وـالـمـجـرـورـ عـلـىـ العـاـمـلـ (مـؤـمـنـيـنـ) وـهـوـ - أـيـ التـقـديـمـ - يـفـيدـ الـاـخـتـصـاصـ فـيـ الـغـالـبـ ، أـيـ : نـحـنـ نـخـصـكـ بـعـدـ إـيمـانـ .

ولـوـ قـالـ مـثـلاـ : (ولـسـناـ مـؤـمـنـيـنـ لـكـ) لـمـ يـكـنـ التـعـبـيرـ مؤـكـداـ .

وـقـولـهـ : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَنَّكَ بَعْضُ إِلَهِنَّا بِسُوءٍ﴾ تـعبـيرـ مؤـكـدـ ، فإـنهـ جاءـ بـأـسـلـوبـ القـصـرـ ، فـقـدـ نـفـيـ بـ (إـنـ) وـأـثـبـتـ بـ (إـلـاـ) وـلـمـ يـقـلـ : (نـقـولـ اـعـتـرـاكـ بـعـضـ آـهـتـنـاـ بـسـوءـ) .

三

والتعبير بأسلوب القصر تعبير مؤكد.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه نفى بـ (إن) ولم ينف بـ (ما) ،
و(إن) أكد من (ما) في النفي كما أسلفنا .

فكل جزء من الآية تعبير مؤكد - كما ترى -. .

• • •

﴿إِن تَقُولُ إِلَّا أَعْرَنَاكَ بَعْضَ إِلَهَتْنَا يَسُوٰءُ قَالَ إِنِّي أَشْهِدُ اللَّهَ وَأَشَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا نَشْرَكُونَ ﴾ [٥٤] مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوهُ فِي جَمِيعِ أَثْمٍ لَا نُنْظَرُونَ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥]

لما قالوا ما قالوا وأيسوه من إيمانهم وقالوا: إن بعض آلهتهم اعتراه
بسوء ، أعلن البراءة من آلهتهم وأشهد الله وطلب منهم أن يشهدوا على
ذلك فقال: ﴿إِنَّمَا تُشَرِّكُونَ بِرَبِّكُمْ مَمَّا لَمْ يُنْهَا﴾ .

ثم تحداهم وتحدى آلتهم جميعاً ، وليس بعض القوم وليس بعض الآلهة فقط أن يكيدوه ولا يمهلوه . وهو تهاون عظيم بهم وبالآلهتهم كلها ،
فهي والآلهتهم أضعف من أن يفعلوا له شيئاً .

وقوله: ﴿مَمَا تُشْرِكُنَّ﴾ يحمل معنيين:

أن تكون (ما) اسمًا موصولاً بمعنى (الذي)، أي أنا بريء من الذي تشركون.

أو أن تكون (ما) مصدرية فيكون المعنى: أنا بريء من إشراككم آلته من دونه^(١).

وقد أراد المعنيين جميعاً: البراءة من إشراكهم ومن الذين يشركونهم .

ثم قال لهم:

(١) انظر السجق المخطط / ٥٢٣٢.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَاصِيَّهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فقال لهم: إنه اعتمد على الله وركن إليه فهو يكفيه كل شيء ، فهو ربهم وربهم ، يكفي ويحفظ من توكل عليه وركن إليه ، فهو ربكم وأنتم لا تفوتونه ، وهذه الأصنام لا تمنعكم منه ولا تقدر أن تكيدني بشيء.

﴿مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَاصِيَّهَا﴾ ذليلة له خاضعة لا تفوته ولا تقدر أن تمنع منه .

والناصية «مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت عليها»^(١).

والأخذ بالناصية دليل على القدرة والقهر ، جاء في (البحر المحيط): «ثم وصف قدرة الله تعالى وعظمي ملكه من كون كل دابة في قبضته وملكه تحت قهره وسلطانه ، فأنتم من جملة أولئك المقهورين .

وقوله: ﴿أَخْذُ بِنَاصِيَّهَا﴾ تمثيل ، إذ كان القادر المالك يقود المقدور عليه بناصيته ، كما يقاد الأسير والفرس بناصيته ، حتى صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة على الحيوان . وكانت العرب تجز ناصية الأسير الممنون عليه علامه على أنه قد قدر عليه وقبض على ناصيته .

وقال ابن جريج: وخص الناصية لأن العرب إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع قالت: ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء»^(٢).

وقد جاء بـ(من) الاستغرافية ولم يقيد مكاناً أو زماناً لذاك . فكل دابة من إنسان أو غيره أياً كان وأينما كان مأخوذ بناصيته من ربه خاضع له

(١) روح المعاني ١٢ / ٨٣ ، تفسير الرازى ٦ / ٣٦٥.

(٢) البحر المحيط ٥ / ٢٣٤.



قهور لسلطانه ذليل لسيطرته .

وهذا تعظيم لرب العزة وتهديد لهم عظيم .

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ومع هذا الاقتدار العظيم فربى على صراط مستقيم لا يجور ولا يظلم ، ينصر من توكل عليه واعتصم به . ويذل ويخزي من بغي واعتدى ، فهو بالمرصاد لكل ظالم باع .

وهو يهدي إلى الصراط المستقيم ويدل عليه .

ومن سار على الصراط المستقيم وصل إليه كما قال : ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيْ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمول : ١٩] ، وقال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّكِينِ وَمِنْهَا جَائِر﴾ [النحل : ٩] فعلى الله بيان السبيل المستقيمة . والسبيل القاصدة توصل إليه .

فهذا التعبير يجمع عدة معان منها :

- ١ - أنه لا يظلم ولا يجور .
- ٢ - وأنه يعاقب الظالم الجائر .
- ٣ - وأنه يدل على الصراط المستقيم .
- ٤ - وأن الصراط المستقيم يوصل إليه .

جاء في (الكساف) : « يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملکه ، لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به » ^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : « وهو تمثيل واستعارة لأنه تعالى مطلع على أمور العباد مجازاً لهم بالثواب والعقاب ، كافي لمن اعتمد به كمن

(١) الكشاف ٢/١٠٣ .

وقف على الجادة فحفظها ودفع ضرر السابلة بها ، وهو كقوله سبحانه :
 ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصَادِ﴾^(١).

وجاء في (تفسير الرازبي) : «أي وإن كان قادرًا لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب . . .»

(الثالث) أن يكون المراد : إن ربى يدل على الصراط المستقيم ، أي يحيث أو يحملكم بالدعاء إليه»^(٢).

* * *

﴿فَإِنْ تَوَلُّوْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَحْلِفُ رَبِّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ [هود: ٥٧]

فإن تولوا فقد أبلغتم رسالة ربى وأعذرت وأنتم تحملون عاقبة توليكم .
 وهددهم بإهلاكهم فقال : ﴿وَيَسْتَحْلِفُ رَبِّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وقد سبق أن ذكرهم بأنه استخلفهم بعد قوم نوح بعد إغراقهم فقال لهم : ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].
 ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾

«أي رقيب محيط بالأشياء علمًا فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم . . .»

ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي ، أي أنه سبحانه حافظ مستول على كل شيء . ومن شأنه ذلك كيف يضره شيء؟»^(٣).

(١) روح المعاني ٨٣/١٢

(٢) تفسير الرازبي ٦/٣٦٥

(٣) روح المعاني ١٢/٨٥



لقد قال هنا: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ بالتوكيد بـ(إنّ).

وقال في سورة سباء: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴾ [سبأ: ٢١] من دون توكييد ، ذلك أن المقام في سورة هود يستدعي التوكيد ، وذلك أن عاداً قالوا لنبيهم إن بعض آلهتهم اعتبراه بسوء ، فتحداهم وتحدى آلهتهم بقوله: ﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ [٦٠] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَا صَيْنَهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٥-٥٦].

ثم هددهم بالاستئصال بقوله: ﴿وَسَنَحْلَفُ رَبِّ قَوْمًا عَيْرَكُهُ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ فناسب ذلك أن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ بالتوكيد.

وَأَمَّا فِي سِيَّا فَالْمَقَامُ وَالسِّيَاقُ مُخْتَلِفَانُ ، فَقَدْ قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ۚ ۲۱ - ۲۰] سِيَّا :

وقد قدم الجار والمجرور ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ على عامله ﴿حَفِيظ﴾ للاختصاص، وذلك ليبين أنه لا يفوّت حفظه شيء على الإطلاق. في حين قال في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ أَنْهَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِم﴾ [الشورى: ٦] فأخر الجار والمجرور (عليهم) عن الخبر (حفظ) وذلك لأنّه لا داعي للتقديم ، فإنه ليس المقام مقام اختصاص ، فإن حفظه سبحانه لا يختص بهم ، بل ربنا على كل شيء حفيظ وليس حفيظاً عليهم فقط.

فناسب کا تعبیر موضعیہ۔

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبَنَجَيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيلٍ ﴾ [هود: ٥٨]

قال هنا : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ ذكر الذين آمنوا معه .

وقال في الأعراف في القصة نفسها : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِيمَانِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٢]

قال : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ولم يذكر صفة الإيمان ، ذلك أنه قال في الأعراف : ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِيمَانِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ذكر أنه أهلك الذين كذبوا وما كانوا مؤمنين . ومعنى ذلك أنه أنجى الذين آمنوا .

ولم يقل مثل ذلك في هود فناسب ذكر الذين آمنوا .

ومثل ذلك ما جاء في قصة نوح في الأعراف ، فإنه قال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا إِيمَانِنَا ﴾ [الأعراف : ٦٤]

فإنه لما ذكر أنه أغرق الذين كذبوا دل على نجاة المصدقين بالأيات وهم المؤمنون .

ثم كرر التنجية فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبَنَجَيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيلٍ ﴾ وقد قيل إن تكرير التنجية للتوكيد^(١) .

وقيل : إنه أراد أن يذكر التنجية من الهلاك أولاً ، ثم ذكر صفة العذاب الذي نجاهم منه . وذلك كما تقول : إنه نجاهم من الهلاك وكانت التنجية من عذاب غليظ .

وكما تقول : إنه نجاهم من الغرق ، وقد نجاهم من نهر شديد الانصباب .



جاء في (الكساف) : «إِنْ قَلْتَ : مَا مَعْنَى تَكْرِيرِ التَّنْجِيَةِ؟

قلت : ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ، ثم قال : ﴿ وَبَحَثَتْهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِظٍ ﴾ على معنى : وكانت تلك التجية من عذاب غليظ . وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السمووم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً .

وقيل : أراد بالثانية : التجية من عذاب الآخرة . ولا عذاب أغلظ منه وأشد»^(١) .

ويقوى القول بأن المقصود بالتجية الثانية إنما هي من عذاب الآخرة أن القرآن وصف عذاب الآخرة بأنه عذاب غليظ في عدة آيات ، ولم يرد هذا الوصف لعذاب آخر .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِيهِ عَذَابٌ غَلِظٌ ﴾ [إبراهيم : ١٧] وهو في الكلام على عذاب الآخرة .

وقال : ﴿ نُمْتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] .

وقال : ﴿ فَلَنُبَتَّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدْيَقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِظٍ ﴾

[فصلت : ٥٠]

ووصف ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد فقال : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

وذلك كله مما يقوى أن المقصود بالعذاب الغليظ إنما هو عذاب الآخرة .

ومن لطيف التناظر في التعبير أنه كما كرر التجية كرر اللعنة عليهم في



الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الْأُنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةُ﴾ [هود: ٦٠].

وهو تناظر جميل ، فذكر التنجية للمؤمنين مرتين وذكر اللعنة على الكافرين مرتين .

وهو مما يقوى أيضاً أن التنجية الأولى من الهلاك في الدنيا ، وأن التنجية الثانية من عذاب الآخرة ، وذلك أنه ذكر لعتتين: لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة. والله أعلم .

وقال ههنا: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ بتضعيف عين الفعل ، وقال في الأعراف في القصة نفسها: ﴿فَانْجَحَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [٧٢].

وقد ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) الفرق بين استعمال هاتين المفردتين في القرآن الكريم. فقد ذكرنا أن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجى) للتثبت والتمهل ، ويستعمل (أنجى) للإسراع في النجاة ، فإن (أنجى) أسرع من (نجى) في التخلص من الشدة والكرب^(١). وقد ذكرنا بناء كل من هذين الفعلين ودلالته الصرفية^(٢).

فاستعمل في الأعراف (أنجى) واستعمل في هود (نجى) ، ذلك أن القصة في هود كانت كأنها استكمال لما ورد في الأعراف . ومعنى ذلك أن اللبث في هود أطول مما في الأعراف ؛ لأن ذلك كان بعد الأعراف فشمل الزمانين فحسن ذلك استعمال (نجى) في هود .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن المذكور من القصة في هود يدل على مكث أطول في قومه مما في الأعراف ، فكان الجدال بينهما أطول

(١) انظر بлага الكلمة في التعبير القرآني ٧٤.

(٢) المصدر السابق ٦٥ .



والمحاورة أكثر . فناسب ذلك أيضاً استعمال (نجى) في هود و (أنجى) في الأعراف .

وقال : ﴿بِرَحْمَةِ مِنِّي﴾ ليدل على أنه ما كانت النجاة في الدنيا ولا في الآخرة إلا برحمته منه سبحانه وليس ذلك بعملهم فقط ، فإن العمل لا ينجي وحده لولا رحمة الله .

* * *

﴿وَتَلَكَ عَادٌ جَحَدُوا بِعَائِتٍ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَّهُ وَأَبَغُوا أَمْرَهُ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ﴾
 ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَقْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بَعْدَ لِعَادٍ قَوْمٌ هُودٌ﴾
 [هود: ٥٩ - ٦٠]

﴿وَتَلَكَ عَادٌ﴾

«إشارة إلى قبورهم وأثارهم ، كأنه قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا»^(١) .

﴿جَحَدُوا بِعَائِتٍ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَّهُ﴾

الجحود أن يُقرّ المرء بقلبه ولا يقرّ لسانه ، أو هو إنكار ما تعلم من الحق . قال تعالى في قوم فرعون : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] .

وقال في سيدنا محمد : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَائِتٍ اللَّهُ يَحْمَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] .

وعاد كذلك جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أنها حق وهو ظلم وعناد .

﴿وَعَصَوْا رُسُلَّهُ﴾ لقد أطلق معصيتهم ، فهم عصوا كل ما أمرتهم به رسليهم .



وهذه مرتبة أخرى بعد الجحود ، فالجحود أمر قلبي وقولي ، وهذا أمر سلوكي وعملي ، وهي مخالفة الأوامر على العموم .

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرًا كُلِّ جَبَارٍ عَنِيدٍ﴾

وهذا على النقيض من موقفهم من رسلهم ، فهم عصوا الرسل واتبعوا الجبارية .

وقال : (اتّبعوا) ولم يقل : (تبعوا) وذلك للمبالغة في اتّباع الجبارية .
ولم يقل : (واتّبعوا الجبارين) أو الجبارية ، وإنما أراد استغراق الاتّباع لكل جبار ، فلم يقتصر اتّباعهم لقسم من الجبارية .

وخص الجبارية الذين اتبعوهם بالعناد فقال : ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرًا كُلِّ جَبَارٍ عَنِيدٍ﴾ زيادة في المعصية ومخالفة أوامر الله .

ووصف الجبار بأنه عنيد مناسب للجحد الذي يأبى صاحبه أن يقر بلسانه ما يقر به قلبه عناداً واستكباراً .

وهذه مرتبة أخرى بعد المعصية . فالمعصية ألا تطبق الأوامر ، فقد تركها أو تفعل غير ذلك ، وأما عاد فلم يكتفوا بذلك بل اتبعوا أمر كل جبار عنيد .

فالاتّباع نقيض المعصية ، والجبارية المعاندون هم أعداء رسول الله .

إن هذه الآية تبين مقدار عنادهم وعتوهم من أكثر من جهة :

١ - فقد قال إنهم جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أنها حق .

٢ - وقال : ﴿إِنَّا يَأْتِيَنَا رَبِّهِمْ﴾ وهو من أسوأ الجحود ، إذ إنهم جحدوا بآيات ربهم الذي تفضل عليهم بالنعم وأحسن إليهم .

٣ - قال : ﴿وَعَصَوْا رُسُلَّهُ﴾ أي عصوا رسول ربهم المتفضل عليهم ، وهم عصوهم مع علمهم أنهم رسول الله .



٤ - وقال: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَّهُ﴾ ولم يقل: (عصوا رسوله) ليدل على أنهم عصوا كل ما جاء عن رسول الله ولم يتبعوا أحداً منهم. وهذا يدل على المبالغة في المعصية ، أو «لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسолов الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] ^(١) وعلى هذا يكون الجمع للدلالة على المبالغة في عصيانهم.

٥ - وقال: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ ولم يقل: (تبعوا) وذلك للمبالغة في اتباع الجبارية وإطاعة أوامرهم.

٦ - وقال: ﴿كُلُّ جَبَارٍ﴾ ولم يقتصر على اتباع جبار واحد ، بل ولا مجموعة من الجبارية ، بل اتبعوا كل جبار على سبيل العموم والاستغراق.

٧ - وقال: ﴿عَنِيدٌ﴾ ولم يقل: (معاند) فجاء بصيغة المبالغة ليدل على المبالغة في عناده. وذلك يدل على زيادة عتواهم وظلمتهم.

* * *

﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بَعْدَ لِعَادٍ قَوْمٌ هُوَدٌ﴾ [هود: ٦٠]

اللعنة: هي الطرد من رحمة الله. أي إن اللعنة أرسلت عليهم فهي تطاردهم وتتبعهم حيثما يكونون في هذه الدنيا ويوم القيمة ، فهي تلازمهم لا ترجى لهم رحمة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذه مبالغة في الطرد من رحمة الله ، فكما أنهم بالغوا في عنادهم ومعصيتهم وبالغوا في اتباع كل جبار عنيد بولغ لهم في هذا العقاب الأبدى الذي لا ينفك عنهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

جاء في (روح المعاني) : « ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير ، أي جعلت اللعنة لازمة لهم . وعبر عن ذلك بالتبغة للبالغة ، فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حسبما داروا ، أو لوقوعه في صحبة أتباعهم

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةُ﴾ أي وأتبعوا يوم القيمة لعنة أيضاً وهي عذاب النار المخلد .

حذف ذلك لدلالة الأول عليه وللإيدان بأن كلاً من اللعنين نوع برأسه لم يجتمع في قرن واحد بأن يقال (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة لعنة) . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ .

وعبر يوم القيمة بدل الآخرة هنا للتهديل الذي يتضمنه المقام^(١) .

لقد قال في هذه القصة : « ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةُ﴾ وقال في السورة نفسها في قصة فرعون : « ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةُ﴾ [٩٩] فلم يذكر (الدنيا) بعد كلمة (هذه) وذلك لأمور منها :

- ـ أنه ذكر شيئاً من أمور الدنيا في قصة هود فقال : ﴿يُرْسِلِ أَسَمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدَرَارًا وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُم﴾ ، ثم ذكر أن الله يستخلف قوماً غيرهم ، وذلك في الدنيا .

ولم يذكر شيئاً من أحوال الدنيا وأمورها في قصة فرعون ، فلم يذكر الدنيا .

- ـ أنه ذكر يوم القيمة وعقوبتهم فيه في قصة فرعون ولم يذكر شيئاً عن عقوبتهما في الدنيا فقال : ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبَئَسَ



أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ [هود: ٩٨] ثم قال: **﴿ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ أَلِفْدُ الْمَرْفُودُ** [هود: ٩٩].

فكان التأكيد على يوم القيمة وليس على الدنيا.

بخلاف قوم هود فإنه ذكر مجيء الله عليهم في الدنيا وأنه نجى هوداً والذين آمنوا معه فقال: **﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِنَجْيَنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مَنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِظٍ** [هود: ٥٨] فناسب ذكر الدنيا.

ألا ترى أنه لما ذكر عقوبة فرعون وجنوده في الدنيا في موطن آخر فقال: **﴿ فَأَخْذَنَاهُ وَجْهُنَوْمٍ فَنَبَذَنَاهُمْ فِي الْأَيْمَانِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةُ الظَّالِمِينَ** [القصص: ٤٠] ذكر الدنيا بعد كلمة (هذه) فقال: **﴿ وَأَتَبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنْ الْمَقْبُوحِينَ** [القصص: ٤٢].

فناسب ذكر الدنيا في قصة هود وإضمارها في قصة فرعون في هذه السورة ، أعني سورة هود.

٣ - هذا إضافة إلى أن قصة هود أطول من قصة فرعون في السورة ، فإن قصة هود من الآية الخمسين إلى الآية الستين (من ٥٠ - ٦٠). وإن قصة فرعون من الآية السادسة والتسعين إلى الآية التاسعة والتسعين (من ٩٦ - ٩٩).

فناسب ذكر (الدنيا) في قصة هود مناسبة لطول القصة ، وعدم ذكرها في قصة فرعون مناسبة للإيجاز فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من جهة.

قد تقول : لقد قال هنا: **﴿ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ** ببناء الفعل (أتبعوا) للمجهول.



وقال في سورة القصص في قصة فرعون: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الْأُدُنِيَا لَغَنَّكَةً﴾ [القصص: ٤٢] ببناء الفعل للمعلوم وإسناده إلى ضمير الجماعة للتعظيم (أتبعناهم) فما السبب؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب منها:

١ - أن كل آية مناسبة لبداية السورة التي وردت فيها.

فقد قال في بداية سورة هود: ﴿الرَّ كَتَبَ أَحِكَمَتْ إِيمَانُهُمْ ثُمَّ فُضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ بالبناء للمجهول.

وقال في بداية سورة القصص: ﴿نَتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبِيًّا مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ بإسناد الفعل (نتلو) إلى ضمير المتكلّم للتعظيم.

فناسب كل تعبير بداية السورة التي ورد فيها.

٢ - أن سياق القصة في سورة القصص إنما هو في الإسناد إلى ضمير التعظيم ، فقد قال: فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم (٤٠) ، وجعلناهم أئمة (٤١) ، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة (٤٢) ، ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس (٤٣) فأسند الإهلاك إلى ضمير التعظيم.

وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (٤٤) ولكننا أنشأنا قرونًا (٤٥) ، وما كنت ثاوياً في أهل مدین تلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين (٤٥) ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا (٤٦).

فناسب ذلك إسناد الفعل إلى ضمير المتكلّمين (أتبعناهم).

وأما السياق في سورة هود فهو في الكلام على الغائب ، فقد قال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِإِيمَانِ رَبِّهِمْ وَعَصَمُوا رُسُلَّهُمْ﴾ ولم يقل: جحدوا بآياتنا ، ولا عصوا رسالنا.



وقال : ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ولم يقل : (كفروا بنا) ولا (كفرونا).

ف nanopas ذلك قوله : ﴿وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ بالبناء للمجهول.

٣ - إن ضمائر التعظيم لله البارزة والمستترة في القصة في سورة القصص واحد وثلاثون ضميراً (٣١).

وفي قصة هود أربعة ضمائر.

ف nanopas ذلك إسناد الفعل في القصص إلى ضمير التعظيم من هذه الجهة .

٤ - قصة موسى في القصص أطول من قصة هود في سورة هود . فإن قصة موسى أربع وأربعون آية ، من الآية الثالثة إلى الآية السادسة والأربعين .

وأما قصة هود فهي إحدى عشرة آية ، من الآية الخمسين إلى الآية ستين .

وإن (أتبعناهم) أطول من (أتبعوا). فإن (أتبعناهم) ثمانية أحرف ، وإن (أتبعوا) خمسة أحرف .

ف nanopas التعبير الذي هو أطول القصة التي هي أطول ، والذي هو أقل القصة التي هي أقصر .

ف nanopas كل تعبير موضعه من كل جهة .

* * *

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾

ال فعل (كفر) يتعدى بحرف الجر وبنفسه .



فيقال : (كفر بالله) متعدياً بحرف الجر وهو الباء . والكفر هنا نقىض الإيمان .

ويقال : (كفر ربه) بتعديه إلى المفعول بنفسه وذلك يفيد معينين :

المعنى الأول : كفران النعمة ، وهو نقىض الشكر .

والآخر معناه الجحود وهو نقىض الإيمان .

فهم جحدوا ربهم وجحدوا نعمه . جاء في (روح المعاني) في قوله :

﴿أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ : «أي بربهم أو كفروا نعمته ولم يشكروها بالإيمان أو جحدوه» ^(١) .

* * *

﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٌ هُودٌ﴾

(قوم هود) عطف بيان لعاد أو بدل منه ، ذكر زيادة في التوضيح والتعيين ، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَكَ وَزِيرَاهُ﴾ [الفرقان: ٣٥] فذكر هرون زيادة في التنصيص مع أنه قد يستغني عن ذكره ويكتفي بذكر الأخوة كما قال سبحانه : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبُوءَ الْقَوْمَيْكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧] ولم يذكر هرون .

وقيل إن عاداً «عادان : الأولى القديمة التي هي قوم هود ، والقصة فيهم ، والأخرى هي إرم» ^(٢) .

وقيل أيضاً : إن عاد إرم هي عاد هذه ، وهم قوم هود ، وهي عاد الأولى ^(٣) .

(١) روح المعاني ١٢ / ٨٧.

(٢) الكشاف ٢ / ١٠٤ .

(٣) انظر فتح القدير ٥ / ٤٢٢ .



وإنما ذكر (قوم هود) زيادة في المبالغة والتأكيد.

وكرر حرف التنبية (ألا) مرتين زيادة في ذمهم والتنبية على سوء مآلهم.

جاء في (البحر المحيط): «ثم كرر التنبية بقوله: (ألا) في الدعاء عليهم تهويلاً لأمرهم وتفظيعاً له وبعثاً على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم»^(١).

ومن الطريف في هذه الآية أنه كرر اللعنة مرتين «في هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ» ، وذكر الدنيا مرتين: مرة باسم الإشارة (هذه) ، ومرة بالاسم الصريح ، وكرر عاداً مرتين ، وكرر (ألا) مرتين ، ودل على عاد مرتين: مرة باسمهم ومرة بذكر أنهم قوم هود.

وهو من لطيف التعبير.

* * *

(١) البحر المحيط ٥/٢٣٦.



قصة صالح

وردت هذه القصة في الأعراف وهو د والحجر والشعراء والنمل وفصلت والذاريات والممر والفجر والشمس.

وهي كما ذكرنا في قصتي نوح وهو د ليست مكررة ، بل يذكر في كل موضع جانب لم يذكر في الموضع الأخرى ، وقد يركز على أمور أو على أمر بحسب ما يتضمنه السياق وما يراد أن يركز عليه .

١ - فقد دعا صالح قومه ثمود في الأعراف إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم : ﴿يَنْقُرُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف : ٧٣].

وهذا ما ورد في السورة على لسان أكثر الأنبياء ، فقد ورد ذلك على لسان نوح وهو د صالح وشعيب .

وذكر لهم آية تدل على صدقه وأنه رسول من عند الله وهي الناقة ، وسمها ناقه الله لأنها لا تعود لأحد وإنما هي الله أوجدها ربنا إيجاداً ، فقد أخرجها من صخرة ولم تلدتها ناقه . وحذرهم من التعرض لها بسوء وإلا أخذهم عذاب أليم .

وذكرهم بنعم الله عليهم فإنه بوأهم في الأرض بعد عاد يتخذون من سهولها قصوراً وينحثرون الجبال بيوتاً .

ولم يذكر ذلك في موضع آخر ، وإنما يذكر جانباً واحداً من هذه النعم . فقد ذكر أنهم ينحثرون من الجبال بيوتاً في سوري الحجر

والشعراء ، ولم يذكر اتخاذ القصور من السهول .

وكان الجدال بين الملاّ الذين استكروا من قومه وبين المستضعفين من المؤمنين ، ولم يواجهوا صالحًا بكلام أو جدال ، فقد ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ أَسْتَكَنَّ بَرُوًا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنَّقْلَمُونَ أَنْتَ صَنَلِحَاهُ مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ فَالْأَوَّلُ إِنَّا بِمَا أَرْسَلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾^{٧٥} ﴿ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَنَّ بَرُوًا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦] .

فعقرروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ثم تحدّوا صالحًا : ﴿ وَقَالُوا يَصْنَلِحُ أَنْتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] .

٢ - وأما في سورة هود فإنه دعاهم أيضًا إلى عبادة الله وتوحيده ، ونحو ذلك فعل نوح وهو داعي شعيب ، ثم قال لهم إنه أنساهم من الأرض وجعلهم عُمارًا لها .

فأجابوه قائلين : ﴿ يَصْنَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِي نَا مُرْجَأً قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَنَا أَنْ تَبْدِ مَا يَعْبُدُ أَبَانُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مَمَاتَدُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ فكان الجدال بينه وبين قومه .

وأما في الأعراف فقد كان الجدال بين المستكبرين من قومه وأتباع صالح .

ثم ذكر لهم الآية التي تدل على صدقه وهي الناقة ، وحذرهم من أن يمسوها بسوء .

فعقروها فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

٣ - وأما في سورة الحجر فإنها المرة الوحيدة التي ذكر عنهم أنهم أصحاب الحجر فذكر محل سكناتهم وهو الحجر .



والحِجْر: هو موطن ثمود قوم صالح ، وهو أرض بين الحجاز والشام^(١) .

ولم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله ، وإنما ذكر تكذيبهم المرسلين ، فكانها استكمال لما ورد في الأعراف وهود ، فقد دعاهم في الموضعين السابقين إلى توحيد الله وعبادته والتصديق بنبوته وأنه جاءهم بالأية الدالة على صدقه. وقال هنا عنهم: إنهم كذبوا المرسلين وأعرضوا عن الآيات.

فهي مرحلة بعد التبليغ ، ولم يذكر الآيات ولا نوعها أو ما هي؟ كما لم يذكر اسم نبيهم ولا اسم القوم ، فلم يذكر اسم ثمود ولا صالح ، كما لم يذكر الناقة . وذكر أنهم كذبوا المرسلين فأخذتهم الصيحة مصبعين .

وهذا ما جاء في شأنهم في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنَّهُمْ مَا يَنْتَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٧﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا إِمِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَخْذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤ - ٨٠]

لقد ذكر هنا أنه آتاهم آياته بالجمع ، ولم يقل: (آية) بالإفراد ، وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه الآيات مجموعة في هذه القصة.

وأما في الموضع الأخرى فإنه يذكرها (آية) بالفرد (انظر الأعراف ٧٣ ، هود ٦٤ ، الشعراة ١٥٤) أو يذكر الناقة. وذلك - والله أعلم - أنه قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فذكر مرسلين ولم يذكر رسولًا واحدًا. والمرسلون لهم آيات لا آية ، فناسب أن يقولها بالجمع.

(١) انظر البحر المحيط ٥/٤٦٣ ، الكشاف ٢/١٩٤.



قد تقول : ولكنه قال في الشعراء أيضاً : ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لكنه ذكر آية وذكر الناقة .

فقول : إن السياق مختلف ، فإنه في سورة الحجر لم يذكر رسولاً معيناً ، وإنما ذكر الرسل على العموم ، في حين أن الكلام في الشعراء على صالح ، فقد قال : ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ صَلَحُ أَلَا تَنْقُونَ﴾ ، فكان المناسب أن يذكر آية صالح لأن الكلام عليه وحده .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿وَإِنَّنَّهُمْ أَيَّتَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ أَيَّتَنَا كُلُّهَا فَكَذَبَ وَأَيَّنَ﴾ [طه : ٥٦] فقال : (كلها) .

وكذا جاء في سورة القمر ، فقد قال : ﴿كَذَبُوا بِعِيَاتِنَا كُلُّهَا فَأَخْذَنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْنَدِرٍ﴾ [القمر : ٤٢] .

والكلام على فرعون في الموضعين ؛ وذلك لأن آيات موسى كثيرة ، وقد ذكر ربنا أنها تسع آيات^(١) . بخلاف آيات صالح فإنها آيات متعلقة بالناقة من حيث إنها خرجت من صخرة ، وإنها كانت تسقي القبيلة كلها باللبن ، وغير ذلك^(٢) .

مناسب ذكر (كلها) في آيات موسى .

٤ - وأما ما في سورة الشعراء فإنه ورد فيها ما ورد في عموم الرسل ، فقد قال : ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ صَلَحُ أَلَا تَنْقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥﴾ فَأَنَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونَ﴾ .

وهو ما قاله عموم الرسل لأقوامهم في هذه السورة كما ذكرنا في

(١) انظر الإسراء ١٠١ ، التمل ١٢ .

(٢) انظر تفسير الرازي ١٥٧ / ٧ .

قصتي نوح وهود. فإنهم لم يأمرهم بتوحيد الله وعبادته ، وإنما أمرهم بتقوى الله وإطاعة رسولهم . وهي مرحلة بعد التبليغ بتوحيد الله وعبادته.

فبعد توحيد الله وعبادته أمرهم بتقوى الله وطاعة رسوله .

وذلك ما قاله صالح لقومه أيضاً .

ثم ذكر لهم من النعم ما لم يذكره في الموضع الأخرى ، فقد قال: ﴿أَتَرَكُونَ فِي مَا هَنَّا إِمْرَاتٍ ﴿١٤٣﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنَوْنَ ﴿١٤٤﴾ وَزَرْوَعَ وَنَخْلٍ طَعْنَاهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَتَحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩ - ١٤٦] فذكر لهم الأمان والفراحة في السكن ورفاهية العيش في الزروع والشمار والماء .

فقالوا له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقله .

وطلبوه منه آية تدل على صدقه ، فقال لهم: إن آية صدقه هي الناقة ، وإن لها يوماً تشرب فيه الماء ، ولهم يوم يشربون فيه الماء .

وهذا أول موضع يذكر فيه أنَّ الماء بين القوم والناقة لكل منهما يوم: وقد ذكر في الأعراف وهو الأكل وقال لهم: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣ ، هود: ٦٤]

وذكر هنا الشرب .

وذكر الشرب أيضاً في سورة القمر وسورة الشمس ولم يذكر الأكل .

والخط التعبيري في القرآن أنه يقدم الأكل على الشرب حيث اجتمعا ، سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠]

وقوله في الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِئُوا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَامِ الْحَالِيةِ﴾



وقد قدم الأكل في هذه القصة على الشرب مع أنهما لم يجتمعا .
وهذا من لطيف التعبير .

ثم حذرهم من أن يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .
فعקרוها فأصبحوا نادمين . ولم يذكر نوع العقوبة التي حلت بهم ،
وإنما ذكر العذاب على العموم فقال : « فَأَخْذُهُمُ الْعَذَابُ » ولم يذكر
صيحة أو رجفة أو غيرهما .

٥ - وأما في سورة النمل فقد ذكر أنه أرسل إلى ثمود صالحًا وأمرهم
بعبادة الله فإذا هم فريقان متخاصمان .

ولم يذكر من هذان الفريقان وما شأنهما؟ ولكن المقام يدل على أنهما
فريق مؤمن وفريق كافر .

ولم يطلبوا منه آية ، وإنما ذكر تواطؤ تسعة رهط من قومه على قتلـه
وأهلـه .

ولم يرد هذا في موضع آخر من القرآن الكريم . وهو أنسـب موطنـ
لذكر ذلك فإنه كان نهاية الاختصار .

ثم ذكر عاقبة هذا المكر أن الله دمرـهم وقومـهم أجمعـين ، ولم يذكر
كيف دمرـهم ولا نوع العقوبة التي حلـت بهـم .

٦ - وأما في فصلـت فالقصة موجـزة ، فإـنه لم يـذكر إـلا أنه هـداهمـ
فاستـحبـوا العـمى عـلى الـهدـى . ولم يـذكر أنه دـعاـهم إـلى شيءـ .

ثم ذـكر أـن الصـاعـقة أـخذـتهمـ . وهذا أـول مـوضـع يـردـ فيه ذـكر الصـاعـقةـ
في هـذه القـصـةـ

وهـذا ما وـردـ منهاـ في هـذه السـورـةـ :

« وَمَا تَمُودُ فَهـدـيـتـهـمـ فـاسـتـحـبـوا العـمى عـلى الـهدـىـ فـأـخـذـتـهـمـ صـاعـقةـ الـعـدـابـ أـهـمـونـ



بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ أَمْتَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ [فصلت: ١٧ - ١٨]

٧ - وفي الذاريات ذكر أنه قيل لشmod: تمعوا حتى حين ، فعtoo عن أمر ربهم . ولم يذكر من القائل ولا إلى أي شيء دعاهم ، وذكر أنهم عtoo عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

وهذا ما ورد منها :

﴿وَفِي شَمْوَدَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمْنَعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخْذَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾ [الذاريات : ٤٣ - ٤٥]

٨ - وأما في سورة القمر فإنه قال : ﴿كَذَّبَتْ شَمْوَدُ بِالثُّدُر﴾ [القمر : ٢٣] . وهذا هو افتتاح عموم القصص في هذه السورة ، فإنها تفتح بتکذيب الأقوام لرسلهم ابتداء من قوم نوح فعاد فشmod فقوم لوط وفرعون كما ذكرنا .

ثم ذكر أنهم قالوا عن نبيهم الذي لم يذكر اسمه إنه كذاب أشر ، ولم يرد مثل هذا الوصف له في موضع آخر من القرآن ، فتوعدهم ربنا بقوله : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدَامِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِر﴾ [القمر : ٢٦] .

ثم ذكر أنه أرسل الناقة فتنـة لهم . وقال لهم إن الماء قسمة بينهم كل شرب يحضره أصحابه . فنادوا صاحبـهم فعـرـ النقـةـ . ثم ذـكـرـ أنه أرسـلـ عليهم صـيـحةـ وـاحـدةـ فـكـانـواـ كـالـهـشـيمـ الـذـيـ يـتـبـقـىـ مـنـ صـنـعـ الـحـظـيرـةـ الـتـيـ تـصـنـعـ لـلـدـوـابـ .

ولم يرد مثل هذا في موضع آخر من القرآن .

قال تعالى :

﴿كَذَّبَتْ شَمْوَدُ بِالثُّدُر﴾ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبْشِرَا مَنَا وَحْدًا نَبْعِدُهُ إِنَّا إِذَا لَفَّيْنَا ضَلَالٍ وَسُعْرًا ﴿٢٤﴾ أَلْفَى الْذِكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنَنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدَامِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِر﴾

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةَ فَنَنَّا لَهُمْ فَأَرْتَقْبُهُمْ وَأَصْطَلِبْهُمْ ١٧ وَنَيَّبْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ
مُتَضَرِّعٌ ١٨ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَنَعَطَهُمْ فَعَرَ ١٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِرِ ٢٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَجَدَهُ فَكَانُوا كَهْشِيرَ الْمُحْنَظِرِ ٢١ [القمر : ٢٣ - ٣١]

٩ - وأما في سورة الفجر فلم يذكر عن ثمود إلا أنهم جابوا الصخر بالواد ، أي قطعوه ونحوه .

كما أنه أول مرة ذكر الوادي الذي ينحتون فيه ، ولم يذكر عقوبة لهم سوى أن جمعهم مع عدة أقوام بقوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطًا عَذَابٍ »

[الفجر : ١٣]

١٠ - وأما في سورة الشمس فذكر أن ثمود كذبت بسبب طغيانها ، وذكر أن أشقي القوم انبعث ، والظاهر أنه انبعث لعقر الناقة ، وأن رسولهم حذرهم فقال لهم : « نَاقَةً أَلَّهُ وَسُقِينَهَا » [الشمس : ١٣] أي اتركوها ولا ت تعرضوا لها . ولم يزد على ذلك فكذبواه فعقروها .

وذكر العذاب بصورة لم يذكرها في بقية المواقع فقال : « فَدَمِدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّنَهَا » [الشمس : ١٤] أي أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم ^(١) .

فانت ترى أن القصة ليست مكررة ، وإنما يذكر في كل موضع ما يناسب السياق الذي وردت فيه . وأنه يذكر في كل موضع منها جانبًا لم يذكر في المواقع الأخرى .

الدعوة:

إن أول ما دعا صالح قومه إلى عبادة الله وتوحيده فقال : « يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » ثم ذكر لهم البينة التي جاءتهم وذكرهم بالنعم التي

(١) انظر البحر المحيط ٤٨٢ / ٨



أنعم الله عليهم بها ، وذلك في الأعراف . ٧٣

وأما في هود فلم يكتف بذلك وإنما طلب منهم بعد عبادة الله وتوحيده وتذكيرهم بنعمته عليهم بالإيجاد وإعمار الأرض أن يستغفروا ربهم ثم يتوبوا إليه فقال : ﴿ وَإِن تَمُودُ أَخَاهُمْ صَلِّحًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّكُمْ بِمُحِيطٍ ﴾ [هود: ٦١] .

فهي مرحلة لاحقة بعد التبليغ الأول .

وأما في سورة الحجر فقد ذكر تكذيبهم ، ولم يذكر مواجهة بينه وبين قومه ، وإنما هو إخبار عن هؤلاء القوم .

وأما في الشعراء فإنه طلب منهم أمراً آخر ، فقد قال لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي ﴾ وهو ما طلبه الرسل من أقوامهم .

(انظر الشعراء ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٧٩) ثم ذكرهم بالنعم ، ولم يعد عليهم الأمر بعبادة الله وتوحيده .

وأما في النمل فقد قال : إنه أرسل صالحًا إلى ثمود بعبادة الله فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا إِنَّ شَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِّحًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [النمل: ٤٥] .

فاختصم الفريقان في هذا الأمر ، فدعاهم إلى الاستغفار وحضهم على ذلك لعل الله يرحمهم ، فقال لهم : ﴿ قَالَ يَنْقُومُ لِمَ سَتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦] .

وأما في سورة فصلت فإنه لم يذكر دعوة ولا مواجهة ، بل هو إخبار عن غائب .

ونحو ذلك في الذاريات ، فإنه لم يرد فيها إلا تحذيرهم من عاقبة ما هم فيه ، إذ قيل لهم : ﴿ تَنْعَمُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الذاريات: ٤٣] .



وفي سورة القمر ذكر تكذيبهم بالنذر ولم يذكر دعوة ولا مواجهة .
ولم يذكر في الفجر سوى أنهم جابوا الصخر بالواد .

وأما في سورة الشمس فقد ذكر تكذيبهم بسبب طغيانهم ، ولم يذكر دعوة لهم ولا مواجهة ، وإنما طلب أن يتركوا ناقة الله وسقياها .

تذكيرهم بالنعم:

وكذلك التذكير بالنعم لم يكن على نمط واحد :

١ - ففي سورة الأعراف بعد أن ذكرهم بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد وفي هذا تحذير لهم أن يسلكوا سبيلهم ذكرهم بنعم الله بأن بوأهم في الأرض ، أي مكنهم منها وهياها لهم يتذبذبون من سهولها قصوراً وينحثرون الجبال بيوتاً . ثم طلب منهم أن يذكروا نعم الله عليهم على العموم فقال لهم : ﴿وَآذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلُفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنَحَّذُونَ مِنْ شَهْوَلَهَا قُصُورًا وَتَنَحِثُونَ الْجِبَالَ بَيْوَاتًا فَآذْكُرُوا إِلَهَكُمْ أَلَّا إِلَهَ وَلَا نَعْشَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] .

٢ - وأما في هود فقد ذكر أنه أنشأهم من الأرض وجعلهم عمارة لها ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ .

وهذه النعم المذكورة في هود تختلف عما في الأعراف ، فقد توسع في ذكر النعم في الأعراف وأجملها في هود .

٣ - وأما في الحجر فقد ذكر أنهم : كانوا ينحثرون من الجبال بيوتاً آمنين ، فذكر الأمان زيادة على اتخاذ البيوت . وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها الأمان .

ومن الملاحظ أنه قال هنا : ﴿وَكَانُوا يَنَحْثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيْوَاتًا آمِنِينَ﴾ بذكر (من) ، في حين قال في الأعراف : ﴿وَتَنَحِثُونَ الْجِبَالَ بَيْوَاتًا﴾ فلم يذكر

(من) ، وذلك أنه توسع في ذكر النعم في الأعراف ، وذكر ما لم يذكره في الحجر ، فقال : إنه بوأهم في الأرض ، أي مكن لهم فيها وهياً لهم فيها مكاناً ، وأنهم يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتاً ، فقال إنهم يتخذون من سهولها قصوراً ولم يقل : (يتخذون في سهولها قصوراً) أي يجعلون من سهولها قصوراً ، وهذا توسع في الإعمار . بخلاف ما لو قال : (تتخذون في سهولها قصوراً) أي يجعلون في السهول قصوراً ، وهذا يمكن أن يقال في بضعة قصور ، بخلاف قوله : (اتخذت من السهول قصوراً) أي جعلت السهول قصوراً . ألا ترى فرقاً بين قوله : (اتخذت في الأرض داراً) و(اتخذت من الأرض داراً) فالتعبير الأول قد يفيد أنك بنيت في الأرض داراً ولا يفيد أنك جعلتها كلها داراً ، بخلاف قوله : (اتخذت من الأرض داراً) أي جعلتها داراً كلها .

ثم قال : ﴿وَنَنْجِحُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا﴾ أي كان الجبال كلها ينحتونها بيوتاً ، وهذا توسع في العمران ، وهو أوسع من قوله : ﴿وَكَانُوا يَنْحِنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتًا﴾ بـ (من) التي قد تفيد التبعيض . ولذا ذكرهم بآلاء الله عليهم في الأعراف فقال : ﴿فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ .

فإنه توسع في ذكر عمارة الأرض في الأعراف ما لم يتسع في الحجر ، غير أنه زاد الأمان في الحجر .

٤ - وأما في الشعراء فقد ذكر نعماً أخرى عددها عليهم ، فقد ذكر الأمان وذكر الجنات وعيون الماء والزروع والتتوسيع والفراهة في السكن فقال : ﴿أَتُرَكُونَ فِي مَا هَنَّاءَ إِمْنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ ﴿١٤٧﴾ وَزَرْوَعَ وَنَخْلٍ طَلْعَهَا حَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَنَنْجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء : ١٤٦ - ١٤٩] .

فقد ذكر الأمان في المكان ، والسعنة في الطعام والشراب ، والفراهة



في السكن ، وهو ما لم يذكر فيما سبق من النعم.

ولم يذكر في سور بعد ذلك نعمًا عددها عليهم سوى أنه قال في الفجر : ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي قطعوه ونحوه .

فأنت ترى أنه لم يكرر ذكر النعم أو يذكرها في موضع واحد .

البينة على صدقه:

ذكر الآية الدالة على صدقه وهي الناقة التي أخرجها الله من الصخرة «وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتיהם بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم . . . فطلبوها منه أن يخرج لهم منها ناقلة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن بها وليتبعنـه . فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم اندصعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنبيها بين جنبيها كما سأـلوا . . . فأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعـته بين أظهرـهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعـه لهم يوماً . وكانوا يشربونـ لـبنـها يوم شربـها ، يحتلـبونـها في مـلـائـونـ ما شـاؤـوا منـ أـوعـيـهمـ وأـوـانـيـهمـ»^(١) .

١ - فقد ذكرها في الأعراف وسمـها بيـنةـ وآيةـ فقالـ : ﴿فَدَجَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ إِيمَانٌ﴾ [الأعراف : ٧٣] وطلبـ منهمـ أنـ يتـركـوها تـأكلـ في أـرضـ اللهـ وـلاـ يـمسـوها بـسوءـ وـإـلاـ أـخـذـهمـ عـذـابـ أـلـيمـ .

ولـمـ يـسمـهاـ بيـنةـ فيـ غـيرـ هـذاـ المـوضـعـ .

وقدـ أـخـبرـهمـ عنـ مـجيـءـ هـذـهـ الـآـيـةـ اـبـتـداءـ وـلـمـ يـذـكـرـ أـنـهـ طـلـبـواـ مـنـهـ أـنـ يـأـتـيـ بـآـيـةـ دـالـةـ عـلـىـ صـدـقـهـ .

(١) تفسـيرـ ابنـ كـثـيرـ ٢٢٨/٢ .

٢ - وأما في هود فقد سماها آية ، ولم يذكر أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بذلك ، وإنما قال لهم : ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ إِيمَانٌ﴾ . وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب قريب .

٣ - وأما في الحجر فقد ذكر عن أصحاب الحجر أنهم كذبوا المرسلين . وقال : ﴿وَإِنَّهُمْ لَا يَأْتِنَا﴾ [الحجر : ٨١] فذكر آيات ولم يقل آية . ولم يذكر هذه الآيات مع أنه ذكر في بقية سور أنها آية .

وليس في ذلك تعارض فإن الناقة آية وفيها آيات :

منها أنها خرجت من صخرة من غير أن تلدها أنتي ، وأنها كانت تدر باللبن الذي يسقي القوم كلهم في يوم واحد ، وأنها تشرب ماء البئر كله وهو يسقي القوم وإبلهم ومواشיהם .

٤ - وأما في سورة الشعراe فقد ذكر أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بأية إن كان من الصادقين (١٥٤) .

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه أنهم طلبوا منه آية فقال لهم : ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الشعراe : ١٥٥] .

وطلب منهم أن لا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم (١٥٦) .

وهذا أول موضع ذكر فيه الشرب ، وكان قد ذكر في مواضع سابقة الأكل .

كما أن هذا هو الموضع الوحيد الذي أضاف فيه العذاب إلى اليوم ووصفه بالعظم فقال : ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراe : ١٥٦] .

ففي سورة الشعراe ذكر أمورا لم يذكرها في بقية سور ، أو بدأ



بذكرها قبل ما بعدها من السور.

منها : أنهم طلبوا منه آية . ولم يذكر ذلك في الموضع الأخرى . وأنه ذكر شرب الناقة ، في حين أنه ذكر في السور السابقة الأكل .

وأنه أضاف العذاب إلى اليوم ووصفه بالعظم ، في حين أنه كان يصف العذاب في الموضع الأخرى فيقول : ﴿فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف : ٧٣] أو ﴿فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ فَرِيقٌ﴾ [هود : ٦٤] .

٥ - ولم يذكر آية أو ناقة في سورة النمل ولا فصلت ولا الذاريات .

٦ - ذكر في سورة القمر إرسال الناقة فتنة لهم ، ولم يذكر أن تلك آية ، ولا أنهم طلبوا منه آية ، وإنما كان ذلك من باب التوعيد لهم فقال : ﴿إِنَّا مَرْسَلُونَا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَّهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر : ٢٧] .

وذكر الشرب ولم يذكر الأكل فقال : ﴿وَبَيْتُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمٌ بَيْتُهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُّخْضَرٌ﴾ [القمر : ٢٨] .

٧ - لم يذكر شيئاً من ذلك في سورة الفجر .

٨ - في سورة الشمس ذكر أن رسول الله طلب منهم أن يتركوا ناقة الله وسقياها ، أي شربها .

ولم يذكر أن تلك آية ولا أنهم طلبوا منه آية .

الموقف :

١ - كان أشد المواقف المذكورة من الدعوة إنما هو ما ورد في الأعراف ، فقد دار جدال عنيف بين المستكبرين من قومه والذين استضعفوا من المؤمنين ، فقد ﴿قَالَ الْمَلَائِكَةُ أَسْتَكْبِرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَكَ صَنَلِحًا مَّثَرَ سَلْلُ مِنْ رَّبِّهِ قَالُوا



إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَبُوا إِنَّا إِلَى ذَيْهِ مَا أَمْنَثْمَ
إِلَيْهِ كَفِرُونَ﴿٧٦﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٦].

ولم يرد حوار أو جدال بين صالح وقومه سوى أنهم تحدوا صالحًا بعدما عقروا الناقة قائلين له: ﴿يَصَلِحُ أَثْنَانِنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف : ٧٧].

٢ - وأما في هود فقد كان الحوار بين صالح وقومه ، فقد قالوا:
 ﴿يَصَلِحُ فَدَ كُنْتَ فِي نَارٍ مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْهَنَا أَنْ تَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ إِلَيْهِ مُرِيبٌ وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالَ يَنْقُومُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بِئْسَأَ مِنْ رَبِّي وَإِنَّنِي مِنْهُ
رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنَّ عَصَيْتُهُ فَمَا تَرِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرِ ﴿٦٢﴾ وَيَنْقُومُ هَذِهِ
نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ أَيَّةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْشُوهَا إِسْوَءَ فَيَأْخُذُكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود : ٦٢ - ٦٤].

فععروها فأمهلهم ثلاثة أيام يقع بعدها العذاب عليهم ، فوقع ما توعدهم به .

وهذا الموقف أخف مما في الأعراف ، فقد قالوا في الأعراف: ﴿إِنَّا
إِلَى ذَيْهِ مَا مَنَثْمَ إِلَيْهِ كَفِرُونَ﴾.

ووهنا قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ فذكروا أنهم في شك .

٣ - لم يذكر مواجهة بينه وبين قومه في الحجر ، إلا أنه أخبر عنهم ربنا أنهم كذبوا المرسلين ولم يذكر مرسلًا بعينه ، وقال إنهم أعرضوا عن الآيات .

٤ - في الشعراء ذكر حوارًا بين صالح وقومه ، وقد عدد عليهم النعم فقالوا له: ﴿إِنَّا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من الذين سحرموا كثيراً حتى أثر على عقله .



وقالوا له أيضاً: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَنْتِ بِعَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

ولم يرد مثل هذا الحوار في موطن آخر.

٥ - في النمل ذكر أنهم طيروا به بعد نصح نبيهم لهم قائلاً: ﴿قَالَ يَقُولُونَ لِمَ سَتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّعَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْجِحُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

قالوا له: ﴿أَطَيَّزْنَا بِكَ وَبِمَ مَعَكَ﴾.

فرد عليهم قائلاً: ﴿طَرَبُوكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

ولم يزد الكلام بينهما على هذا.

ثم ذكر ما حاكوا له من مؤامرة لقتله وأهله.

وهذا إنما كان بعد مدة من التبليغ والأخذ والرد ذكرت في المواطن السابقة التي وردت فيها القصة.

ولا يناسب أن يكون هذا في أول الدعوة.

٦ - لم يذكر في سورة فصلت شيئاً بين صالح وقومه ، وإنما ذكر شيئاً عن حالهم فقال: ﴿وَمَآ تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحْبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

٧ - وكذلك في الذاريات فإنه قيل لهم: ﴿تَمَنَّوْا حَقَّ حِينٍ﴾ [الذاريات: ٤٣].

وذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم.

٨ - في القمر ذكر أن ثمود كذبوا بالنذر ، ولم يذكر مواجهة بينهم وبين نبيهم ، وإنما قال بعضهم لبعض: ﴿أَبْشِرَا مَنَا وَاحِدًا نَتَعَهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ [القمر: ٢٤].



واتهموه بأنه كذاب أشر ﴿أَمْلَقَ الْذِكْرُ عَيْهِ مِنْ بَيْنَنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَر﴾ [النمر : ٢٥].

ولم يرد مثل هذه الأقوال في نبيهم في أي موضع آخر. غير أنه لم تذكر هذه الأقوال في مواجهته وإنما ذكرت في غيبته.

وذكر في هذه السورة أنهم نادوا صاحبهم ليقرر الناقة فتعاطى السيف فعقرها ، فذكر أن العاقر واحد ، غير أنهم لما نادوه ليفعل ذلك كانوا مشتركين في الجريمة فعوقبوا جميعاً.

هذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه أنهم نادوا صاحبهم ليقررها ، فقد أسندا العقر إلى واحد ، في حين أنه في المواطن الأخرى أسندا العقر إلى الجميع قائلاً: ﴿فَعَقَرُوا الْنَّاقَةَ﴾ أو ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

٩ - ولم يرد في سورة الفجر شيء عن موقفهم من رسولهم.

١٠ - وأما في سورة الشمس فقد ذكر أنهم كذبوا بطبعيائهم ، وأنه انبعث أشقاها ، وأن نبيهم طلب منهم أن يتركوا الناقة وسقياها ، فكذبوا فعقوتها.

* * *

لِخَاتِمِهِ



- ١ - ذكر في سورة الأعراف أنهم أصابتهم الرجفة وهي الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم جاثمين.
- ٢ - وقال في سورة هود إنهم أصابتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وهي صيحة من السماء.
وَجَمَعَ الدِّيَارَ فِي الصِّحَّةِ وَأَفْرَدَهَا فِي الرِّجْفَةِ؛ لِأَنَّ الصِّحَّةَ يُبَلِّغُ
مَدَاهَا أَبْعَدَ مِنْ مَدِي الرِّجْفَةِ، وَلَذَا حَيْثُ ذُكِرَتِ الصِّحَّةُ جَمْعًا فَقَالَ:
(الديار). وَحَيْثُ ذُكِرَتِ (الرجفة) أَفْرَدَ الدَّارَ^(١).
- ٣ - وذكر في الحجر أنهم أخذتهم الصيحة.
- ٤ - ولم يذكر في الشعراء لا رجفة ولا صيحة وإنما ذكر العذاب وهو مطلق فقال: ﴿فَلَأَخْذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨].
- ٥ - وأما في النمل فلم يذكر شيئاً من ذلك وإنما ذكر التدمير على العموم فقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].
- ٦ - وقال في فصلت إنهم أخذتهم صاعقة العذاب الهون (١٧).
- ٧ - وقال في الذاريات إنهم أخذتهم الصاعقة من دون إضافة إلى

(١) انظر التعبير القرآني ٥٧ ، البرهان للكرماني ١٨٤ ، ٢٣٩ .



العذاب أو إلى غيره (٤٥).).

٨ - وقال في القمر إنه أرسل عليهم صيحة واحدة ذكر أنها واحدة.

٩ - وأما في الفجر فقد جمعهم مع عدة أقوام فقال فيهم جميعاً : «**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطًا عَذَابٍ**» [الفجر : ١٣].

١٠ - وأما في سورة الشمس فلم يذكر شيئاً من ذلك وإنما قال : «**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمَّمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنِبِهِمْ فَسَوَّنَهَا**» [الشمس : ١٤] أي أطبق عليهم العذاب مكرراً ، وإنه لم ينج منهم أحد فكانوا في العذاب سواء .
فذكر الرّجفة مرة واحدة وذلك في سورة الأعراف .

وذكر الصّيحة ثلاث مرات : مرة في سورة هود ، ومرة في الحجر ، ومرة في القمر .

وذكر الصّاعقة مرتين : مرة في فصلت ، ومرة في الذاريات .
ولا تناقض في ذلك أو اختلاف ، فإن الرّجفة في الأرض والصّيحة من السماء ومعها الصّاعقة .

جاء في (روح المعاني) : «الصّيحة أي صيحة جبريل أو صيحة من السماء فيها كل صاعقة وصوت مفزع ... فأخذتهم الرّجفة ... ولعلها وقعت عقب الصّيحة»^(١).

وأشدهن الرّجفة لأنها زلزلة وهي تباشرهم أجمعين وتباشر مساكنهم .
وذكرها لأنه ذكر استكبارهم ولأنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وتحدوا نبيهم ، قال تعالى : «**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْكِلُحُ أَتَتْنَا يِمَاتَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**» [الأعراف : ٧٧].

وتليها الصّيحة ؛ لأن الصّيحة قد لا يسمعها الأصم أو من وضع سداداً

(١) روح المعاني ٩٢ / ١٢



في أذنيه ، بخلاف الرجفة التي تعم الجميع.

وذكر الصيحة هنا لأن موقفهم أخف ، ذلك أنه لم يذكر في هود غير العقر .

ففي الأعراف ذكر العقر والعتو عن أمر ربهم والتحدي ، وليس في هود أو غيرها نحو ذلك .

ولم يذكر في الحجر غير الإعراض عن الآيات .

أما في القمر فلم يذكر غير العقر .

ثم تليها الصاعقة ؛ لأن الصاعقة قد تحل في مكان دون آخر وإن كانت عمتهم أجمعين . وذلك أنه لم يقل في فصلت إلا إنه هدأهم فاستحبوا العمى على الهدى . ولم يذكر عقر الناقة .

وفي الذاريات قال : ﴿فَعَتوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات : ٤٤] ولم يذكر عقرًا أو غيره .

فذكر في كل موضع جانبًا من العقوبة يناسبه .

النجاة:

١ - لم يذكر في الأعراف نجاة وإنما قال : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِحِينَ﴾ وهو المناسب لذكر الرجفة التي تعم الجميع .

والسياق يدل على نجاة الذين آمنوا كما هو بين .

٢ - ذكر في هود أنه نجى صالحًا والذين آمنوا معه .

٣ - لم يذكر نجاة في الحجر ولا في الشعراء .

٤ - ذكر في النمل وفصلت أنه نجى الذين آمنوا وكانوا يتقوون .

ولم يذكر نجاة في غير ذلك من المواقع .



ومن الملاحظ أنه لم يذكر أن رسولهم دعا بطلب النجاة لا له ولا لمن آمن معه . كما أنه لم يدع على قومه .

ولم يرد لأهله ذكر ولا موقفهم من الدعوة ، وذلك نظير ما مرّ في قصة هود .

* * *

﴿ وَإِنْ شَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ١١
كُنْتَ فِينَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْهَنَا أَنْ تَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا وَإِنَّا لِفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
مُّرِسِّبٌ ﴾ ١٢﴾ قَالَ يَقُولُمْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَنِّي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرِنِي مِنْ اللَّهِ إِنَّ عَصِيَّنِهِ مَا تَزَيَّدُونِي غَيْرُ تَحْسِيْرٍ ﴾ ١٣﴾ وَيَنْقُولُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ
ءَابِيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَإِنْ أَخْذُكُمْ عَذَابٌ فَرِبِّي
فَعَقِرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ ١٤﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مَا نَبَيَّنَنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ أَمْنَوْا مَعْهُمْ رِحْمَةً مِنْكَا وَمِنْ خَرْزِي يَوْمِيذِي إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ١٥﴾ وَلَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوْهُمْ جَثَمِينَ ﴾ ١٦﴾
كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَا إِنْ شَمُودًا كَفُرُوا رَبَّهُمْ لَا بَعْدَ إِشْمُودَ ﴾ [هود: ٦١ - ٦٨]

* * *

﴿ وَإِنْ شَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ هُوَ
أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

﴿ وَإِنْ شَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا ﴾

أي أرسلنا إلى شمود أخاهم صالحًا ، فالآلية معطوفة على قوله :
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ .

﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْكُمْ فِيهَا ﴾



أي جعلكم تعمرونها وتسكنون فيها ، وقدم الإنشاء من الأرض على إمارها لأنه أسبق ، فإن الإنشاء قبل عمارتهم للأرض .

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ هو نظير ما قاله من سبقة لمن سبقهم ، فقد قال ذلك هود لقومه عاد (الآية ٥٢) .

وقالها خاتم الرسل لقومه كما سبق ذكر ذلك في الآية الثالثة من السورة .

وسبق أن ذكرنا ثم تقديم الاستغفار على التوبة وسبب ذلك فلا نعيد القول فيه .

﴿إِنَّ رَبَّ قَرِيبٍ مُّجِيبٍ﴾

أي قريب يسمع استغفاركم ويجيبكم فيتوب عليكم ويجيب دعاءكم .

وقدم (قريب) على (مجيب) لأن الإجابة تستدعي السمع ، والقريب أدعى إلى السمع من بعيد . فقدم القريب لأنه يسمعك فيجيبك . ونحو هذا قوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادٍ عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] فقدم القرب على الإجابة .

* * *

﴿فَالْوَيْسَارِيْلَحْ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذِهِ اَنْتَهَيْنَا اَنْ تَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ اَبَائُنَا وَإِنَّا لَنَحْ شَكِّيْ مَمَانَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود : ٦٢]

﴿قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذِهِ﴾

أي «كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لنتنفع بك وتكون مشاوراً في الأمور ومستشاراً في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك .

三

وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدمك على جميـنا»^(١).

وَقَدْمَ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ (فِينَا) عَلَى (مَرْجُواً) لَأَنَّ الْكَلَامَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ فَقَدْمَ ضَمِيرِهِمْ فِي (فِينَا) ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَنْتُمْ نَهَيْنَا أَنْ تَغْبُدَ مَا يَعْبُدُ أَبَآءَكُمْ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾؟ فَإِنَّ الْكَلَامَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ فَقَدْمَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ .

وهذا نظير التقديم في قوله تعالى: ﴿وَأَتَنِّي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ كما مرّ بيان ذلك في قوله: ﴿وَأَنَّنِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨].

وَإِنَّا لَفِي شَكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ

«الشك هو أن يبقى الإنسان متوقعاً بين النفي والإثبات . والمربي هو الذي يظن به السوء . فقوله : ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍ﴾ يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله .

وقوله: «مُرِيبٌ» يعني أنه ترجم في اعتقادهم فساد قوله. وهذا مبالغة في تزييف كلامه»^(٢).

• • •

﴿قَالَ يَنْقُوْمُ أَرْهَيْتُ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَهُ مِنْ رَّبِّيْ وَأَتَنْفِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُ فِي
مِنْ أَلْلَاهِ إِنْ عَصَيْتَهُ فَمَا تَرْبِيْدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]

بعد أن قالوا لنبיהם إنهم في شك مما يدعوهم إليه ناقشهم نبيهم بأمرتين: أمر عقلي منطقي ، وأمر قائم على الحجة الملزمة .

فَإِنَّمَا الْأَمْرُ عَقْلِيٌّ مِنْطَقِيٌّ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُمْ أَخْبِرُونِي لَوْ أَنَّ اللَّهَ كَانَ أَرْسَلَنِي حَقًّا وَلَوْسَتْ مَدْعِيًّا فَمَنْ يَعْصِمُنِي مِنَ اللَّهِ وَيَنْجِيَنِي مِنْهُ إِنْ عَصَيْتَهُ؟

الكتاب / ٢ / ١٠٥

٢) تفسیر الرازی / ٣٦٨

جاء في (الكساف): «قدروا أني على بينة من ربى وأني نبي على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى فمن يمنعني من عذاب الله؟»^(١).

وذكرنا في موضع سابق من هذه السورة سبب تقديم الجار وال مجرور (منه) على (رحمة)، في حين آخره عن الرحمة في قوله: ﴿وَإِنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨].

وقد ذكرنا في ذلك الموضع أنه لما كان الكلام على الرحمة قدمها وذلك قوله: ﴿فَعَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلَزْتُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾.

ولما كان الكلام على الله في هذه الآية وذلك قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُ مِنْ أَلَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ قَدَّم الضمير العائد على الله في الجار وال مجرور وهو (منه) على الرحمة.

﴿فَمَا زَيَّدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرِ﴾

التخسيير مصدر (خسر) بالتضعيف ، وهو يفيد المبالغة والتکثير في الخسار ، أي لا تزيدونني إلا مبالغة في الخسان.

لقد دل هذا التعبير على الزيادة في الخسان من أكثر من وجه:

منها قوله: ﴿تَرَيْدُونِي﴾ أي تضييفون خسارة إلى خساني .

ومنها: أنه جاء بالمصدر الدال على الكثرة وهو (تخسيير).

ومنها: أنه جاء بالنفي مع (غير) ليدل على أنه لا يزيدونه شيئاً غير الزيادة في الخسان. ولو قال بدل هذه العبارة: (كنت خاسراً) مثلاً لم يفد ذلك إلا أنه سيكون خاسراً.

ومن الملاحظ أنه إذا استعمل القرآن الزيادة في الخسارة استعمل لفظ (الخسار) فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] ، وقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكُفَّارِ كُفُورُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩] ، وقال: ﴿وَأَتَبْعَوْمَنْ لَرِيَدَةَ مَالُهُ وَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

إلا في هذه الآية فإنه قال: ﴿مَا تَرِيدُونَى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فجاء باللفظ الدال على المبالغة والكثرة ، وذلك أنه إذا كاننبياً حقاً وآتاه الله منه رحمة ثم عصاه كانت خسارته أعظم من سائر الكفار الذين لم تأتهم البينة ولم ينزل عليهم وحي ، فناسب ذكر التخسير هنا وليس مجرد الخسار ، بخلاف سائر المواضع الأخرى ، وليس عقاب من علم وعصى كمن جهل . وقد قيل فيما قيل :

وَالْمُّعَذَّبُ مِنْ قَبْلِ عَمَلِهِ لَمْ يَعْمَلْ
* * *

﴿وَنَقَوْرِ هَنِيَءَ نَاقَةَ اللَّهِ لَكُمْ إِيمَانَهُ فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمْسُوهَا إِسْوَءٌ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]

وهذا هو الأمر الثاني الذي ذكره لهم وهو الأمر القائم على الحجة الملزمة ، وهي الآية الدالة على صدقه وهي الناقة التي أخرجها الله من الصخرة كما طلبوا ، وقد كانوا تعهدوا لنبيهم أنه إن فعل ذلك آمنوا له وصدقوا .

وسماها ناقة الله لأنها لا تعود لأحد وإنما هي لله كما ذكرنا .

وقدَّمَ (لكم) على (آية) للاختصاص ، وذلك أن هذه الآية خاصة بهم دون غيرهم أرسلت إليهم هم كما طلبوا . فالآية لهم هم ، فهم الذين طلبوها ، وهم الذين شاهدوها وتعاملوا معهم .

وطلب منهم أن يتركوا ناقة الله تأكل في أرض الله لا في أرضهم ولا من زرعهم ، فالناقة ناقة الله والأرض أرضه .

وهذا غاية الإنفاق والعدل ، فلماذا يمسونها بسوء إلا إذا كانوا معتدلين عليها ظالمين لها؟

﴿ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ ﴾

«نهى عن المسّ الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى وبالغة في الضرر فهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْقِرُوا مَالَ أَبْيَتِمْ ... أَيْ لَا ت تعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلًا كالطرد والعقر وغير ذلك»^(١) .

ونكّر السوء ليشمل أي سوء مهما كان ضئيلاً .

﴿ فَيَأْخُذُوكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

وصف العذاب هنا بأنه قريب ، وقال في الأعراف: ﴿ فَيَأْخُذُوكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فوصفه بأنه أليم ، ذلك أنه قال لهم هنا: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ وهذا وعد قريب ، فناسب ذكر القرب .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه في الأعراف كان أول التبليغ لقومه ، فهو أول موضع ترد فيه هذه القصة في القرآن الكريم فلا يناسب ذكر التعجيل بالعقوبة .

في حين كان الكلام في هود بعد ذلك وقد بلّغهم ونصح لهم فناسب ذكر قرب العذاب في هود .

* * *

﴿فَعَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾

[هود: ٦٥]

أي فذبحوها ، والعقر قطع عضو ، ويستعمل في النحر أيضاً.

وقال : (فعروها) ولم يقل : (فتحروها) لئلا يظن أنهم استحقوا العذاب بسبب نحرها وأنهم لو لم ينحروها لم يعذبهم ، وإنما استحقوا العذاب بعقرها وإن لم يذبحوها ، ذلك أنه حذرهم فقال لهم : ﴿وَلَا تَمْشُوهَا سُوءٍ﴾ فياخذهم العذاب . فأي مس بالسوء مهما كان فهو مدعاه إلى العقوبة .

وقال : (فعروها) فأسنده العقر إليهم كلهم وإن كان العاقر واحداً كما أخبر ربنا بقوله : ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَنَعَطَنِي فَعَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وذلك لأنهم تماليأ على ذلك بدلالة قوله : ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ فأسنده العقر إليهم فاستحقوا العذاب أجمعون .

﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ .

أي غير مكذوب فيه ، أو (وعد غير كذب) لأن المكذوب قد يكون مصدراً بمعنى الكذب .

* * *

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرٌ نَّبَغَتِنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْ كَوْنِهِمْ يَوْمٌ إِذْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]

قال هنا : ﴿نَبَغَتِنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْ كَوْنِهِمْ﴾ .

ذكر أنه نجاهم برحمة منه ولم يقل مثل ذلك في موضعين آخرين ، فقد قال في سورة النمل : ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣] ، وقال في فصلت : ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [فصلت: ١٨] ولم يقل : (برحمة منا) .

وذلك - والله أعلم - أنه ذكر صفتين في سوري النمل وفصلت وهما: الإيمان والتقوى فقد قال فيهما: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾.

ولم يذكر في سورة هود غير صفة واحدة وهي الإيمان ، فاتسعت رحمته لتشمل من كان مؤمناً وإن لم يكن متقياً ، فناسب ذكر الرحمة في هذا الموضع ، وإن كانت النجاة برحمته سبحانه وليس بشيء آخر .

﴿وَمِنْ خَرْزِي يَوْمِئِدٍ﴾

أي نجيناهم من العذاب ومن الخزي ، فقد عطف قوله: ﴿وَمِنْ خَرْزِي يَوْمِئِدٍ﴾ على (نجينا) ، والتقدير: «ونجيناهم من خزي يومئذ»^(١).

فدل ذلك أنه أصاب الذين ظلموا العذاب والخزي ، ونجى الله الذين آمنوا منهم .

وقد ذكرنا الفرق بين (نجينا) و(أنجينا) في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)^(٢) فلا نكرر القول فيه .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

«ناسب مجيء الأمر وصفه تعالى بالقوى العزيز ، فإنهما من صفات الغلبة والقهر والانتقام»^(٣).

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب وهو رسول الله محمد ﷺ تحذيراً لقريش من مغبة موقفهم من رسول الله ، فإن ربكم يفعل بهم ما فعل بالأقوام البائدة الذين أهلوكهم الله كما قال محذراً لهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْنِكُمْ صَيْقَةً مِثْلَ صَيْقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ﴾ [فصلت: ١٣].

(١) الكشاف ٢/١٠٥.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) البحر المحيط ٥/٤٠٢ .



وعرف الخبر وجاء بضمير الفصل فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾
ولم يقل : (إن ربك قوي عزيز) ليدل على أنه لا قوي غيره على الحقيقة ،
ولا عزيز غيره على الحقيقة ، بل هو وحده القوي العزيز .

قد تقول : لقد قال ههنا : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾

وقال في الشورى : ﴿أَللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى : ١٩]

فأكيد في آية هود قوته وعزته بـ (إن) ولم يؤكد ذلك في الشورى . فلم
ذلك ؟

والجواب : أنه أكيد في آية هود لأن المقام مقام عقوبة وإنجاء صالح
ومن آمن معه وذلك يستدعي تأكيد القوة والعزة .

وأما السياق في الشورى فإنه في لطفه بعباده فلا يستدعي ذلك
تأكيدهما .

وقدَّم القوي على العزيز لأنَّه قوي فعز ، فإن العزة إنما تكون من
القوة ، ولذلك حيث اجتمع هذان الوصفان في القرآن الكريم قدَّم القوي
على العزيز ، وذلك نحو قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠ ، ٧٤] ،
وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] ، المجادلة : ٢١ .

* * *

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيرَهُمْ جَاثِمِينَ ﴿١٧﴾ كَأَنَّ لَمْ يَفْتَنُوهُمْ إِلَّا أَنْ شَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِشَمُودٍ﴾ [هود : ٦٧ - ٦٨]

ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية) قوله : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾
وقوله : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود : ٩٤] بالتدذير والتأنيث فلا نعيد
القول فيهما .



وذكرنا في القصة إفراد الديار مع الرجفة وجمعها مع الصيحة .
 ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ .

أي كأنهم لم يكونوا فيها ولم يقيموا فيها مستغنين بها عن غيرها . جاء في (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني : «غني في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره بمعنى ، قال : ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ »^(١) .

أما بقية التعبير فقد ورد نحوه في قصة هود .

* * *

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (غني) .

قصة إبراهيم

من سورة هود

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى فَالْأُولَاءِ سَلَمُوا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لِيْثَ أَنْ جَاءَ
يُعْجِلُ حَنِيدِ ﴿١﴾ فَلَمَّا رَأَهُمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِ نَكِيرُهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِفَةً قَالُوا لَا
تَخَفَ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ قَوْمًا لَوْطًا ﴿٢﴾ وَأَمْرَأَتُهُ فَأَيْمَةٌ فَضَحِكتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٣﴾ قَالَتْ يَوْمَ لَقَى أَلَّدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٤﴾ قَالُوا أَنْتُمْ جِنٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَكِنُهُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مَحِيدٌ ﴿٥﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرُّوعُ وَجَاءَهُ الْبُشْرَى يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمِ لَوْطٍ ﴿٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَعَلِيمٌ أَوَاهٌ مُشَيْبٌ ﴿٧﴾ يَا إِبْرَاهِيمَ أَخْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ مَا تَهْمِمُ عَذَابُ
غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٨﴾ [هود: ٦٩ - ٧٦]

* * *

من سورة الحجر

﴿ وَنَيَّثُمُونَ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١﴾ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمُوا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ
وَجِلُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا بُشَّرُوكَ بِعِلْمٍ عَلَيْمٍ ﴿٣﴾ قَالَ أَبْشِرْتُمُونِي عَلَىَّ أَنْ مَسَنِيَ
الْكَبِيرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُقْنَطِينَ ﴿٥﴾ قَالَ وَمَنْ
يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الظَّالُونَ ﴿٦﴾ قَالَ فَمَا حَظَّبْكُمْ أَيْمَانُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا إِنَّا
أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﴿٨﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٨]

* * *



من سورة الذاريات

﴿ هَلْ أَنْدَكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ﴾ ٢٤
 إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمَ
 قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجَالٍ سَمِينٌ ٢٦ فَقَرِبَهُمْ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
 فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَمٍ عَلَيْهِ ٢٧ فَأَقْبَلَتْ أُمُّهُ فِي صَرْقَ فَصَكَتْ
 وَجْهَهَا وَقَاتَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٨ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ
 قَالَ فَمَا خَطَبُكُمْ أَيْمًا الْمُرْسَلُونَ ٢٩ قَالُوا إِنَّا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾

[الذاريات : ٢٤ - ٣٢]

* * *

من سورة العنكبوت

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهَلِّكُوْنَا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرِيَّةِ إِنَّ
 أَهْلَهَا كَانُوا ظَلَمِينَ ٣٠ قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا
 لَنُتَّحِيَّنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣١ - ٣٢]

* * *

ورد هذا الجانب من قصة إبراهيم في ثلاثة سور هُنَّ هود والحجر والذاريات ، كما وردت لها إشارة يسيرة في سورة العنكبوت في أثناء قصة لوط .

وهي في كل ما ورد منها مدخل إلى قصة لوط .

ولوط آمن لإبراهيم وهاجر إلى ربه كما قال تعالى : ﴿ فَامَّنْ لَمْ لُوطُ
 وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٢٦].

وهو ابن أخيه ، فلا غرو أن يذكر جانباً من قصة إبراهيم مدخلاً إلى قصة لوط .

وما يذكر من هذه القصة فيه تبسيط في بعض المواقع ، وفي بعضها إيجاز ، وذكر جانب منها وطريق جانب آخر بحسب السياق الذي ترد فيه .

وقد ذكرنا في كتابنا (المسات بيانية) هذا الجانب من القصة من سورتي الحجر والذاريات ، وبيان شيء من اللمسات البيانية فيها فلا نكرر القول في ذلك .

لقد ذكر في هذا الموضع من القصة أموراً لم تذكر في مواقع أخرى ، وهو نحو ما ذكرنا في القصص السابقة ، فإنه لم يكرر القصة وإنما يذكر في كل موضع جانباً لم يذكر في موضع آخر .

١ - فقد ذكر هنا وفي العنكبوت أنه جاءته رسائل ربه . فقد قال هنا: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ ، وفي العنكبوت: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ [العنكبوت: ٣١] .

وأما في سورتي الحجر والذاريات فقد ذكر أنهم ضيفه . فقد قال في الحجر: ﴿ وَنَيَّتُهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر: ٥١] ، وقال في الذاريات: ﴿ هَلْ أَنْدَكَ حَدِيثُ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤] .

٢ - ذكر تحية هود والذاريات .

وذكر في الحجر تحية هود عليهم ولم يذكر رد التحية عليهم .

وأما في العنكبوت فلم يذكر تحية ولا رد تحية ، وإنما هو دخول مباشر إلى قصة لوط بعد المجيء بالبشرى .

٣ - ذكر تقديم الطعام لضيفه في هود والذاريات ، ولم يذكر ذلك في الحجر .

٤ - ذكر في الذاريات أنه دعاهم إلى الأكل قائلاً: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، ولم يذكر ذلك في هود ، غير أنه لما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام



نكرهم وأحسن منهم خيفة.

٥ - ذكر في هود أن امرأته كانت قائمة وأنها ضحكت بعد ذكر الرسل أنهم أرسلوا إلى قوم لوط.

ولم يذكر ذلك في أي موضع آخر.

٦ - ذكر في هود أنهم بشرواها بالولد ، في حين أن البشارة كانت لإبراهيم في الحجر والذاريات.

٧ - في هود بشرواها بولد وبولد الولد ، في حين كانت البشري في الحجر والذاريات بالولد ولم يذكر ولد الولد.

٨ - ذكرت البشارة اسمي الولد وولد الولد في هود ، ولم يذكر ذلك في الحجر ولا في الذاريات ، وإنما ذكر البشري بغلام عليم. ففي هود ذكر اسم العلم ، وفي الحجر والذاريات ذكر صفتة.

٩ - ذكر في هود عجب امرأة سيدنا إبراهيم ومحاورتها للملائكة وأنها تبسطت في ذكر العجب.

ولم يذكر في الحجر ذلك. وأما في الذاريات فلم تزد على أن صَّكت وجهها وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ .

١٠ - ذكر في الحجر محاورة إبراهيم للملائكة في هذه البشري وكيف أنهم بشرواه بعد أن مسه الكبر.

ولم يرد ذلك في موضع آخر.

ففي هود والذاريات كان الكلام فيما يتعلق بالبشرى بين زوجه والملائكة ، وفي الحجر كان الكلام بينه وبين الملائكة.

١١ - ذكر تبسط الملائكة في الكلام مع زوج إبراهيم في هود فيما يتعلق بعجبها.



ولم يرد مثل ذلك في الذاريات ، وإنما قالوا لها : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ
إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .

١٢ - سألهم إبراهيم عن الغرض من مجئهم في الحجر والذاريات
قائلاً : ﴿ فَمَا حَطَبْتُكُمْ أَيْمَنًا الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر: ٥٧ ، الذاريات: ٣١] . فبينوا له
سبب ذلك .

في حين ذكروا ذلك ابتداء في هود من غير أن يسألهم ، وكذلك في
العنكبوت .

فالقصة كما ترى ليست متطابقة .

* * *

جانب من التفسير البياني

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى فَالْأُولُو سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَيْثَ أَنْ جَاءَ
يُعْجِلُ حَزِيزًا ﴾ [هود: ٦٩]

لقد غير الأسلوب الذي اتبّعه في قصص الأنبياء الآخرين في هذه السورة كقصة نوح وهو دود وصالح وغيرهم ، فقد قال في ابتداء تلك القصص : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وَإِلَى
ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحَّا ﴾ ﴿ وَإِلَى مَدينَ أَخَاهُمْ شَعَبِيَا ﴾ .

في حين قال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ .

ذلك أن الغرض والهدف مختلف عن تلك القصص ، فإن قصص بقية الرسل إنما هي في إرسالهم إلى أقوامهم وتبلغهم دعوة ربهم وإنذارهم وذكر عاقبتهم ، وليس الأمر كذلك في قصة إبراهيم هذه ، وإنما الغرض إنما هو ذكر المجيء بالبشرى وأن تكون القصة مدخلاً إلى قصة لوط . فهي محطة في الطريق إلى قوم لوط .

جاء في (روح المعاني) : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ : وإنما أنسد إليهم المجيء دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ ﴾ وإنما جاؤوه لداعية البشرى .

قيل : ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة



مع الرسل المرسلة إليهم ، ولحوق العذاب بهم ، ولم يكن جميع قوم إبراهيم عليه السلام من لحق بهم العذاب ، بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحَا ﴾ ثم رجع إليه حيث قيل : ﴿ وَإِلَى مَنِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا ﴾^(١).

وجاء في (البحر المحيط) : « تقدم أن ترتيب قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف ، وإنما أدرج شيئاً من أخبار إبراهيم عليه السلام بين قصة صالح ولوط لأن له مدخلاً في قصة لوط ، وكان إبراهيم ابن خالة لوط ، والرسل هنا الملائكة بشرت إبراهيم بثلاث بشرائر : بالولد وبالخلة وإنجاء لوط ومن آمن معه »^(٢).

وقوله : (بالبشرى) قيل : هي البشرى بالولد^(٣) ، وقيل : بأمور أخرى منها ما ذكره صاحب البحر المحيط .

﴿ قَالُوا سَلَّمًا قَالَ سَلَّمًا ﴾ ذكرنا هذا التعبير في أكثر من موضع ، وقد قلنا : إن تحية الملائكة كانت بالجملة الفعلية ، أي نسلم سلاماً ، بدليل نصب السلام ، وإن تحية إبراهيم بالجملة الاسمية بدليل رفع السلام ، أي سلام عليكم . والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية ، فهو رد التحية بخير منها .

﴿ فَمَا لِيَثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَيْزِ ﴾

﴿ فَمَا لِيَثَ أَنْ جَاءَ ﴾ أي مما أبطأ في المجيء أو عن المجيء ، والفاعل ضمير مستتر يعود على إبراهيم ، والمصدر المؤول منصوب بتزع

(١) روح المعاني ٩٣ / ١٢.

(٢) البحر المحيط ٤٤١ / ٥.

(٣) انظر الكشاف ١٠٥ / ٢.

الخاضن وهو على تقدير (في) أو (عن).

ويحتمل أن يكون المصدر المؤول فاعلاً ، أي فما تأخر مجئه^(١).

جاء في (الكساف) : «﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ فما لبث في المجيء به ، بل عجل فيه ، أو فما لبث مجئه»^(٢).

ولم يذكر حرف الجر ، فلم يقل : (فما لبث في أن جاء) أو (عن أن جاء) وذلك ليتسع المعنى ويشمل أكثر من دلالة.

فالتعبير يحتمل عدة معان كلها مراده والله أعلم . فهو يحتمل أن يكون المعنى : فما لبث مجئه ، أي ما أبطأ مجئه.

ويحتمل أن يكون ما أبطأ إبراهيم في المجيء ، ولا أبطأ عن المجيء .

﴿يَعْجِلُ حَنِيدِ﴾ العجل : ولد البقرة.

والحنيد : السمين المشوي الذي يقطر دسمه .

والحنيد هو المشوي بالرضف وهي الحجارة في أخدود^(٣).

جاء في (البحر المحيط) : «حنذت الشاة أحنذها حنذاً : شويتها ، وجعلت فوقها حجارة لتنضجها فهي حنيد»^(٤).

وجاء في (لسان العرب) : «الحنيد من الشواء الحار الذي يقطر ماؤه وقد شوي»^(٥).

(١) انظر روح المعاني ٩٤/١٢.

(٢) الكشاف ١٠٦/٢.

(٣) انظر الكشاف ١٠٦/٢ ، روح المعاني ٩٤/١٢.

(٤) البحر المحيط ٥/٢٣٦.

(٥) لسان العرب (حنذ).



والمعنى أنه جاء بعجل مشوي حار سمين يقطر ودكه .
ففي الحنيذ ثلاث صفات :

- ١ - أنه سمين .
- ٢ - مشوي .

٣ - وحار يسيل دسمه ويقطر ماوئه ، وهذا غاية الإكرام ، فإنه عجل في تقديم أحسن الطعام لضيفه .

* * *

﴿فَلَمَّا رَأَهَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرُهُمْ وَأَوْجَسْ مِنْهُمْ خِفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطِ﴾ [هود: ٧٠]

أي فلما رأهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ، أي لا يأكلون نكرهم .
وقال : **﴿فَلَمَّا رَأَهَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾** فعدى الرؤية إلى الأيدي ، ولم يقل (فلما رأهم لا يمدون أيديهم) وذلك إشارة إلى أدب الضيافة ، فإنه لا يحسن بالمضيف أن يحدد النظر إلى الضيوف ، فإن ذلك يمنعهم من مواصلة الأكل بحسب حاجتهم ورغبتهم ، وإنما يسارقهم النظر فينظر أياكلون أم لا .
وإبراهيم عليه السلام نظر إلى أيديهم ليرى أنهم يأكلون أم لا .

جاء في (روح المعاني) : **﴿فَلَمَّا رَأَهَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾** كناية عن أنهم لا يمدون إليه أيديهم ، ويلزمهم أنهم لا يأكلون ... ففيه دليل على أن من أدب الضيافة النظر إلى الضيف هل يأكل أو لا ، لكن ذكروا أنه ينبغي أن يكون بتلتفت ومسارقة لا بتحديد النظر ، لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصراً في الأكل ، أي لما شاهد منهم ذلك نكرهم »^(١) .

فلما رأهم لا يأكلون نكرهم ، أي استوحش منهم وداخلته الريبة في أمرهم .

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾

أي استشعر الخوف منهم وأحس به ، ذلك أنه «كان عادتهم أن إذا مس من يطريقهم طعامه أمنوه وإلا خافوه»^(١).

و(الخيفة) الخوف ، وهي من أسماء الهيئة ، والمعنى أنه شعر بحالة من الخوف .

جاء في (مفردات الراغب): «الخيفة الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . قال تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَقْسِمَهِ خِيفَةً مُوسَى﴾»^(٢).

وجاء في (روح المعاني): «(خيفة) أي خوفاً ، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . ولعل اختيارها بالذكر للمبالغة حيث تفرس لذلك مع جهالته لهم من قبل وعدم معرفته من أي الناس يكونون ، كما ينبغي عنه في الذاريات من قوله سبحانه حكاية عنه : ﴿قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أنهم ملائكة»^(٣).

ويبدو أن هذه الحالة من الخوف ظهرت عليه فأمنوه بقولهم (لا تخف) . وأخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط .

جاء في (الكساف): «(فأوجس) فأضمر . وإنما قالوا: لا تخف؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه ، أو عرفوه بتعريف الله»^(٤).

* * *

(١) الكشاف ١٠٦/٢ ، وانظر البحر المحيط ٢٤٢/٥.

(٢) المفردات (خوف).

(٣) روح المعاني ٩٥/١٢.

(٤) الكشاف ١٠٦/٢.



﴿وَأَمْرَأَهُ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾

[هود: ٧١]

لما سمعت بتتأمين زوجها وأنهم أرسلوا إلى قوم لوط ضحكت سروراً بهذا الخبر ، فبشروها زيادة في إدخال السرور عليها بالولد وبولد الولد.

وأسند البشارة إليه سبحانه فقال : ﴿فَبَشَّرَتْهَا﴾ زيادة في إكرامها.

جاء في (البحر المحيط) : «فبشرناها على لسان رسالتنا... قال ابن عطية : أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى ، إذ كان ذلك بأمره ووحيه»^(١).

ولما أسند البشارة إليه سبحانه فقال : (فبشرناها) عظمت البشارة فشملت الولد وولد الولد ، وأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها.

جاء في (روح المعاني) : «كأنهم بشروها بأن تعيش حتى ترى ولد ولدها ، أو بأن يولد ولدها ولد»^(٢).

وجاء في (البحر المحيط) : «وبشرت من بين أولاد إسحاق بيعقوب ؛ لأنها رأته ولم تر غيره»^(٣).

في حين لما أسند البشارة إلى الملائكة اختصت بذكر الغلام وذلك في الحجر والذاريات . فقال في الحجر : ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِعُلَمَىٰ عَلَيْمِ﴾ [الحجر: ٥٣] ، وقال في الذاريات : ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً فَالْأُولَاءِ لَا تَخْفَ وَبَشَّرُوهُ بِعُلَمَىٰ عَلَيْمِ﴾ [الذاريات: ٢٨] وكانت البشرى بعد التأمين من الخوف في

(١) البحر المحيط ٥/٤٤٣.

(٢) روح المعاني ١٢/٩٩.

(٣) البحر المحيط ٥/٤٤٣.

جميع الموضع لتم الفرحة وتبسط النفس بها ، وإن فالخائف يطلب الأمان أولاً.

* * *

﴿قَالَتْ يَوْمَئِنَّىءَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

[هود: ٧٢]

أدركها العجب الشديد حين بشرت بالولد وولد الولد وهي عجوز عقيم وزوجهاشيخ كبير فقالت : ﴿قَالَتْ يَوْمَئِنَّىءَ أَلِدُ...﴾

و(يا ويلتنا) «يستعمل في كل أمر فظيع ، والمراد هنا التعجب . وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه . . . وقيل : إن ألف بدل من ياء المتكلم . . . وقيل : إنها ألف الندبة ولذا يلحقونها بالهاء فيقولون : يا ويلتنا»^(١).

﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ بعلی أي زوجي «وأصل البعل القائم بالأمر فأطلق على الزوج لأنه يقوم بأمر الزوجة»^(٢).

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فأكدت عجبها بإن واللام زيادة في عجبها . وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) هذا التعبير وقوله سبحانه : ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] ، قوله : ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥] وسبب الاختلاف في التعبير فلا نكرر القول فيه^(٣).

* * *

(١) روح المعاني ١٢/٩٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/٤٤٢ .

(٢) روح المعاني ١٢/١٠٠ .

(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٤٤ وما بعدها - باب (البنية في التعبير القرآني).



﴿ قَالُوا أَتَعْجِبُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣]

قالوا منكرين عليها عجبها بلطف ودعا: «أَتَعْجِبُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» ، والمؤمن قد يعجب من أمر الله إذا استعظمه وإن كان يعلم أنه لا حدود لقدرة الله وأنه يفعل ما يشاء.

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

رحمة الله عامة تشمل خيري الدنيا والآخرة ، والبركات من الرحمة وهي أخص منها ، فمن بارك الله عليه فقد رحمه.

والبركات : الخيرات التامة المتکاثرة.

ومجموع ما حيّا به الملائكة هي التحية التامة التي لا أفضل منها وهي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد بدؤا بقولهم : (سلاماً).

ثم أتبعوا ذلك مخاطبين امرأة سيدنا إبراهيم بقولهم :

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا يتحمل الدعاء ، ويتحمل الإخبار بأن رحمة الله وبركاته عليهم .

فهم لم يقولوا : (إن رحمة الله وبركاته عليكم) لئلا يكون خبراً محضاً ، وإنما قالوا : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ليتحمل الدعاء والإخبار ، وهما مرادان معًا . وقد يكون ذلك من التحية.

جاء في (روح المعاني) : «﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ ﴾ المستبعة كل خير... . و﴿ وَبَرَكَتُهُ ﴾ أي خيراته التامة المتکاثرة التي من جملتها هبة الأولاد.

وقيل : الرحمة : النبوة . . . وقيل : رحمته تحيته^(١) .
 و﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يحتمل أن يكون نصباً على المدح ، وأن يكون نداء .
 وقيل : يحتمل أن يكون نصباً على الاختصاص^(٢) ، وفيه نظر .
 ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَحِيدٌ﴾ والحميد : الذي يستحق الحمد على جهة الثبوت ،
 والمجيد : الرفيع الكثير الخير والإحسان^(٣) .

* * *

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ الْبَشَرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]
 قدم ذهاب الروع على مجيء البشري لأنّه أهم بالنسبة إلى الخائف ؛
 لأنّ الخائف لا يستمتع بالبشرى حتى يأمن .
 ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ .

(يجادلنا) أي يجادل رسالنا في أمر قوم لوط وشأنهم^(٤) . ولكن لما
 كان هذا أمر الله وهو الذي أرسلهم به كان كأنه جادل سبحانه في أمره «ففيه
 مجاز في الإسناد ، وكانت مجادلته عليه السلام لهم ما قصه الله سبحانه
 في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا إِلَيْهِمْ بِالْبَشَرَى قَالُوا إِنَّا مُهَلَّكُوْا
 أَهْلَ هَذِهِ الْقَرِبَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَلَمِينَ﴾ [٢٦] قال إبرٰهٰيم^(٥) في
 عليه السلام : ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ مجادلة^(٦) .

* * *

﴿إِنَّ إِرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].
 الحليم : الذي لا يعجل في الانتقام ممن أساء إليه .

(١) روح المعاني ١٢ / ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) انظر روح المعاني ١٢ / ١٠١ ، الكشاف ٢ / ١٠٧ .

(٣) روح المعاني ١٢ / ١٠١ .

(٤) انظر تفسير الرازي ٦ / ٣٧٦ ، روح المعاني ١٢ / ١٠٢ .

(٥) روح المعاني ١٢ / ١٠٢ - ١٠٣ ، لسان العرب (أوه).



والأواه: الكثير الحزن ، وقيل: الرحيم الرقيق المتضرع ، والكثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس .
والمنيب: الراجع إلى الله تعالى^(١) .

«وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فيه ، فيبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه»^(٢) .

وجاء في (روح المعاني): «والمقصود من وصفه عليه السلام بهذه الصفات المنبئة عن الشفقة ورقة القلب بيان ما حمله على ما صدر عنه من المجادلة ، وحمل الحلم على عدم العجلة والتأنى في الشيء مطلقاً .

وجعل المقصود من الوصف بتلك الصفات بيان ما حمله على المجادلة وإيقاعها بعد أن تحقق ذهاب الروع ومجيء البشري لا يخفي حاله»^(٣) .

وقدم الحليم لأن المقام مقام غضب وعقوبة وانتقام ، والحلم يقتضي عدم التعجيل بالعقوبة والانتقام .

وهذه صفة تتعلق بالموقف من الآخرين .

ثم جاء بالأواه بعده لمقام التأسف على ما صدر من قوم لوط ، والتأوه من ذنبهم التي أفضت إلى غضب الله عليهم والانتقام منهم . وقد دعته رحمته بهم وتأوهه عليهم إلى المجادلة في أمرهم .

والأواه صفة تتعلق بالفرد وبالآخرين ، فهو كثير التأوه إذا أذنب ،

(١) انظر روح المعاني ١٠٤/١٢ .

(٢) الكشاف ١٠٧/٢ .

(٣) روح المعاني ١٠٤/١٢ .

وكثر التضرع والحزن ، وكثير التأسف على الآخرين إذا أذنوا ، والرحمة بهم .

وأما المنين فهو الراجع إلى الله ، وهذا أمر يتعلق بالفرد ذاته . فقدم ما يتعلق بالآخرين لأن المقام يقتضي ذلك وهو الحلم ، ثم ذكر بعده ما يتعلّق به وبالآخرين ، ثم ذكر بعده ما يتعلّق به هو .

ولم يرد في القرآن الكريم وصف نبي من الأنبياء بهذه الصفات في غير خليل الله إبراهيم عليه السلام .

* * *

﴿يَأَيُّهُمْ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَّبِّكَ وَإِنَّهُمْ مَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

﴿يَأَيُّهُمْ﴾ نداء على تقدير القول ، أي قلنا أو قالت الملائكة^(١) .

ولم يقل : قلنا أو نحو ذلك ، وإنما حذف ذلك لنكون كأننا نسمع الداء يصدر إلى إبراهيم وأمره بالكف عن الجدال .
وتقدير (قلنا) مناسب لقوله : (يجادلنا) .

وتقدير (قالت الملائكة) مناسب لقولهم : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ وحذف القول ليحتمل الأمرين المناسبين للسياق .

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَّبِّكَ﴾ بإدخال (إن) المؤكدة على ضمير الشأن لتفخيم الأمر وتعظيمه . فلم يقل : (إن أمر ربك قد جاء) بل جاء بضمير الشأن الدال على التعظيم والتfxيم .

﴿قَدْ جَاءَ﴾ جاء بـ (قد) التي تدل على التحقيق والتوقع والتقرير ، أي

(١) روح المعاني ١٢ / ١٠٤ .



إن مجيء الأمر قد تحقق وقرب وقوع العذاب ، وهو متوقع وقوعه على هؤلاء القوم المجرمين .

﴿وَإِنَّهُمْ عَاتِيَهُمْ عَذَابٌ عَيْنُهُمْ دُوَيْرٌ﴾ أي غير مردود «بجدال ولا بدعاة ولا بغيرهما»^(١).

وجاء باسم الفاعل (آتىهم) ، وباسم المفعول (غير مردود) للدلالة على ثبوت الأمر واستقراره ، ولم يقل : (يأتىهم) ولا (لا يرد) الدالين على الحدوث ، بل جاء بما يدل على الثبوت والاستقرار .

فانظر كيف جاءت الآية بكل ما يدل على التأكيد والتفخيم والتعظيم :

١ - فقد قال : ﴿يَتَابَرَاهِيمُ﴾ فحذف فعل القول للإيجاز وكأن النداء صدر من العلي الأعلى بالكاف .

٢ - وقال : ﴿أَغْرِضْ عَنْ هَذِهِ﴾ فأمره بالكف عن الكلام في هذا الأمر ، ولم يقل : (كف عن هذا) وذلك لأن الإعراض أبعد في الكف ، فإن معنى (أعرض عنه) صد عنه وولى عنه وليس مجرد ترك الكلام .

فكأنه أراد أن يصد عن الكلام والانصراف عنه ، وهو أبعد من مجرد السكوت عن الكلام .

٣ - وجاء بـ (إن) المؤكدة فقال : (إنه) .

٤ - وأدخلها على ضمير الشأن الدال على التفخيم والتعظيم .

٥ - وجاء بـ (قد) التي تدل على التحقيق والتوقع والتقريب .

٦ - وأدخلها على الفعل (جاء) ولم يأت بالفعل (أتي) وذلك للدلالة على شدة الأمر وصعوبته ، فإن (جاء) يستعمل في القرآن لما هو أعن

(١) روح المعاني ١٢ / ١٠٤ .

- وأصعب من (أتى) الذي هو المجيء بسهولة^(١).
- ٧ - وجاء بـ (الأمر) الذي يدل على الشأن ، ويدل على الأمر واحد الأوامر من : أمره بالشيء .
- ٨ - وأضافه إلى (الرب) لتعظيمه ، والرب هو المعلم والمربى والموجه والمرشد ، فهو الذي يعلم أحسن الأمور وأحكمها وكيف يعاقب من خالف أوامره وتوجيهه وإرشاده .
- ٩ - وأضافه إلى ضمير الخطاب ، فهو ربك الذي ربك وأحسن إليك وعلمتك وأرشدك فلا تجادله فهو أعلم منك .
- والإنسان لا يحسن به أن يجادل من علمه ورباه في أمر هو من أمور التعليم والتوجيه وما هو من شؤون الرب .
- ١٠ - وقال : ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ فجاء بـ (إن) المؤكدة وأدخلها على ضميرهم وهم قوم لوط .
- ١١ - وقال : ﴿إِنَّهُمْ عَذَابٌ﴾ فجاء باسم الفاعل الدال على الثبوت . وهذا التعبير أعني ﴿وَإِنَّهُمْ إِنَّهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرَدُودٍ﴾ يحتمل دلالتين . الأولى : أن (آتىهم) خبر مقدم ، و(عذاب) مبتدأ مؤخر ، وقد قدم الخبر للاهتمام والقصر ، أي ليس آتىهم إلا العذاب ، كما تقول : (قائم أنا) أي لست إلا قائما ، والجملة خبر (إن) .
- والدلالة الثانية : أن (آتىهم) خبر (إن) ، و(عذاب) فاعل اسم الفاعل ، وجاء باسم الفاعل للدلالة على الثبوت ، والجملة مؤكدة بـ (إن) .
- وقد تقول : ولِمَ يقل : (وإنه آتىهم عذاب غير مردود) بإدخال (إن)

(١) انظر مفردات الراغب (جاء) و (أتى) ، وانظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) باب المفردات .



على ضمير الشأن للدلالة على التفحيم والتعظيم ، نظير قوله : ﴿إِنَّهُ مَنْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَّبِّكَ﴾ ؟

فقول : لو قال ذلك لم يكسب المعنين اللذين ذكرناهما ، وذلك أنه لو قال : (وإنه آتىهم عذاب غير مردود) لم يكن له إلا دلالة واحدة وهي أن (آتىهم) خبر مقدم ، و(عذاب) مبتدأ مؤخر ، ولا يصح أن يكون (آتىهم) خبر (إن) لأن ضمير الشأن لا يدخل إلا على جملة فيفوت أحد المعنين المرادين ، والله أعلم .

١٢ - وقال : ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فوصفه ونفي رده بالاسم الدال على الثبوت وهو (غير) ، ولم يقل : (ليس مردوداً) فينفيه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث ، فنفاه بما هو أقوى وأثبت .

١٣ - وقال : ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فجاء باسم المفعول الدال على الثبوت ، ولم يقل : (لا يرد) بالفعل .

فكان كل كلمة نصاً في المعنى المقصود والذي يناسب المقام .

* * *



نظرة بيانية في هذه القصة

من الملاحظ أن جانب التبسيط والإكرام لإبراهيم والملائكة في سورة هود أكثر مما في الموضع الأخرى .

١ - فقد عجل بذكر البشري له قبل ذكر إيجاس الخوف منهم ، في حين كانت البشري بعد التصريح بالخوف منهم كما في الحجر ، أو بعد الإحساس بالخوف كما في الذاريات ، فقال هنا : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ وهذا أدلى إلى الاطمئنان .

٢ - التصريح بأنهم رسلاه سبحانه أدل على التكريم من قوله : (ضيف إبراهيم) ، فقد أضاف الرسل إليه فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

في حين قال في الحجر : ﴿ وَنَبَّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، وفي الذاريات : ﴿ هَلْ أَنْذَكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ﴾ .

ورسل الله أكرم من ضيف مكرم .

٣ - قال هنا : ﴿ فَمَا لِيَثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ أي لم يطئ في المجيء .
وقال في الذاريات : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ .
وقوله : ﴿ فَمَا لِيَثَ أَنْ جَاءَ ﴾ أدل على السرعة من قوله : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَاءَ ﴾ .

فالأولى تدل على التعقيب في عدم الإبطاء في المجيء ، أي أسرع فيه .



والثانية تدل على التعقيب في الروغان إلى أهله .
والأولى أسرع .

٤ - قال في هود : ﴿يَعِجِّلُ حَنِيدٍ﴾ أي سمين مشوي حار يقطر ودكه .
وقال في الذاريات : ﴿يَعِجِّلُ سَمِين﴾ فزاد في الوصف في هود على
سمين بأنه مشوي وأنه حار . ولا يدل في الذاريات على أنه حار .

٥ - إنكاره إياهم في هود بعد أن رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام ﴿فَلَمَّا
رَءَاءَ أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُّ إِلَيْهِنَّ كَرَهُمْ﴾ .

في حين كان إنكاره في الذاريات بعد رد التحية : ﴿قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ .
فقد كان بعد رد التحية في هود المجيء بالعجل ، وكان بعد رد التحية
في الذاريات قوله : ﴿قَوْمٌ مُشْنَكُرُونَ﴾ .

٦ - بعد الإيجاس بالخوف في هود ذكروا له أمرتين مطمئنين :
الأول : أنهم أرسلوا إلى قوم لوط وليسوا مرسلين إليه فلا داعي
للخوف .

والآخر : التبشير بالولد .

في حين كان بعد التصریح بالوجل في الحجر أو الشعور بالخوف في
الذاريات إنما هو التبشير بالغلام ، ثم سألهم عن مهمتهم في الموضعين
فأجابوه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط .

ولا شك أن الموقف الأول أدعى إلى الطمأنينة .

٧ - ذكر في هود أن امرأته ضحكت ، وهي قد ضحكت سروراً . ولم
يذكر ذلك في موضع آخر .

٨ - إنهم بشروها في هود بالولد وولد الولد .



ولم يبشروه بغير الولد في الحجر والذاريات ، والأول أدعى إلى زيادة السرور .

٩ - إن فحوى البشارة في هود أن ترى ولدها وولد ولدتها ، أي أنها ستعيش حتى ترى يعقوب ، وقد حصل لها ذلك ، وهو ما يدل على طول العمر والزيادة في السرور .

١٠ - تبسيط امرأة إبراهيم مع الملائكة في هود أكثر ، وهو أدل على الطمأنينة والراحة .

١١ - الدعاء أو الإخبار لأهل البيت بقولهم : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَحِيدٌ ﴾ أدل على الإكرام والزيادة في إدخال المسرة .
ولم يرد ذلك في موضع آخر .

١٢ - ورود البشري في هود أكثر من ورودها في المواطن الأخرى ، فقد جاءته الرسل بالبشري ، ثم بشروا امرأته ، ثم ذكر مجيء البشري مرة أخرى بقوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرُّؤُوفُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى . ﴾

ثم إن البشري في هود وردت عامة ووردت مخصصة ، فقد قال :
﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى ﴾ ، وقال : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرُّؤُوفُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى ﴾ والبشري هنا عامة غير مخصصة بأمر .
ووردت مخصصة بقوله : ﴿ فَبَشَّرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ .

في حين كانت البشري في الحجر والذاريات مخصصة بالغلام . فما في هود أعم وأشمل .

١٣ - أسند البشارة إليه في هود فقال : ﴿ فَبَشَّرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ ، وأسند البشارة إلى الملائكة في الحجر والذاريات : ﴿ قَاتُلُوا لَا ثُوَجَلَ إِنَّا بُشِّرُوكَ بِغُلَمٍ عَلَيْهِ ﴾ [الحجر : ٥٣] ، وفي الذاريات ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَمٍ عَلَيْهِ ﴾ [الذاريات : ٢٨] .



ولاشك أن إسناد البشارة إلى الله أكرم وأتم.

ولما كانت البشارة مسندة إلى الله في هود ذكر الزيادة في البشري وهي الولد وولد الولد.

١٤ - إن البشري في هود أتم وأعلى مما في الحجر والذاريات ، فإن البشري في هود جاءت بها الرسل كما قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ .

وجاءت هي كما قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ . فالبشرى جيء بها مرة ، وجاءت هي مرة أخرى.

وأما في الحجر والذاريات فقد ذكر أنهم بشروه ، وكذلك قال في هود غير أنه أنسد التبشير إليه سبحانه كما ذكرنا.

ولاشك أن ما ورد في هود أتم وأعلى.

١٥ - ذكر ذهاب الروع وهو الفزع في هود فقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولا في الذاريات . وهو أدل على الطمأنينة.

١٦ - ذكر في هود مجادلة إبراهيم للملائكة في قوم لوط مما يدل على زيادة اطمئنانه . ولم يذكر ذلك في الحجر ولا في الذاريات.

١٧ - ذكر من صفات المدح والثناء على إبراهيم في هود ما لم يذكره في الموضع الأخرى ، وذلك قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيدٌ﴾ . فدل ذلك على ما ذكرناه.

قصة لوط



وردت هذه القصة في الأعراف وہود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل والعنكبوت والصفات والذاريات والقمر.

ونقول ما قلناه في سائر القصص الأخرى إنها ليست متطابقة ، بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في موضع آخر بحسب ما يريد أن يركز عليه وبحسب السياق الذي وردت فيه .

والملحوظ في هذه القصة أنه لم يذكر فيها أن لوطاً دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده في جميع ما ورد منها ، وإنما ذكر أنه أمرهم بتقوى الله وذلك عندما راودوه عن ضيفه ، وذكر ذلك أيضاً في سياق ما ورد نحوه على لسان الرسل الآخرين وذلك في سورة الشعراء ، فكان الرسول يقول لقومه : ﴿إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا مُّبِينًا فَانقُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَرْكِبُوْنَ﴾ .

ونحو ذلك قال لوط لقومه .

إن التركيز في قصة لوط إنما هو على ذكر الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكور شهوة من دون النساء . وكانت هي السبب الرئيس لعقوبتهم واستئصالهم . وذلك إشارة - والله أعلم - أن ربنا قد يهلك عباده بالمعصية إن عمت وعظمت كما قال ربنا في هؤلاء القوم : ﴿إِنَّا مُنذِّرُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾ [العنكبوت : ٣٤] .



وحضر الظالمين في كل حين أن يفعل بهم ما فعل بقوم لوط فقال في الحجارة التي أمطرها عليهم : « وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعَيْدٍ » [هود: ٨٣].

١ - ففي سورة الأعراف ذكر أن لوطاً أنكر على قومه سوء فعلهم في أنهم كانوا يأتون الفاحشة ما سبّقهم بها من أحد من العالمين (٨٠).

فكان جواب قومه أن طلبوا إخراجه من القرية فإنهم أناس يتظاهرون.

فنجاه الله وأهله إلا امرأته ، وذكر أنه أمطر عليهم مطرًا ، ولم يذكر ما هذا المطر ، وما ماهيته .

وهذا ما ورد منها في سورة الأعراف :

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ أَرْجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ فَوْمٌ مُّسَرِّفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرِيَّتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَبْيَجَنَّهُمْ وَأَهْلَهُمْ إِلَّا امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَنِيرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذْقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ » [الأعراف : ٨٠ - ٨٤].

٢ - وأما في سورة هود فذكر ورود رسول الله على لوط على هيئة ضيوف وضاق بهم النبي الله لوط ، وجاءه قومه يهربون إليه . وحاول لوط منعهم ودفعهم ، وجرى بينه وبينهم كلام ومحاورة ، وحاول منعهم بعرض بناته عليهم فأبوا ، فأعلموا أنهم رسول ربه أرسلوا لعقوبة قومه ، وطلبوا منه أن يسري بأهله . ثم ذكر عقوبتهم وذلك أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل .

وهذا الجانب من القصة لم يرد في الأعراف ؛ وذلك لأنه كان أول تبليغ لهم فلا يناسب ذكر مجيء الرسل إليهم ، وإنما تأتي الرسل بعد

التبلیغ ومضي الزمن وإصرار القوم على ما هم عليه ، ثم بعد ذلك تأتي الرسل لعقوبة القوم .

فكان ذكر ذلك فيما بعد الأعراف هو المناسب .

٣ - وذكر في الحجر مجيء رسل ربهم إليه فأنكرهم ، فأخبروه بالغرض من مجئهم وطلبوه منه أن يسري بأهله وأن يتبع أدبارهم .

كما ذكر مجيء أهل القرية مستبشرين فحاول منعهم ، وعرض عليهم بناته . ثم ذكر عقوبتهم وهي الصيحة وأنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

وهذا ما ورد منها في هذه السورة :

﴿ فَلَمَّا جَاءَءَالْوُطِيلُرَسُولُونَ ﴾١١﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴾١٢﴿ قَالُوا بَلْ ِجَهْنَمَ كَيْمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾١٣﴿ وَأَتَيْنَاهُ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾١٤﴿ فَأَسْرِي بِأَهْلَكَ يَقْطَعُ مِنَ الْيَلَى وَاتَّبِعْ أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمِرُونَ ﴾١٥﴿ وَقَصَدِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَارَ هَوْلَاءَ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾١٦﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِيسَةَ يَسْتَبَشِرُونَ ﴾١٧﴿ قَالَ إِنَّ هَوْلَاءَ ضَيْفٍ فَلَا نَفْضَحُونَ ﴾١٨﴿ وَانْقُوا اللَّهُ وَلَا خَزِنُونَ ﴾١٩﴿ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾٢٠﴿ قَالَ هَوْلَاءَ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُ فَدَاعِينَ ﴾٢١﴿ لَعَمْرَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكَرٍ بَهْمَمْ يَعْمَهُونَ ﴾٢٢﴿ فَاخْذُهُمُ الصَّيْحَةُ مُشَرِّقِينَ ﴾٢٣﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ ﴾٢٤﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾٢٥﴿ وَإِنَّهَا لِسَيِّلٍ مُّقِيمٍ ﴾٢٦﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾٢٧﴾

٤ - وأما في الأنبياء فقد ذكر لوطاً بصورة موجزة ، وذكر أنه آتاه حكمًا وعلمًا ونجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث .

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا أَنْيَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سُوءً فَنَسِيقِينَ ﴾٢٨﴿ وَادْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾٢٩﴾ [الأنبياء : ٧٤ - ٧٥] .



٥ - وأما في الشعراء فقد بدأت القصة بما تبدأ به عموم قصص رسول الله في السورة: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُّوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ لُوطٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لِكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَأَنْقَوْا اللَّهَ وَأَطَّبَعُونِ ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْتَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٤].

ثم بكتهم على معصيتهم وسوء فعلهم وهو إتيان الذكور وترك الأزواج ، فهددوه إن لم ينته بإخراجه.

فدعاهن أن ينجيه وأهله ، فنجاه وأهله إلا عجوزاً في الغابرين ، ولم يذكر أنها امرأته ، وقد ذكر ذلك في مواضع أخرى .

ولم يذكر ضيفه . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُّوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ لُوطٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لِكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَأَنْقَوْا اللَّهَ وَأَطَّبَعُونِ ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْتَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ الْذِكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِيشُكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْلُوطُ لِتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّنِحْنِي وَأَهْلِ مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ فَنَجَّيْنَاهُمْ وَأَهْلَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَارِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرَيْنَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطْرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥].

٦ - وفي سورة النمل ذكر أنه بكتهم على سوء فعلهم من إتيان الفاحشة ، فكان جواب قومه أن طلبوا إخراجه من القرية ، فنجاه الله وأهله إلا امرأته وأمطر عليهم مطرًا و لم يذكر ما هذا المطر ، قال تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَحْمِلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهَا إِلَّا لُوطٌ مِنْ قَرِيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ

وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتُهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْفَدَرِينَ ﴿٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطْرًا
الْمُنْذَرِينَ ﴿٧﴾ [النمل : ٥٤ - ٥٨].

٧ - وأما في سورة العنكبوت فقد ذكر من سوء أفعالهم ما لم يذكره في الموضع الأخرى.

فقد ذكر إضافة إلى إتيان الرجال من دون النساء أنهم يقطعون السبيل ويتاون في ناديهם المنكر.

وتحدوه بأن يأتיהם بعذاب الله إن كان من الصادقين.

ثم ذكر مجيء ضيف إبراهيم بالبشرى ، فذهبوا بهم إلى قوم لوط وبromo
بهم فأمنوه وذكروا له أنهم منجوه وأهله إلا امرأته وأنهم منزلون على أهل القرية رجزاً من السماء ، ولم يذكر نوع هذا الرجز.

قال تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذَا قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحْشَةَ مَا سَبَقَ كُمْ بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١﴾ أَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي
كَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنَّ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾٢﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾٣﴾ وَلَمَّا
جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوْنَا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا
كَانُواظَالِمِينَ ﴾٤﴾ قَالَ إِنِّي فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنْهِيَنَّهُ
وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْفَدَرِينَ ﴾٥﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لَوْطًا سَرَّءَ
بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخْفَ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِوْكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَنَّكَ
كَانَتْ مِنَ الْفَدَرِينَ ﴾٦﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾٧﴾ وَلَقَدْ تَرَكَنَا مِنْهَا ءَايَةً بِيَنْكَةً لِقَوْمِ
يَعْقُلُونَ ﴾٨﴾ .

٨ - ولم يذكر في الصفات إلا أن لوطاً من المرسلين ، وأن الله نجا



وأهلها أجمعين إلا عجوزاً ، ولم يذكر أنها امرأته ، ثم ذكر أنه دمر الآخرين ، ولم يذكر كيف كان تدميرهم.

ثم ذكر أنهم - أي قريشاً - يمرون عليهم في أسفارهم في الليل والنهار.

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ لُوطًا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ بَجَيْتَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٢﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخَرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَإِنَّكُمْ لَمَرْوَنَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ﴿١٣٥﴾ وَبِالْيَلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

٩ - وأما في الذاريات فقد ذكر أن إبراهيم سأله ضيفه عن مهمتهم فذكروا أنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من طين معلمة بعلامة من عند ربه.

ثم ذكر أنهم أخرجوا المؤمنين فلم يجدوا فيها غير بيت واحد . وهذا لم يذكر في موضع آخر.

ثم ذكر أنه ترك فيها آية بينة للذين يخافون العذاب الأليم ، ولم يذكر ماذا فعل بهم غير ما ذكره الملائكة لإبراهيم.

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطِئْكُمْ أَيْهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ شَعْرَمِينَ ﴿٢٢﴾ لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ ﴿٢٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رِيَكَ الْمُسَرِّفِينَ ﴿٢٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَتَرَكَ كَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣٧ - ٣١].

١٠ - وأما في سورة القمر فقد ذكر تكذيب قوم لوط بالنذر ، وهو ابتداء عموم القصص في هذه السورة.

ثم ذكر أنه أرسل عليهم حاصباً ولم يذكر ذلك في موضع آخر.

وذكر أيضًا أنهم راودوه عن ضيفه وأنه طمس أعينهم ، ولم يذكر في موضع آخر أنه طمس أعينهم .

ثم ذكر أنهم صبغتهم العذاب ولم يذكر نوع ذلك العذاب .

قال تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطٌ بِالنَّذْرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا إِلَّا لُوطٌ بَجَّيَنَاهُمْ بِسَحْرٍ ۝ نَعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ بَخْرِي مَنْ شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَقُوا بِالنَّذْرِ ۝ وَلَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذَوْفُوا عَذَابًا وَنَذْرٍ ۝ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌ ۝ فَذَوْفُوا عَذَابًا وَنَذْرٍ ۝ وَلَقَدْ يَسَرَّنَا الْقُرْءَانُ لِلذَّكِيرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ ﴾

موقف قومه منه :

ذكر في الأعراف أنهم طلبوا إخراجه من القرية .

وأما في هود فقد ذكر موقفهم من ضيفه . وذكر أنهم جاؤوا يهربون إليه ، أي يشتدون في الإسراع إليه ، فحاول دفعهم فلم يقو على ذلك .

وفي الحجر ذكر أيضًا موقفهم من ضيفه وذكر أنهم جاؤوا يستبشرون ، وهو وصف لم يذكره في هود . فقد قال في هود إنهم جاؤوا مسرعين ، وذكر في الحجر أنهم جاؤوا مستبشرين وهو وصف آخر غير الإسراع .

وفي الشعراء ذكر أنهم هددوه بإخراجه من القرية إن لم يكف عنهم . وفي النمل طلبوا إخراجه .

وفي العنكبوت تحدوه بأن يأتيهم بعذاب الله إن كان صادقاً .

واما في القمر فقد ذكر أن قومه كذبوا بالنذر ، وأنه أندرهم بطشة ربهم فكذبوا بها ، وأنهم راودوه عن ضيفه فطمس الله أعينهم .

ويتبين من هذا أنهم هددوه أو طلبوا إخراجه من القرية في الأعراف والشعراء والنمل .



وذكر أنهم راودوه عن ضيفه في هود والحجر.

وذكر في العنكبوت أنه جاءته رسائل ربها وأنه ضاق بهم ذرعاً. ولم يذكر موقف قومه منه. ولم يذكر موقف مواجهة بينه وبين قومه في الموضع الأخرى.

عاقبة القوم:

١ - ذكر في الأعراف أنه نجاه وأهله إلا امرأته ، وأنه أمطر عليهم مطرًا ولم يذكر ما هذا المطر.

٢ - في هود ذكر أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ، وهذه الحجارة معلمة بعلامة خاصة.

٣ - وذكر في الحجر أنهم أخذتهم الصيحة مشرقين ، أي بعد شروق الشمس ، ولم يذكر الصيحة ولا هذا التوقيت في موضع آخر.

كما ذكر أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

فقد ذكر في هود أنه أمطر عليها يعني القرية.

وقال في الحجر أنه أمطر عليهم يعني القوم.

فدل ذلك أنه أمطر على القوم وعلى القرية. وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) في باب (الذكر والمحذف) سبب المغایرة بين التعبيرين .

٤ - ذكر في الشعراء أنه دمر غير المؤمنين وأمطر عليهم مطرًا ، ولم يذكر ما حقيقة هذا المطر ولا فصل فيه.

٥ - وقال في النمل: إنه أمطر عليهم مطرًا ، وهو نحو ما ذكر في الشعراء .

٦ - وقال في العنكبوت: إن الرسل وعدوه بإنزال رجز من السماء ،



وهو تعبير لم يذكر في الموضع الأخرى.

٧ - وفي الصافات ذكر تدمير قومه ، غير أنه لم يذكر كيف كان تدميرهم .

٨ - وفي الذاريات ذكر الرسل لإبراهيم أنهم مرسلون إلى قوم لوط لإنزال حجارة من طين عليهم ، مسومة أي معلمة بعلامة خاصة .
فذكر أن الحجارة من طين .

٩ - وذكر في سورة القمر أنه أرسل عليهم حاصبا ، وأنه صبّهم بكرة عذاب مستقر ، أي في أول النهار .

ومن هذا يتضح أنه ذكر المطر على العموم في الأعراف والشعراء والنمل .

وذكر إِمْطَارُ الْحَجَرَةِ فِي هُودٍ وَالْحَجْرِ وَالْذَّارِيَاتِ .

وذكر إِنْزَالُ الرِّجْزِ فِي الْعَنْكَبُوتِ .

وذكر إِرْسَالُ الْحَاصِبِ فِي الْقَمَرِ .

ومن الملاحظ أنه ذكر إِمْطَارُ الْمَطَرِ بعد تبكيت قومه على فعل الفاحشة .

وذكر إِمْطَارُ الْحَجَرَةِ وَجَعَلَ عَالِيَّهَا سَافِلَهَا عِنْدَ مَجِيءِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ مُسْرِعِينَ عَنْدَمَا عَلِمُوا بِمَجِيءِ الضَّيْوَفِ وَمُحاوَلَةِ دُفَعِهِمْ بَيْنَهُ . وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْقَفِ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ تَبَكِيَّاً عَلَى فَعْلٍ قَدْ لَا يَكُونُ مُوجُودًا فِي أَثْنَاءِ دُعْوَتِهِ لَهُمْ .

وأما الموقف الآخر فهو المجيء لتنفيذ هذا الفعل السيء والإصرار عليه ومحاولة دفعهم بيناته ، فرفضوا . وهذا قلب للفطرة التي خلق الله الناس عليها ، فقلب الله عليهم الأرض كما قلبوها الفطرة . فاشتد عليهم



العذاب لما كان الموقف أشد.

ولما لم يكن في الذاريات مراودة ولا مجيء الضيوف إلى لوط لم يذكر قلب عاليها سافلها.

وذكر إنزال الرجز في العنكبوت لما ذكر من معاصيهم ما هو أكثر مما ذكر فيه إنزال المطر.

والرجز أشد من المطر لأن الرجز هو العذاب. وأما المطر فقد لا يكون عذاباً في أصل التعبير في اللغة.

وأما في القمر فإنه ذكر الحاصل مناسبة لما ذكر من طمس أعينهم؛ لأنه كأنه حصبهم فسقط من ذلك في أعينهم فطمسها ، وإن كان المقصود بذكر الحاصل هو ما ذكر من العذاب ، غير أن ذكره كان مناسباً لطمس أعينهم. والله أعلم.

نجاة المؤمنين:

ذكر في الأعراف والنمل والعنكبوت نجاته وأهله إلا امرأته.

وأما في هود فقد طلب منه الإسراء بأهله إلا امرأته ، ولم يصرح بنجاته ومن معه.

وكذلك في الحجر فإنه طلب منه الإسراء بأهله وأن يتبع أدبارهم ولم يذكروا امرأته ، لأنهم ذكروا في القصة نفسها لنبي الله إبراهيم أنهم منجون آل لوط إلا امرأته ، فلم يعيدوا ذكرها مرة أخرى.

وفي سورة الأنبياء ذكر أنه نجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ولم يذكر أهله معه.

وفي الشعراء والصفات ذكر أنه نجاه وأهله إلا عجوزاً في الغابرين ، ولم يذكر أنها امرأته ، وقد مر بيان هذه العجوز في مواضع أخرى.



وذكر في الذاريات أنه لم يجدوا في القرية غير بيت واحد من المسلمين . ومعنى ذلك أنه لم يؤمن له إلا آل بيته عدا امرأته .

وقد ذكر ذلك أيضاً في سورة القمر بقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا إِلَّا لُوطٌ بَحَّنَتْهُمْ سَحَرٌ ﴾ [القمر : ٣٤] فقد استثنى آل لوط وهم أهله .

ومن الملاحظ أنه لم يذكر ناجياً معه غير أهله في جميع المواقع ، مما يدل على أنه لم يؤمن له من القرية أحد غير أهل بيته إلا امرأته .

قد تقول لقد قال في أكثر من موضع : ﴿ فَأَسْرِي أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الْلَّيلِ ﴾ وذلك في هود والحجر ، فذكر القطع من الليل .

وقال في موضع آخر : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ فذكر الصبح وليس الليل .

وقال : ﴿ فَاخْذُوهُمُ الصَّيْحَةَ مُشَرِّقَيْنَ ﴾ .

وقال في القمر : ﴿ بَحَّنَتْهُمْ سَحَرٌ ﴾ .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَبَحُوكُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌ ﴾ أي عند الصباح .

فما حقيقة الأمر أهي النجاة في الليل أم في الصبح ؟

فنقول : إن النجاة كانت في الليل ، فقد طلب منه الإسراء في ذلك الوقت .

وأما نزول العذاب فهو عند الصبح ، ذلك أن النجاة لم تكن في وقت نزول العذاب بل قبله .

ومن الملاحظ أنه ذكر دعاءه بالنجاة في الشعراة وذلك قوله : ﴿ رَبِّ يَخْنُونَ وَأَهْلِ مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ، ودعاه بالنصر في العنکبوت وذلك قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكل مناسب لموضعه ، ففي الشعراة بعد أن بكتهم على إتيان الذكر ان



وترک الأزواج هددوه إن لم ينته بإخراجه من القرية فقال لهم : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمْلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ ١١٦ رَبِّنَا حَنْفِي وَأَهْلِنَا مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فلما ذكر قلاه وبغضه لعملهم دعا ربها أن ينجيه وأهله من عملهم .

وأما في العنكبوت فقد ذكر إضافة لعملهم الفاحشة أنهم يقطعون السبيل ، وهو عدوان على عباد الله ، فدعا بالنصر عليهم وليس مجرد نجاته منهم . فإن نجاته منهم لا تمنعهم من ذلك ، وإنما النصر عليهم هو الذي يمنعهم فدعا بالنصر عليهم . وكل مناسب لموضعيه .

* * *

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوكَاتِ سَيِّئَةَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

[هود : ٧٧]

﴿ سَيِّئَةَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي لحقته المساعدة بسببهم وضاق ذرعه بهم ، أي ضاق صدره بمجيئهم .

والذرع يوضع موضع الطاقة والجهد ، «يقال : ضقت بالأمر ذرعاً إذا لم تطقه ولم تقو عليه .

وأصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد مددت يدي إليه فلم تنهه . . . ونصبه على أنه تميز محول عن الفاعل ، أي ضاق بأمرهم وحالهم ذرعاً^(١) .

والتحويل عن الفاعل إلى التمييز إنما يكون بقصد المبالغة والشمول مثل قولنا (اشتعلت نار البيت) و(اشتعل البيت ناراً)^(٢) .

* * *

(١) روح المعاني ١٢ / ١٠٥ وانظر البحر المحيط ٤٦ / ٥ ، تفسير الرازى ٦ / ٣٧٨ .

(٢) انظر كتابنا (معانى النحو) ج ٢ - باب التمييز .

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

«أي شديد ، وأصله من العصب بمعنى الشد ، كأنه لشدة شره عصب بعضه ببعض ، وقال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر»^(١). والآية أظهرت غاية الضيق بمكаниهم ، فإنها ذكرت أنهم أدخلوا المساءة عليه ، وهذه حالة أولى.

ثم ذكر حالة بعدها أشد وهي أنه ضاق بهم ذرعاً ، وهذه أشد من مجرد المساءة ، فإنه قد يسيء مجيء شخصاً ولكن قد لا يسيء به ذرعاً فيكون تحمله فوق طاقته .

ثم إنه لم يكتم ذلك في نفسه بل صرخ به وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ .

ثم انظر كيف وصف ضيقه بأن حول الفاعل إلى تمييز بقصد المبالغة فقال: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ والأصل: فضاق ذرعه بهم ، وكيف وصف اليوم بأنه (عصيب) ، ولم يقل: (هذا أمر عصيب) أو (هذا شيء عصيب) بل جعل الشدة لليوم كله ، وذلك لاشتمال الشدة على اليوم وليس على أمر فيه .

ثم إن الوصف بالعصيب له دلالته ، فإنه لم يقل: (هذا يوم شديد) وذلك أن الوصف بعصيب أشد ؛ ذلك لأنه كأنه يعصب الإنسان بالشر ، وأنه معصوب ببعضه ببعض ، فالشر متصل فيه .

وقد بحثنا في كتابنا (التعبير القرآني) الفرق بين قوله هنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُطَاطِسِيَّةَ بِهِمْ﴾ ، وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُطَاطِسِيَّةَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] بزيادة (أن) في آية العنكبوت . فلا نعيد القول فيه^(٢) .



(١) روح المعاني ١٢ / ١٠٥ .

(٢) التعبير القرآني - باب الذكر والحدف ١٢٧ - ١٢٩ .



﴿وَجَاءُهُ قَوْمٌ مِّنْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ فَالْيَقَوْمُ هَؤُلَاءِ
بَنَاقِ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ فِي ضَيْفَيِّ الْيَسَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾

[هود: ٧٨]

لقد قال: ﴿وَجَاءُهُ قَوْمٌ﴾ على العموم ، ولم يقل: (نفر من قومه) أو جماعة منهم ، للدلالة على شيوخ هذه الفاحشة فيهم . فالقوم كلهم جاؤوا يهرون إليه ، كما قال في موضع آخر: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةَ يَسْتَبِّشُونَ﴾ فإن أهل المدينة كلهم جاؤوا إليه وليس مجموعة منهم . وقلنا: (كلهم) لأنهم أهلكوا أجمعون لم يستثن أحداً منهم .

﴿يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي «يسرون كأنما يدفعون دفعاً» ^(١).

﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي كانوا مستمرين على عمل السيئات وإن ذلك كان «ديدنهم وعادتهم أصرروا على ذلك ومرروا عليه» ^(٢).

لقد قال: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ولم يقل: (ومن قبل عملوا السيئات) وذلك للدلالة على أن هذه عادتهم .

﴿فَالْيَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاقِ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ فِي ضَيْفَيِّ
ناداهم بـ (يا قوم) تعطفاً لقلوبهم ، وعرض عليهم بناته وقال: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ
لَكُمْ﴾ فجاء بالضمير (هن) ، ولم يقل: (هؤلاء بناتي أطهر لكم) ليدل على قصر الظاهر فيهن وأنه ليس وراء ذلك طهر .

ودعاهم إلى تقوى الله ومراعاة حق الضيف ، كل ذلك ليرشدوا ويرعوا ، ثم قال متحسراً منكراً عليهم بما ملأه الأسى ومستثيراً لذوي

(١) الكشاف ١٠٨/٢.

(٢) البحر المحيط ٢٤٦/٥.

اللب إن كان فيهم من هو كذلك ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ «يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح»^(١).

فقد ترى أنه حاول دفعهم بكل ما يستطيع :

- ١ - بمناداتهم (يا قوم) تعطفاً لقلوبهم .
- ٢ - وعرض ما هو أفضل وأطهر .
- ٣ - ودعوتهم إلى تقوى الله وأن يخشوا عقابه .
- ٤ - وإلى مراعاة حرمة الضيف .
- ٥ - وأن لا يُخجلوا ويُخزروا واحداً من قومهم فيفضحوه ويسئوا إلى سمعة القرية .
- ٦ - ودعا ذوي اللب والرشد إن كان فيهم أحد كذلك ينصح هؤلاء الرعاع .

ومن أين يأتي الرشد إذا كانوا كلهم جاؤوا مسرعين إليه !

* * *

﴿فَالْوَلُوْلَقَدْ عِلِّمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]

فأجابوه أن ليس لهم في بناته أرب ولا غرض ، وإنك تعلم غرضنا وما نريد ، فلا تدعنا إلى ما ليس لنا فيه أرب ولا إرادة.

وجيء بالمؤكدات كلها في هذا التعبير :

- ١ - فقد قالوا : (لقد) فأكدوا ذلك بالقسم ، فإن (لقد) قسم كما هو معلوم .



- ٢ - قالوا: (علمت) فجعلوا ذلك من علمه وأنه ليس من باب الظن.
- ٣ - وجاؤوا بالجملة الاسمية المنافية بـ (ما) للدلالة على ثبوت هذا الأمر ووكادته ولم يقولوا: (ليس لنا في بناتك من حق).
- ٤ - وجاؤوا بـ (من) الدالة على الاستغراق والتوكيد ليبيّنوا على أنه ليس لهم أي غرض في بناته وذلك على سبيل الاستغراق والشمول.
- ٥ - وأكدوا علمه بما يريدون بـ (إن) واللام فقالوا: ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ .
فقد أكدوا علمه أولاً بأنه ليس لهم في بناته من حق.
وأكدوا علمه بما يريدون بعد ذلك.
- ٦ - ثم إن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ يحمل عدة معان: منها: أن (ما) اسم موصول فيكون المعنى: إنك تعلم الذي نريده ، وحذف العائد.
ومنها: أن تكون (ما) مصدرية فيكون المعنى: وإنك لتعلم إرادتنا.
ويحتمل أيضاً أن تكون (ما) استفهامية فيكون المعنى: وإنك لتعلم ما الذي نريده .
وهذه المعاني كلها محتملة:
 فهو يعلم الذي يريدونه ، ويعلم إرادتهم . ويعلم أي شيء يريدون .
 ولو قال: (لتعلم ما نريده) لانتفى احتمال المصدرية .
 ولو قال (لتعلم الذي نريده) لانتفى احتمال الاستفهامية والمصدرية .
 ولو قال: (لتعلم ماذا نريد) لتعينت الاستفهامية وانتفى احتمال ما عداتها .

وجاء بهذا التعبير ليحتمل كل المعاني ، وهي كلها مراده ومطلوبه ، فهو يعلم إرادتهم على العموم ، ويعلم الذي يريدونه في مجئهم هذا ، ويعلم ما الذي يريدونه .

قد تقول : ولكن لا يتبيّن وجه الاختلاف في المعنى من كل تعبير ، فهو في النتيجة يدل على أمر واحد وهو أنه يعلم غرضهم .

فنتقول : نعم إنه يعلم غرضهم ولكن لكل تعبير معنى خاص به .

فقولك : إنك تعلم إرادتنا ، معناه أنك تعلم رغبتنا في أي شيء تكون ، فهو يعلم إرادتهم مطلقاً سواء في هؤلاء أم في غيرهم ، وسواء كان هناك ما يتحقق الرغبة أم لا .

وقولك : إنك تعلم الذي أريد ، يدل على أمر معين يطلبه .

فـ (الذي) اسم موصول معرفة ، والمعرفة ما دل على شيء معين .

وأما قولك : إنك تعلم ماذا أريد ، فمعناه أنك تعلم أي شيء أريده على وجه العموم .

فال المصدر يدل على العلم بالحدث ، والاسم الموصول يدل على شيء معين ، والاستفهام يدل على عموم ما يريد ، فهو يدل على علمه بجواب الاستفهام .

ومن الملاحظ أنه قدم هنا عرض بناته على قومه قبل ذكر الضيف فقال : ﴿ قَالَ يَقُولُهُتُؤْلَاءِبَنَاتِهِ هُنَّأَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُزُونَ فِي ضَيْفِي ﴾ ذكر البنات ثم ذكر الضيف بعد ذلك .

وقدم في الحجر ذكر الضيف قبل عرض البنات قائلاً : ﴿ قَالَ إِنَّهُتُؤْلَاءِضَيْفِي فَلَا تَنْقَضُونَ ﴾ ﴿ وَلَنَقْرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُزُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَاكَ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ هُتُولَاءِبَنَاتِهِ إِنْ كُثُرْ فَنَعِلِينَ ﴾ [الحجر : ٦٨ - ٧١] .



ذلك أنه في هود لم يجر حديث مع الضيف ولا حوار قبل مجيء القوم ، وإنما كان الكلام مع أهل المدينة في غيبة الضيف ، فلم يجر مع الضيف حديث بعد ، فحاول الدفع ببناته .

وأما في الحجر فإنه كان له حديث مع الضيف قبل مجيء قومه ، فقد قال لضيوفه : ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنَكَّرُونَ ﴾١٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتَيْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر : ٦٤ - ٦٢] فكان مع ضيوفه حديث ومحاورة ، فلما جاء أهل المدينة أشار إلى ضيوفه : ﴿قَالَ إِنَّ هَذِهِ آئِشَّةٌ ضَيْفَى فَلَا نَفْضَحُونَ ﴿١٤﴾ وَأَنْفَوْا أَلَّهَ وَلَا يُخْزِنُونَ﴾ [الحجر : ٦٨ - ٦٩] .

فلما كان الحديث مع الضيف ناسب تقديمهم والإشارة إليهم في الحجر .

ولما لم يكن مع ضيوفه كلام في هود بل لا يزال الحديث مع قومه والضيوف غائبون لم يشر إليهم لأنهم غير حاضرين ، فقدم عرض بناته أولاً .

فناسب كل موضعه .

* * *

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي يَكْثُرُ قُوَّةً أَوْ أَوْيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠]

أي لو أن لي طاقة فأمنعكم «يقال : ما لي به قوة وما لي به طاقة . ونحوه ﴿لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا﴾ وما لي به يدان ؛ لأنه في معنى : لا أضطلع به ولا أستقل به .

والمعنى : لو قويت عليكم ببنيتي أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمعن به فيحميني منكم . فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعه . ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه : إن رركنك لشديد .

وقال النبي ﷺ «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»^(١).

قال ذلك سيدنا لوط على سبيل التفجع والتمني.

فهو تمنى أن يكون له قوة في نفسه أو يكون له من يأوي إليه فيستعين به على دفعهم.

جاء في (تفسير الرازي) : «واعلم أن قوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ إِمْكَانًا إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة ، وفيه وجوه :

الأول : المراد بقوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ كونه بنفسه قادرًا على الدفع ، وكونه متمكنًا إما بنفسه وإما بمساعدة غيره على قهرهم وتأديبهم.

الثاني : والمراد بقوله : ﴿أَوْ إِمْكَانًا إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته.

الثالث : أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ، ثم استدرك على نفسه وقال : بل الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعنابة الله تعالى»^(٢).

ويحتمل أن تكون (لو) شرطية وفيها معنى التمني حذف جوابها ليذهب الذهن كل مذهب فيما سيفعله لردعهم ، نظير قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَئَ إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْلَأْتَكُهُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدَبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] أي لرأيت شيئاً مهولاً لا يقدر على وصفه.

جاء في (الكساف) : «جواب (لو) ممحوف كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ

(١) الكشاف ١٠٨/٢ .

(٢) تفسير الرازي ٦/٣٨٠ .



فَرَأَهُ أَنَا سِرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت^(١). وجاء في (تفسير الرازبي): «وَحَذَفَ الْجَوابَ هُنَّا لِأَنَّ الْوَهْمَ يَذَهِبُ إِلَى أَنْوَاعِ كَثِيرَةٍ مِّنَ الْمَنْعِ وَالدَّفْعِ»^(٢).

وجاء بـ (لو) ولم يأت بـ (ليت) فيقول: (ليت لي بكم قوة) ليشمل معنوي التمني والشرط إضافة إلى حذف الجواب للعموم.

* * *

﴿قَاتُلُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرِّ بِآهَالِكَ بِقِطْعَ مِنَ الْأَنْلَلِ وَلَا يَلْدِفْتَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبُحُ أَلَيْسَ الصُّبُحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]

نادوه باسمه ليعلموه أنهم يعرفونه فيستمع إليهم. ثم أمنوه بقولهم: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ﴾ وأضاف الرب على ضمير المخاطب ليدل على أنه ربه القيم على أمره والمتولي أمره هو الذي أرسلهم إليه فيكون أدعى إلى تطمئنه.

والرسول إنما يرسل ليبلغ رسالة فطمأنوه بقولهم: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

وجاء بـ (لن) المؤكدة الدالة على الاستقبال ليدل على أنهم لا يستطيعون أن يؤذوه في المستقبل إضافة إلى الحال فليطمئن.

وقال: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ ولم يقل: (لن يؤذوك) ذلك أنه نفي الوصول فانتفى الأذى من باب أولى.

فإنه لو قال: (لن يؤذوك) لاحتمل الوصول إليه من غير أذى فيناله منهم إزعاج وانقباض نفس.

(١) الكشاف ٢/١٠٨.

(٢) تفسير الرازبي ٦/٣٨٠.

ولكن نفى ما هو أبعد من ذلك ، فنفى الوصول إليه فانتفى الأذى . ثم أبلغوه رسالة ربه بقولهم : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الْيَلِ﴾ والقطع من الليل : الطائفة منه ، أو بقطعة منه^(١) أي لا تتأخر إلى الصبح .

﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾

الهاء ضمير الشأن وهي تفيد تعظيم ما يصيبهم وتهويه .
و(مصيبها) خبر مقدم وليس مبتدأ ، ذلك لأن الإضافة غير محضة .
فإن اسم الفاعل ههنا للاستقبال فهو نكرة .

و(ما أصابهم) معرفة فهو مبتدأ مؤخر . وقدم الخبر المتصل بضمير المرأة لأن الكلام عليها والاهتمام بذكر عاقبتها .

وقال : ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ فجاء بالاسم الموصول (ما) الدال على العموم والإبهام للدلالة على عظم ما يصيبهم .

وقال : ﴿مُصِيبُهَا﴾ ولم يقل : (يصيبها) للدلالة على ثبات ذلك وتحققه .

وقال : ﴿أَصَابَهُمْ﴾ بالفعل الماضي ولم يقل : (يصيبهم) وذلك للدلالة على تحقق الواقع .

فانظر كيف أكده ببيان وجاء بضمير الشأن ، وعدل عن الفعل إلى الاسم في (مصيبها) ، وقدم الخبر ، وجاء بـ (ما) الدالة على الإبهام ، وعدل عن الفعل المضارع إلى الماضي في (أصابهم) للدلالة على عظم ما سيحل بهم وتحققه .

جاء في (روح المعاني) : «وضمير (إنه) للشأن ، و(ما أصابهم) مبتدأ ، و(مصيبها) خبره ، والجملة خبر إن . . . والمراد من (ما) العذاب ، ومن (أصابهم) يصيبهم ، والتعبير به دونه للإيدان بتحقيق الواقع . وفي



الإبهام ، واسمية الجملة ، والتأكيد ، ما لا يخفى»^(١).

* * *

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبُحُ أَلَيْسَ الصُّبُحُ بِقَرِيبٍ﴾

أي موعد هلاكهم^(٢). وقدم الموعد لأنه هو المقصود والمطلوب لسيدنا لوط .

وقوله: ﴿أَلَيْسَ الصُّبُحُ بِقَرِيبٍ﴾ يشعر باستطالة سيدنا لوط للوقت وكأنه يريد أسرع من ذلك.

وهذا بين مقدار مساعته وضيق ذرعه ومقدار برمته بقومه.

«ويروى أن لوطاً عليه السلام قال: أريد أسرع من ذلك ، فقالت له الملائكة: أليس الصبح بقريب»^(٣).

وفي المجيء بالاستفهام التقريري وزيادة الباء في خبر (ليس) دون القول (إن الصبح لقريب) أو نحو ذاك ما لا يخفى.

وعلى أية حال هو يدل كما ذكرنا على مقدار برمته وضيق ذرعه.

* * *

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَذِيلَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِيلٍ مَّنْصُودٍ﴾ [هود: ٨٢]

جاء بالفاء للدلالة على القرب ذلك أن موعدهم الصبح وهو قريب من وقت إخبارهم له.

و(الأمر) يتحمل واحد الأوامر أي الأمر بالعذاب ، بمعنى أمرناهم

(١) روح المعاني ١١٢/١٢.

(٢) البحر المحيط ٢٤٩/٥.

(٣) البحر المحيط ٢٤٩/٥.

بذاك . كما يحتمل واحد الأمور بمعنى الشأن كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] ، قوله : ﴿لَقَدْ أَتَسْفَعُوا أَفْتَنَةً مِنْ قَبْلٍ وَكَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبه : ٤٨] .

جاء في (روح المعاني) : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا ، أو الأمر به .

فالأمر على الأول : واحد الأمور ، وعلى الثاني : واحد الأوامر^(١) .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾ قيل في (السجيل) إنها كلمة معربة من سنكلل ومعناها حجر وطين مختلط^(٢) ، وقيل : ماء وطين^(٣) .

ولعل لفظ (السجيل) مأخوذه من (السجل) بكسر السين وسكون الجيم بمعنى الصلب الشديد^(٤) .

و(السجيل) بفتح السين : الصلب الشديد ، والسجيل : حجارة كالمدر^(٥) . وقال أبو عبيدة هو : «الشديد من الحجارة الصلب»^(٦) .

(منضود)

متتابع أرسل بعضه إثر بعض^(٧) كقطار الأمطار^(٨) .

وذكر هنا وفي الحجر أن الحجارة من سجيل ولم يقل كما قال في الذاريات : ﴿لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات : ٣٣] وذلك لأنه ذكر من

(١) روح المعاني ١٢/١٢ .

(٢) مفردات الراغب (السجيل) ، وانظر الكشاف ٢/١٠٩ .

(٣) البحر المحيط ٥/٢٤٩ .

(٤) انظر القاموس المحيط (السجل) .

(٥) لسان العرب (سجل) .

(٦) البحر المحيط ٥/٢٤٩ ، وانظر روح المعاني ١٢/١١٣ .

(٧) انظر الكشاف ٢/١٠٩ .

(٨) روح المعاني ١٢/١١٣ .

معاصيهم ومواقفهم في هود والحجر ما لم يذكره في الذاريات ، فجاء بما يدل على شدة هذه الحجارة وصلابتها في السورتين دون الذاريات .

فكان كل تعبير مناسباً لموضعه .

وذكر في (هود) أنه منضود أي متتابع ، ولم يذكر ذلك في الحجر ، وذلك لأنه قال في هود : ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] ولم يقل مثل ذلك في الحجر .

فلما زاد في وصف الحجارة في هود فقال : ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ... زاد في الوصف فقال : (منضود) .

ثم إنه لما قال إن مثلها يمكن أن يكون للظالمين على وجه العموم وليس ذلك مختصاً بقوم لوط جاء بـ (منضود) للدلالة على الكثرة . والمنضود هو الذي نصد بعضه فوق بعض ، أي تتابع ، فناسب ذكر ذلك في هود .

* * *

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ .

مسوّمة ، أي عليها سيماء ، وهي العلامة يعلم من شاهدها أنها ليست من حجارة الأرض ^(١) .

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ .

«أي الحجارة الموصوفة بما ذكر .

(من الظالمين) من كل ظالم .

(بعيد) فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها . وفيه وعيد لأهل الظلم كافة» ^(٢) .

(١) البحر المحيط / ٥ ، وانظر روح المعاني ١١٣ / ١٢ .

(٢) روح المعاني ١١٤ / ١٢ .



وقال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ ولم يقل: (وليس من الظالمين بعيداً) أو (بعيد) فجاء بالجملة الاسمية المنسية بـ(ما) وزاد الباء في الخبر لتأكيد عدم بعدها عنهم.

وقال: (بعيدة) ولم يقل: (بعيدة) لأنه لا يريد البعد في المكان بل أراد البعد في الواقع.

وقدم الجار وال مجرور (من الظالمين) على متعلقه (بعيد) وذلك لأن الكلام على الظالمين وهم مدار الحديث ، والعقوبة إنما كانت لهم.

وقد تقول: أليس من الأولى لو قال: (وليس هي من الظالمين بعيد) فيؤكّد الضمير المستتر في (ليست) فيفيد ذلك زيادة في التوكيد؟

فنقول: لا ، وذلك لعدة أوجه:

منها: أن ذلك لا يخرجها عن كونها جملة فعلية ، والاسمية أثبتت من الفعلية وآكد.

ومنها: أن النفي بـ(ما) أقوى وآكد من النفي بـ(ليست) ^(١).

والأمر الآخر: أنه لو قال: (وليس هي من الظالمين بعيد) لاحتمل أنه يفيد اختصاص عدم البعد بهذه العقوبة دون غيرها ، أما غيرها من العقوبات فقد يكون بعيداً منهم.

وهذا المعنى غير مراد ولا يصح.

أما في الآية فإنه ذكر عدم بعد أمثال هذه العقوبة من الظالمين ولم يخصها بالبعد بل قد يعاقبهم بغيرها.

* * *

قصة مدين وشعيب

قال تعالى :

﴿ وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُرْ شَعِيْبَا قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا نَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرْدِكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾٨٤﴿ وَيَقُولُمْ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾٨٥﴿ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيْظٍ ﴾٨٦﴿ قَالُوا يَقُولُمْ شَعِيْبٌ أَصْلُوْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَرَكَ مَا يَعْبُدُءَ ابَاقُونَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوْلُ إِنَّكَ لَأَنَّكَ الْحَلِيمُ الْرَّشِيدُ ﴾٨٧﴿ قَالَ يَقُولُمْ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزْقِنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِلَصْلَاحَ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾٨٨﴿ وَيَقُولُمْ لَا يَجِرْ مَنَكُمْ شَقَاقٌ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحَ أَوْ قَوْمَ هُودَ أَوْ قَوْمَ صَلَحَ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِعَيْدٍ ﴾٨٩﴿ وَأَسْتَغْفِرُو رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحْمَةٍ وَدُودٍ ﴾٩٠﴿ قَالُوا يَقُولُمْ شَعِيْبٌ مَا فَقَهَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِدُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لِرَجْمَنَكَ وَمَا أَنَّكَ عَيْتَنَا بِعَزِيزٍ ﴾٩١﴿ قَالَ يَقُولُمْ أَرَهْطِي أَعْزُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَنْخَذْ شُمُوْهُ وَرَأْءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي إِنَّمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٍ ﴾٩٢﴿ وَيَقُولُمْ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِيلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَمَّا يَأْتِيَهُ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾٩٣﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا بِجَنَاحِنَا شَعِيْبًا وَالَّذِينَ أَمْنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاصْبَحُوْهُ فِي

دَيْرِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٩٦﴾ كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا أَلَا بُعدًا لِمَدِينَ كَمَا بَعَدَتْ شَمُودُ ﴿٩٧﴾ . [هود: ٨٤ - ٩٥].

* * *

وردت هذه القصة في الأعراف وهود ، ووردت لها إشارة قصيرة في العنكبوت مقدارها آيتان . قال تعالى : « وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا فَقَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٢٧﴾ » [العنكبوت : ٣٦ - ٣٧].

إن ما ورد في هاتين الآيتين إنما هو تلخيص لما مرّ من قصة شعيب مع مدين .

فقد ذكر دعوته لهم ملخصة بقوله : « يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » [العنكبوت : ٣٦].

فذكر ما يتعلق بالعقيدة وهو قوله : « أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ » وذكر سلوكهم في الأرض وهو قوله : « وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » ثم ذكر موقفهم وعاقبتهم بأوجز تعبير وذلك قوله : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ». .

لقد ذكرنا ما ورد من هذه القصة في سورتي الأعراف وهود والتشابه والاختلاف فيها في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) فلا نعيد القول فيها.

غير أننا سنذكر إشارات بيانية قليلة في هذه السورة مما لم نذكره في ذلك الموضع .

قال تعالى : « وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّ أَرْدَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَدَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُومُ أَوْفُوا الْمِكَيَالَ وَالْمِيزَانَ

بِالْقِسْطِ لَا تَبْخَسُوا أَلْتَاسَ أَشْيَاءَهُمْ لَا تَعْثَوْفُ أَلْأَرْضَ مُقْسِدِينَ ﴿٦﴾ بَقَيْتُ
اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦]

لقد قال أولاً: «وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَيَالَ وَالْمِيزَانَ» فنهاهم عن النقص فيهما ، ثم قال بعد ذلك: «أَوْفُوا الْمِكَيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ» فأمرهم بالإيفاء. قيل: ومن المعلوم أن عدم النقص يعني الإيفاء ، فكان الأمر بالإيفاء كالترکار لما سبق.

جاء في (الكساف): «إِنْ قَلْتَ: النَّهَى عَنِ النَّقْصَانِ أَمْ بِالْإِيْفَاءِ فَمَا
فَائِدَةُ قَوْلِهِ: (أَوْفُوا)؟

قلت: نُهُوا أولاً عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ؛ لأن في التصریح بالقبيح نعيًا على المنهي وتعبيرًا له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحًا بلفظه لزيادة ترغیب فيه وبعث عليه» ^(١).

وييمكن أن يقال: إنه بدأ بالنهي عن النقص في المكيال والميزان لأن ذلك أسبق من الإيفاء ، فإنه لا بد أن يكون حجم المكيال وما يتعلق بالميزان سالماً من النقص حتى يكون الإيفاء بالقسط ، فإن لم يكونا سليمين فلا يكون إيفاء بالقسط ، فنهى عن نقص المكيال والميزان أولاً ثم أمر بالإيفاء بالقسط بعدهما فلا يكون تكراراً ، وإنما قدم السبب على المسبب.

وقد يكون ذلك لتعظیم هذا الأمر فيكون ذلك كالتوکید وذلك نحو قوله: (أقول له ارحل لا تقيم عندنا) فقوله: (لا تقيم عندنا) بمعنى ارحل.

(١) الكشاف ١٠٩/٢ ، وانظر البحر المحيط ٥/٢٥٢.

ونحو قوله: (امش لا تقف) و(استيقظ لا تنم) وذلك غير عزيز في اللغة. وهو من الحسن بمكان إذا اقتضاه الحال.

وأما تقييده بالقسط وهو العدل فلا إعطاء كل ذي نصيب نصيبه من دون بحسن ، و اختيار (القسط) هنا أنساب من العدل ؛ وذلك لأن من معاني القسط : الحصة والنصيب .

والغرض من الكيل والوزن أن يأخذ الشخص نصيبه ، فناسب ذلك ذكر القسط .

هذا إضافة إلى أنه لم يذكر مع الوزن في القرآن غير القسط ، وهو أنساب .

﴿إِنِّي أَرِنَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ .

أي إنكم في سعة من العيش ورخص في الأسعار فلماذا تلجأون إلى نقص المكيال والميزان ، فاستديموا هذا الخير بإعطاء كل ذي حق حقه حتى لا يزول عنكم ما أنتم فيه من الخير .

جاء في (الكتاف) في قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَرِنَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ : «يريد بشروة واسعة تغريك عن التطفيف أو أراكם بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه» ^(١) .

وقال : ﴿إِنِّي أَرِنَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ ولم يقل : (وإنكم بخير) فجعل خيرهم ظاهراً للعيان يبدو للرأي وليس أمراً مستوراً كمن يخفى ما عنده من الخير .

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ .

(١) الكشاف ١٠٩/٢ ، وانظر البحر المحيط ٥/٢٥٦ ، روح المعاني ١٢/١١٤ .

وصف اليوم بالإحاطة ولم يقل (إنني أخاف عليكم عذاباً محظياً) فجعل اليوم محظياً بهم لا ينفك عنهم ساعة ، وذلك أبلغ وأعم . ولو قال : (إنني أخاف عليكم عذاباً محظياً) لجعل العذاب محظياً بهم وقد يكون ذلك في ساعة من ساعات اليوم أو وقت من أوقاته ، فجعل العذاب شاملاً طوال اليوم .

جاء في (الكساف) : «وأصله من إحاطة العدو .

فإن قلت : وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها؟
قلت : بل وصف اليوم بها ؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه » ^(١) .

﴿ وَلَا تَبْخُسُوا أَلْتَاسَ أَشْيَاءَ هُمْ ﴾

جاء ذلك بعد قوله : ﴿ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ . وهو أعم من إيفاء المكيال والميزان ، فإن البخس قد يكون في غير ما يقال وما يوزن من نحو الاستئجار والتأجير وبيع أو شراء ما لا يقال أو يوزن كالبساتين والدور وعموم الأموال وعموم ما يشتري أو يباع ، وتقويم البضائع وغيرها من الأمور . قال تعالى في يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ بِشَمَنْ بَخْسٍ دَرَّهُمْ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : ٢٠] .

وقال في كتابة الدين : ﴿ وَلَيُمْلِكَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيَسْتَقِي اللهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وقال في توفيته للأعمال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

[هود : ١٥] .

(١) الكشاف ١٠٩/٢ ، وانظر البحر المحظى ٥/٢٥٢ .



جاء في (روح المعاني) : «**وَلَا تَبْخُسُوا أَنَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ**» يحتمل أن يكون تعبيماً بعد تخصيص ، فإنه يشتمل الجودة والرداة ، وغير المكيل والموزون أيضاً . فهو تذليل وتميم لما تقدم^(١) .

* * *

﴿وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

وهو أعم من البخس في الحقوق ، فإنه يعم جميع مصالح العباد وعموم العدوان على خلق الله والإفساد في الأرض .

جاء في (الكساف) : «والعي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل»^(٢) .

وجاء في (روح المعاني) أن «العي يعم تنقيص الحقوق وغيره ؛ لأنه عبارة عن مطلق الفساد»^(٣) .

وجاء في (تفسير الرازى) : «**وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**» معناه ولا تسعوا في إفساد مصالح الغير ، فإن ذلك في الحقيقة سعي منكم في إفساد مصالح أنفسكم .

والثانى : أن يكون المراد من قوله : **﴿وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** مصالح دنياكم وآخر لكم .

والثالث : ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان»^(٤) .

(١) روح المعاني ١٢/١١٦ .

(٢) الكشاف ٢/١١٠ .

(٣) روح المعاني ١٢/١١٦ .

(٤) تفسير الرازى ٦/٣٨٦ .

فتدرج من الخصوص إلى العموم ، ومن السيء إلى الأسوأ ، ومن الكبيرة إلى ما هو أكبر .

فبدأ بالنقض في المكيال والميزان ، ثم تدرج إلى البخس وهو أعم لأنه يكون في المكيال والميزان وغيرهما ، ثم تدرج إلى ما هو أعم وأعظم وهو العشي في الأرض إفساداً .

فبدأ بنقض الحقوق وانتهى بالعدوان والإفساد .

﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

أي ما يقيه الله لكم من الرزق الحلال خير لكم إن كتم مؤمنين .
إضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه^(١) .

* * *

﴿قَالُوا يَسْعَى بِأَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَرِكَ مَا يَعْبُدُءَابَآؤُنَا أَوْ أَنْ تَقْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوْأُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]

أنكروا عليه أمرين بمقابل دعوته لهم إلى أمرين .

فقد قال لهم : ﴿يَقُولُونَ أَعْبُدُو اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

قالوا له : ﴿أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَرِكَ مَا يَعْبُدُءَابَآؤُنَا﴾ ؟

وقال لهم : ﴿وَلَا نَنْقُصُوا الْمِكَيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ ، ﴿وَيَقُولُونَ أَوْفُوا الْمِكَيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَ هُنَّ﴾

قالوا له : ﴿أَوْ أَنْ تَقْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوْأُ﴾

أي أصلاتك تأمرك أن ترك فعل ما نشاء في أموالنا !

وذكروا له صفتين فيه : الحليم الرشيد .

(١) انظر الكشاف ١١٠ / ٢ ، البحر المحيط ٥ / ٢٥٢ ، تفسير الرازي ٦ / ٣٨٦ .



فدعاهم إلى أمرين ، وردوا عليه بأمرین ، ووصفوه بصفتين .

وقولهم : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الْرَّشِيدُ﴾

الظاهر أنه من باب الاستهزاء والتهكم .

أي إنك معروف بالحلم والرشد فكيف تقول ذاك؟!

وتعريف الوصفين للدلالة على أنه معروف بهاتين الخلتين ، أي إنك المعروف بهاتين الخصلتين ، ذكروا ذلك تهكمًا أو حقيقة .

وجاء بضمير الفصل والتوكيد بإأن واللام وتعريف الوصفين ليدل على قصر الحلم والرشد عليه دون غيره استهزاء ، فإنه لم يقل بمقالته أحد من قومه غيره .

* * *

﴿قَالَ يَقُولُ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّةٍ مِّنْ رَّبِّيْ وَرَزْقَنِيْ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا أَسْطَعْتُ وَمَا تَوَفَّيْتِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

قوله : ﴿يَقُولُ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّةٍ مِّنْ رَّبِّيْ﴾ مرّ بيان ذلك في قصة نوح .

﴿وَرَزَقَنِيْ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ .

أي رزقاً واسعاً حلالاً ولا أبخس حقاً .

ولست فقيراً حتى تقولوا إنه يتغىي المال والسعفة في المكيال والميزان .

وقيل : هو ما رزقه من النبوة والحكمة^(١) .

ولا مانع أن يكون ذلك جميماً في النبوة واليسر في المال .

* * *

(١) انظر الكشاف ١١١/٢

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفُكُمْ إِلَى مَا أَنْهَى كُمْ عَنْهُ﴾

يقال: (خالفني فلان إلى كذا) إذا قصده وأنت مولٌ عنه ، (وخالفني عنه) إذا ولَى عنه وأنت قاصده . ويلقاك الرجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: (خالفني إلى الماء) ي يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادرًا . ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا آتَهُمْ كُمْ عَنْهُ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم^(١) .

Three small, stylized black floral or asterisk-like symbols arranged horizontally.

﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا أَلْأَصْلَحَ مَا أَسْتَطَعْتُ﴾

أي مدة استطاعتي ذلك فلا أقصر في ذلك ما دمت متمكنًا.

ونفى وأثبت بـ (إن) وـ (إلا) للدلالة على قصر إرادته على ذلك ، فإنـه لم يقل : (وأنا أريد الإصلاح) فلا ينفي ذلك إرادة شيء معه ، وإنما قال : ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا أُسْتَطَعْتُ﴾ فقصر إرادته على ذلك وليس ثمة شيء آخر .

ونفي بـ(إن) ولم ينف بـ(ما)؛ لأنـ(إن) أقوى منـ(ما) في النفي وآكـد^(٢).

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

قدم الجار والمجرور في الموضعين للدلالة على الحصر ، فإن
لا يتوكل إلا عليه حسراً ، ولا ينبع إلا إليه حسراً . فلا يتوكّل على غيره
ولا ينبع إلى أحد سواه .

• • •

(١) الكشاف ١١١/٢ ، وانظر البحر المحيط ٥/٢٥٤.

(٢) انظر معانٰي، النحو ٤/٥٧٦.



﴿وَيَقُولُ لَا يَجِدُ مِنْكُمْ شَقَاقًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمًا ثُوجَأَوْ قَوْمًا هُودًا وَقَوْمًا صَلَحَ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٨٩]

أي لا يحملكم خلافى وعداوتى على أن يصيبكم مثل ما أصاب الأقوام الآخرين من الدمار والهلاك.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ﴾ (يعنى أنهم أهلکوا في عهد قريب من عهدهم ، فهم أقرب الهالكين منكم). أولاً يبعدون منكم في الكفر والمساوئ وما يستحق به الهالك) ^(١).

وقال : ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ﴾ ولم يقل : (بعيدين) لأنه أراد «ما إهلاكهم بعيد أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد» ^(٢).

* * *

﴿وَاسْتَغْفِرُ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]

مرء بياني نحو هذا في أول السورة.

وقال أولاً: ﴿وَاسْتَغْفِرُ رَبَّكُمْ﴾ بإضافة الرب إلى ضميرهم ، وقال فيما بعد: ﴿إِنَّ رَبِّ﴾ بإضافته إلى ضميره ليبين أن ربه وربهم واحد ، وأن عليهم أن لا يعبدوا إلا ربه وربهم ويتوبون إليه فليس لهم رب غيره.

* * *

﴿قَالُوا يَسْعَيْنَا مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَدَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ قدم الجار والمجرور ليبين انتفاء عزته عليهم

(١) الكشاف ١١٢/٢.

(٢) الكشاف ١١٢/٢ ، وانظر البحر المحيط ٥/٢٥٥.

بصورة خاصة ، وقد يكون عزيزاً على غيرهم ممن آمن به وعزيزاً عند رهطه .

فدل ذلك على نفي العزة عليهم وإثباتها على غيرهم وهم رهطه ومن آمن به . وأوضح ذلك قولهم : ﴿وَلَوْلَا رَهُطْكَ لِرَجَّنَاتِكَ﴾ ومعنى ذلك أنه عزيز عند رهطه .

ولو قال : (وما أنت بعزيز علينا) لنفي عزته عندهم ولم يثبتها عند غيرهم .

﴿قَالَ يَنْقُومُ أَرْهَطِي أَعْزَ عَلَيَّكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ولم يقل : (أعز عليكم مني) لأن الله هو الذي أرسله فعزته من عزة مرسله . فإن الرسول عزته إنما هي من عزة من أرسله ، فكلما كان المرسل عزيزاً كان رسوله كذلك .
 ﴿إِنَّ رَبِّيِّ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

قال : (إن ربى) بإضافة الرب إليه لأنه سيده والقيم عليه . ولم يقل : (ربكم) وإنما أضاف الرب إليه ليدل على عزته .

وقدم الجار والمجرور (بما تعملون) على خبر إن (محيط) ؛ وذلك لأن الكلام على عملهم وقد مر ذكر الكثير من أعمالهم .

فإن سبق هذه الآية ذكر العمل ، وجاء بعدها ذكر العمل فقال :
 ﴿وَيَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ ﴿إِنِّي عَمِيلٌ﴾ .

ف nanoparticle تقديم قوله : (بما تعملون) .

* * *

﴿وَيَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِيلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]

معنى قوله : ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي داوموا على ما أنتم عليه من



الكفر فسوف تعلمون عاقبتكم وترون جزاء إصراركم .
وهو تهديد لهم .

ومعنى قوله : ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي أنا مداوم على عملي مستمر على ذلك من الدعوة إلى الله وتبلیغ رسالته .

* * *

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾

قال هنا : ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ .

وقال في قصة نوح في هذه السورة : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بادخال الفاء على (سوف) .

والذي يظهر أن إدخال الفاء هنا أكد من عدم ذكرها ، فقد يفيد إدخال الفاء التوكيد في مواضع ^(١) .

والذي يؤيد ذلك ما جاء في الآيتين :

١ - فقد قال في قصة نوح : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْلِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩] .

وقال في قصة شعيب هذه : ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ .

فزاد في قصة نوح ﴿وَيَحْلِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ولم يقل مثل ذلك في قصة شعيب .

(١) انظر معاني النحو ٤/٤٨٧ وما بعدها (باب الشرط) ، وانظر حاشية الدسوقي ١٧٧/١ .



٢ - إن ربنا قال لسيدنا نوح : ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمَكَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ أَمَانَ فَلَا يُنَتَّسِّبُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في قصة شعيب .

٣ - إن ربنا أخبر نوحًا بتعجيل عقوبة قومه وطلب منه أن يصنع الفلك . ﴿وَاصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا تُخَطِّبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ مُغْرِقُوْنَ﴾ [هود: ٣٧] .

ولم يخبر شعيباً بنهاية قومه .

٤ - إن هذا القول قاله سيدنا نوح وهو يصنع الفلك ، وذلك يدل على قرب نهاية القوم وعقوبتهم .

كل ذلك يدل على توكيده نهاية القوم في قصة نوح ودنو ساعة النجاة . ولست أدرى فلعل إدخال الفاء على (سوف) يدل على أن مجيء العذاب لقوم نوح أقرب من مجئه لقوم شعيب وإن كانوا جمیعاً في المستقبل ، فإن الفاء قد تفید التعمیق .

إن (سوف) في كلا الموضعين تفید الاستقبال ، غير أن دنو العذاب من قوم نوح أقرب . ولعل إدخال الفاء إشارة إلى ذلك ، علاوة على ما ذكرنا من التوكيد والله أعلم .

* * *

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَّيْنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْنَا وَأَخْذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَحَمِينَ﴾ [هود: ٩٤]

قال هنا : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَّيْنَا شَعِيبًا﴾ بإدخال الواو على (لما) .

وقال في قصة صالح : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَّيْنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْنَا﴾ بالفاء .



وذلك أن مجيء العذاب في قصة صالح أقرب ، ذلك أنه توعدهم أن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام ، فقد قال لهم :

﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]
فكان العذاب لقوم صالح أقرب من قوم شعيب ، فجاء بالفاء الدالة على التعقب .

وأما بقية الآية وما بعدها وهو قوله : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِشِينَ ﴾ ٩٤ [هود: ٩٤ - ٩٥] فقد مرّ بيان ذلك في قصة صالح .

وقوله : ﴿ أَلَا بَعْدَ لِمَدِينَ كَمَا بَعَدَتْ شَمُودٌ ﴾ شبه فيه هلاكهم بهلاك ثمود « وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأن عذاب كل كان بالصيحة »^(١) .

* * *

قصة موسى



﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِلَيْنَا يَأْتِنَا وَسُلْطَنٍ مِّينٍ ﴾١٩١﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَهُ فَانْبَغَّوْا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾١٩٢﴿ يَقْدُمُ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ الْتَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾١٩٣﴿ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الْرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾﴾

[هود: ٩٦ - ٩٩]

ذكر في سورة هود من قصة موسى وفرعون العاقبة التي تلي العاقبة الأولى وهي غرق فرعون وجندوه. وهو ما ورد في سورة البقرة والأعراف ويونس.

فقد ورد في البقرة والأعراف ويونس غرق فرعون وجندوه في اليم.

وأما في سورة هود فقد ذكر أمرهم في الآخرة.

قال في البقرة: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمُ الْبَحْرَ فَأَجْنَبَنَا مِنْهُمْ وَأَغْرَقْنَا أَهْلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال في الأعراف: ﴿ فَانْقَمَّا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْتَهُمْ فِي الْيَمِّ يَا نَاهُمْ كَذَّبُوا إِيمَانَنَا وَكَانُوا عَنْهَا أَعْنَفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال في يومن: ﴿ وَجَوَزْنَا بَيْنَ إِسْرَئِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ بَعْيَا وَعَدْوَا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ إِيمَانُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا الَّذِي إِيمَانُهُ بِهِ بَنُوا إِسْرَئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يومن: ٩٠].



لقد ذكر ربنا أنه أرسل موسى بآياته وسلطان مبين.

والآيات هي الآيات الدالة على نبوته من قلب العصا حية ونحوها من المعجزات ، ومما قيل في السلطان المبين أنه الحجج التي حاجَ بها فرعون وملأه^(١) ، وهي سلطان قاهر.

وكل من الآيات والسلطان ملزم لمن أراد الحق والحقيقة.

وقد وصف السلطان بأنه مبين ، أي ظاهر الدلالة ليس فيه غموض ولا شك . غير أن الملاً اتبعوا أمر فرعون ولم ينصاعوا للحق مع أن أمر فرعون كله غي وضلال.

وكما اتبعوا أمر فرعون في الدنيا فأغرقهم قادهم في الآخرة إلى النار فأحرقهم.

١ - لقد قال : «فَتَبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» ولم يقل : (فتبعوا أمر فرعون) وذلك للمبالغة في اتباعهم لأمر فرعون.

ومن المعلوم أن (اتبع) يفيد المبالغة في الاتباع ، بخلاف (تبع) ، ذلك أن (افتعل) يفيد المبالغة والاجتهاد والتکثير.

٢ - وقال : «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» فنفي بـ (ما) ، وأدخلها على الجملة الإسمية ، وأكَد الخبر بالباء ، وكل ذلك يفيد المبالغة والتأكيد في نفي الرشد عن فرعون وأمره.

فهو لم يقل : (وليس أمر فرعون رشيداً أو برشيد) فتكون الجملة فعلية دالة على الحدوث.

ولم يقل : (وما أمر فرعون رشيداً) من غير توكيده للخبر.

(١) انظر روح المعاني ١٢ / ١٣٥.

وإنما قال : ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فنفى الرشد عن أمر فرعون على وجه الثبوت والدowام ، وأكَّد ذلك بالباء الزائدة .

٣ - معنى قوله : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه^(١) . فكما اتبعوا أمره في الدنيا اتبعوه في الآخرة فقداهم إلى النار ، «وكما كان قدوة في الضلال متبعاً كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه»^(٢) .

٤ - قال : ﴿فَأَوْرَدَهُمُ الْتَّارِ﴾ بالماضي ، ولم يقل : (فيوردهم) مع أن الحدث مستقبل ، وذلك للدلالة على أن الأمر كائن لا محالة ، وهو بمنزلة الماضي الذي حصل .

جاء في (الكساف) : «إِنْ قَلْتَ هَلَّا قَيْلَ : يَقْدِمُ قَوْمَهُ فِيَوْرَدَهُمُ النَّارَ لَا مَحَالَةَ؟»

قلت : لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به ، فكأنه قيل : يتقىهم فيوردهم النار لا محالة^(٣) .

٥ - قال : ﴿فَأَوْرَدَهُمُ الْتَّارِ﴾ ولم يقل : (فوردوا النار) أي أن فرعون هو الذي أوردهم إليها .

كما لم يقل : (فأوردناهم النار) بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه ، بل إن فرعون هو الذي تقدمهم حتى أوردهم النار .

ولم يقل أيضاً : (أوصلهم إلى النار) إذ ربما دل ذلك على الوصول دون الدخول ، وإنما قال : ﴿فَأَوْرَدَهُمُ الْتَّارِ﴾ أي أدخلتهم إليها .

٦ - قال : ﴿وَيَسَّسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ﴾ والمورود هي النار ، و(الورد) :

(١) انظر الكشاف ٢/١١٤ .

(٢) البحر المحيط ٥/٢٥٩ .

(٣) الكشاف ٢/١١٤ .



المورد ، أي بئس ما وردوه وهو النار .

واختار الورد « لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد »^(١)
فكانت النار موردهم .

واختار لفظ (الورد) على (المكان) أو نحوه ليدل على أنهم عطاش ،
وإنما يذهب إلى الورد العطشان .

فأوصلهم فارطهم ومتقدمهم إلى النار ليسكنوا عطشهم ويبعدوا عنهم
الظماء فيا بئس ما وردا .

٧ - قال هنا : ﴿ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

وقال في السورة نفسها في قصة عاد : ﴿ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [هود: ٦٠] فذكر (الدنيا) بعد (هذه) .

وقد ذكرنا سبب ذلك في قصة عاد .

٨ - قال هنا : ﴿ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الْرِّفْدُ الْمَرْفُوذُ ﴾
بناء الفعل (أتبعوا) للمجهول .

وقال في سورة القصص : ﴿ وَأَتَبَعَنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾
[القصص: ٤٢] بالبناء للفاعل ، بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه ، وذلك
لأكثر من سبب منها :

أ - أن القصة في سورة القصص أطول مما في هود ، فإنها في هود
أربع آيات من (٩٦ إلى ٩٩) .

وأما في القصص فإنها إحدى وأربعون آية (من ٣ إلى ٤٣) .

وأن (أتبناهم) أطول من (أتبعوا) فناسب طول البناء طول القصة .

ب - ذكر من تكذيب فرعون وأتباعه ومعاندتهم في القصص ما لم يذكره في هود ، وذكر استكباره واستكبار جنوده في الأرض بغير الحق ، فناسب أن يتولى ربنا إهلاك هؤلاء الظلمة المستكبرين .

ج - ذكر في القصص أن فرعون ادعى أنه هو الإله الوحيد وليس من يذكره موسى فقال : ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنِ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدْتِي يَهْمَنْنُ عَلَى الْطَّيْنِ فَأَجْعَلْتِي صَرْحًا لَعْكَى أَطْلَعْ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُنُمْ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص : ٣٨] .

فناسب أن يعقوب الإله الحق هذا الإله المدعى ، فأظهر نفسه ليذله ويتبين من منهما الإله الحق ؟

د - جرى إسناد العقوبات في سورة القصص إلى الله ليبين أنها من الإله الحق فقال : ﴿فَأَخْذُنَّهُ وَجُنُودَهُ فَنَبْذَنَّهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص : ٤٠] . ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص : ٤١] .

فناسب أن يقول : ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَكَ﴾ بالإسناد إليه سبحانه .

وليس السياق كذلك في هود .

فناسب كل تعبير موضعه .

٩ - قال : ﴿بِئْسَ الْرِّفْدُ الْمَرْفُوذُ﴾

والرّفد هو العطاء والعون .

والمرفود : المعطى .

أي بئس العطاء الذي أُعطوه ، وبئس العون الذي أعينوا به .

وقد اختار الرفد على العطاء لأن الرفد له معنيان : العطاء والعون . وملا فرعون إنما اتبعوه ليعطيهم ويعينهم فكان لهم الإغراف في الدنيا ،



والنار في الآخرة ، واللعنة في الدنيا والآخرة.

جاء في (الكساف) : « ﴿ بِئْسَ الْرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ رفدهم ، أي بئس العون المعن ، وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له ، وقد رفدت باللعنة في الآخرة . وقيل : بئس العطاء المعطى » ^(١) .

* * *

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقَرَىٰ نَقْصَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿٦٦﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ إِلَهُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُمْ رِبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَنِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١ - ١٠٠] ﴾

شبه ما بقي من القرى « بالزرع القائم على ساقه ، وما عفا وبطل بالحصيد » ^(٢) .

و(الحصيد) فعل بمعنى (مفهول) أي محصور ، وهو أبلغ من (مفهول) ، فالجريح أبلغ من مجروح وأعم . فصيغة (فعل) بمعنى (مفهول) لا تقال إلا لمن اتصف بالوصف ووقع عليه الفعل ، ولا يقال لمن لم يقع عليه الفعل ^(٣) ، فلا يقال لمن لم يقتل : (قتيل) ولا لمن لم يجرح : (جريح) ، بخلاف (مفهول) فإنها تقال لمن وقع عليه الفعل ولم يقع عليه الفعل ، وإنما هو متوقع وقوعه ، فقد تقول لشخص : (أراك مقتولاً في هذه الرحلة) أي ستقتل . قال تعالى : « ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] وهو يوم القيمة ولم يقع بعد ، فاستعمل (مجموع) و(مشهود) بمعنى أنه سيجمع فيه الناس ويشهدونه .

(١) الكشاف ١١٤/٢ .

(٢) روح المعاني ١٣٨/١٢ .

(٣) انظر (معاني الأبنية في العربية) ص ٦٠ وما بعدها .

وقال : ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدُ﴾ ولم يقل : (ومنها هالك أو عافٍ) أو نحو ذلك ، وإنما قال : (حصيد) أي حصده حاصد ، بمعنى أن هناك ذاتاً حصدت هذه القرى كما يحصد الزرع ، وهو ربنا سبحانه الذي أهلكها لأنها عصت أمر ربها وكذبت رسليه .

وقال : ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدُ﴾ والمعنى (منها قائم ومنها حصيد) أي بعضها قائم وبعضها حصيد . وحذف (منها) الثانية لأنها معلومة ظاهرة المعنى .

* * *

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَيْتَ عَنْهُمْ إِلَّا هُمُ الَّذِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ بِغَيْرِ تَنْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] في هذه الآية أمور بيانية دقيقة نذكر منها :

١ - أنه قال : ﴿فَمَا أَغْنَيْتَ عَنْهُمْ إِلَّا هُمُ الَّذِي يَدْعُونَ﴾ ولم يقل : (فلم تغن) ذلك أن النفي بـ (ما) أكد ؛ لأنه جواب لـ (لقد) ^(١).

و(القد) جواب قسم مقدر ، ويدل على ذلك الاستعمال القرآني في نحو هذا الاستعمال ، فقد قال أصحاب الأعراف في الآخرة لأهل النار : ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْرِهُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فنفي بـ (ما) وذلك لشدة الأمر وفطاعته .

وقال في هلاك أصحاب الحجر : ﴿فَأَخْذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصِّرِّحِينَ ﴾٢٧﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٣ - ٨٤].

وقال الذي أوتى كتابه بشماله : ﴿مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٨] فنفي كل ذلك بـ (ما) .

(١) انظر (معاني النحو) ٤/٥٧٠ وما بعدها .



في حين قال: ﴿وَيَوْمَ خَيْرٌ إِذَا أَعْجَبْتُمْ كُثُرًا تُغْنِي
عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبه: ٢٥].

فنفى عدم الإغناه بـ (لم)؛ ذلك لأنه عدم إغناه موقوت بالمعركة،
ثم إن هؤلاء مسلمون وقد انتصروا فيما بعد.

فنفى عدم الإغناه الشديد البالغ بـ (ما)، والذي هو دونه نفاه بـ (لم).

٢ - قال: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَدْعُونَ﴾ ولم يقل: (اللاتي) وذلك للدلالة
على الكثرة، فإن الوصف لغير العاقل بالفرد يدل على الكثرة، فقولك:
(أنهار جارية) يدل على كثرة الأنهار، وهي أكثر من (أنهار جاريات).
ونحوه (أشجار مثمرات) و(أشجار مثمرة).

جاء في (روح المعاني): «قيل... إن (التي) في جمع غير عالم
أكثر من (اللاتي)»^(١).

فهذه الآلة على كثرتها لم تغن عنهم شيئاً. ثم إن هذه قيلت في أمم
متعددة وكل منها آلة، فاختار (التي) لتدل على الكثرة في نحو هذا.

٣ - وقال: (يدعون) بالفعل المضارع وذلك «لحكاية الحال الماضية
أو للدلالة على استمرار عبادتهم لها»^(٢).

٤ - وقال: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ فجاء بـ (من) المؤكدة الدالة على الاستغراب،
أي لم تغن أي شيء، على سبيل الاستغراب.

وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يتحمل أن يكون المعنى نفي أي شيء من الإغناه
أو أي شيء من الأشياء^(٣).

(١) روح المعاني ١٣٨/١٢.

(٢) روح المعاني ١٣٩/١٢.

(٣) انظر روح المعاني ١٣٩/١٢.

٥ - قال : ﴿وَمَا زَادُوهُمْ عِيرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي تحسير ، فنفي بـ (ما) ولم ينف بـ (لم) ، فلم يقل : (ولم يزيدوهم) وذلك للتأكيد كما ذكرنا في نقطة سابقة .

ألا ترى أنه قال في آية أخرى على لسان سيدنا نوح : ﴿قَالَ رَبِّي إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيَلَّا وَنَهَارًا ﴾ ﴿فَلَمْ يَرِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح : ٦ - ٥].

فنفي بـ (لم) فقال : ﴿فَلَمْ يَرِدْهُمْ﴾ دون (ما) ؛ وذلك لأن هذه الزيادة دون ما ذكره في سورة هود .

فقد قال في سورة نوح إن دعاءه زادهم فراراً .
وما ذكره في سورة هود أن آلهتهم زادتهم هلاكاً وتحسيراً .
ولا شك أن الزيادة في هود كانت أشد وأفظع فنفي بـ (ما) .

٦ - قال تعالى : ﴿وَمَا زَادُوهُمْ عِيرَ تَتْبِيبٍ﴾

والتببيب هو التحسير ، غير أنه لم يقل : (وما زادوهم غير تحسير) كما قال في قصة سيدنا صالح ، فقد قال على لسان سيدنا صالح : ﴿قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتُ إِنِّي كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَتَهُ مِنْ رَبِّي وَإِنِّي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرِنِي مِنْ اللَّهِ إِنَّ عَصِيَّتُهُ فَمَا تَرَنِدُنِي غَيْرَ تَخْسِيرِي﴾ [هود : ٦٣] .

وقال هنا : ﴿وَمَا زَادُوهُمْ عِيرَ تَتْبِيبٍ﴾ ذلك أن التتببيب أشد من التحسير ، فإنه تحسير وزيادة ، ذلك أن معنى التتببيب : الهلاك والقطع والتحسير .

فقد قيل : «إن مادة التباب تدور على التقطع وهو مؤد إلى الـ ^(١) الهلاك». وذلك لأن المعصية التي ذكرت هنا أكبر مما ورد على

(١) روح المعاني ٢٦٠ / ٣٠ ، وانظر القاموس المحيط (تب) .



لسان نبي الله صالح ، فإنها هنا في الكلام على الأمم التي كانت تعبد الآلهة من دون الله ، وأما في قصة صالح فقد قال : ﴿فَمَنْ يَنْصُرُ فِي مِنْ أَللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ ، فذكر عموم المعصية ، وهي ولا شك دون ما ذكره في الأمم الهاكلة من عبادة غير الله ، فإن المعصية قد تكون صغيرة وقد تكون كبيرة.

فما ذكره في الأمم السابقة هي من أكبر المعاشي وأعظمها . ولا شك أن العقوبة على قدر المعصية .

فناسب ذكر التتبّب معها دون ذكر التحسير ، فكان كل تعبير في موضعه أنساب .

* * *

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [١٢] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ وَمَا تُؤْخَرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٢ - ١٠٤]

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾

جاء بالواو فقال : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ ليدل على أنه يفعل مثل ذلك أيضاً مع القرى إذا اتصفت بالظلم . ولم يقل : (كذلك أخذ ربك) من دون واو لئلا يصرف الذهن إلى ما مضى من الأحداث دون ما يقع فيما بعد .

وأضاف الأخذ إلى ربه ليدل على أن ربه هو الذي أخذ القرى الهاكلة الظالمة ، وهو الذي يفعل مثل ذلك إذا ظلم أهل القرى . وفي ذلك تهديد ووعيد عظيمان للظالمين ، وأنه يستأصلهم مع قراهم التي يسكنونها ، ولا تنفع الظالمين كثرة ومؤازرة بعضهم بعضاً ، فإن ربكم يأخذهم كلهم ولا يبقى منهم أحداً .

لقد قال : ﴿إِذَا أَخْذَ الْقُرَى﴾ ولم يقل : (إن أخذ القرى) ليدل على أن

ذلك واقع إذا وجد الظلم ، فحيث وجد الظلم وعم القرى أخذهم ربنا . فإن (إذا) يؤتى بها في الأمور الكثيرة الواقع أو المقطوع بحصولها ، بخلاف (إن) فإنه قد يؤتى بها في المشكوك بوقوعه أو النادر أو المستحيل^(١) .

وقال : ﴿ وَهِيَ ظَلَمَةٌ ﴾ ليدل على أن ذلك واقع إذا كانت صفة الظلم ثابتة فيها .

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَيْمٌ شَدِيدٌ ﴾

ذكر لأخذه صفتين : الألم والشدة . واجتماع هاتين الصفتين يبين هول أخذه سبحانه وعظمته ، فإن كل صفة من هاتين الصفتين لها عظمها ورهبتها فكيف إذا اجتمعتا !

وربنا قد يفرد كل صفة من هاتين بأمر فيقول : (عذاب أليم) ، ويقول : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ، واجتماعهما يدل على عظم أخذه .

* * *

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنَ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّسْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣]

قال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ ولم يقل : (مجموع فيه الناس) للدلالة على عظم ذلك اليوم ، فإن الناس يجمعون له ولأجله ، فالجمع إنما يكون لأجل ذلك اليوم ، فهو علة الجمع ، ولو قال : (فيه) لكان المعنى أنهم مجموعون فيه لأمر آخر .

وإنما قال : (له) ليدل على أنه هو الغرض من جمعهم كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْغَافِرُونَ ﴾ [التغابن: ٩] ، وقال : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٢٥] .

(١) معاني النحو ٤٤٨ وما بعدها .



وقال: ﴿مَخْمُوعٌ لَهُ الْنَّاשُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ فجاء باسم المفعول ، والمعنى (سيجمعون له) للدلالة على أنه كائن لا محالة .

جاء في (الكساف): «إِنْ قُلْتَ: لَأَيِّ فَائِدَةٍ أُوْثِرَ اسْمُ الْمَفْعُولِ عَلَى فَعْلِهِ؟ قُلْتَ: لِمَا فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى ثَبَاتِ مَعْنَى الْجَمْعِ لِلْيَوْمِ ، وَأَنَّهُ يَوْمٌ لَا بُدُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِيعَادًا مِضْرُوبًا لِجَمْعِ النَّاسِ لَهُ ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِذَلِكَ صَفَّةً لَازِمَةً ، وَهُوَ أَثَبَتَ أَيْضًا لِإِسْنَادِ الْجَمْعِ إِلَى النَّاسِ وَأَنَّهُمْ لَا يَنْفَكُونَ مِنْهُ»^(١) .

* * *

﴿وَمَا نَرَخَرْهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ﴾

«الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ، فيقولون: انتهى الأجل ، وبلغ الأجل آخره»^(٢) .

وقيل: (الأجل معدود) «أي لانتهاء مدة قليلة ، فالعدد كناية عن القلة ، وقد يجعل كناية عن التناهي»^(٣) .

* * *

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

حذف الياء من (يأت) والأصل: (يأتي).

وحذف التاء من (تكلم) والأصل: (تتكلم) ، في حين ذكر الياء في مواطن أخرى ، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبِّكُمْ أَوْ يَأْتِكُ بَعْضُ مَا يَأْتِيَ رَبِّكُمْ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ مَا يَأْتِيَ رَبِّكُمْ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَنُهَا لَمْ تَكُنْ إِيمَانَتُ مِنْ

(١) الكشاف ١١٥/٢.

(٢) الكشاف ١١٥/٢.

(٣) روح المعاني ١٢ / ١٣٨.

قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيهِ إِيمَانَهَا حَيْرًا قُلْ أَنْتَنَظِرُوا إِنَّا مُنَظِّرُونَ ﴿الأنعام: ١٥٨﴾.

وقال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدَىٰ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾
 هل يُنَظِّرُونَ إِلَّا تَأْوِيلُهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلِهِ قَدْ جَاءَهُمْ رُسُلٌ مِنْ رِبَّنَا
 بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيُشَفِّعُونَا إِنَّا أَوْتُرُدُ فَنَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فَقَدْ خَسِرُوا
 أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿الأعراف: ٥٢ - ٥٣﴾.

«فَحُذِفَ الْيَاءُ مِنْ (يَأْتِي) وَاجْتَزَأَ بِالْكَسْرَةِ فِي آيَةِ هُودٍ دُونَ الْآيَتَيْنِ
 الْأُخْرَيَيْنِ وَلِهَذَا الْحُذْفُ سَبَبُهُ .

فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين كفروا للعذاب ، كما
 تردد الوعيد بقرب نزوله ، فقد قال : ﴿ وَلَئِنْ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ
 مَعْدُودَةٍ لَيُقَوِّلُنَّ مَا يَحِسِّسُهُ ﴾ [هود: ٨].

وقال قوم نوح : ﴿ قَالُوا يَنْجُونُ فَدَجَدَلُتَنَا فَأَكَثَرَتْ جِدَلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْذِنَاهَا
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢].

وقال صالح لقومه : ﴿ وَيَنْقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ أَيَّةً فَذَرُوهَا
 تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سُوءٌ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ فَرِيقٌ ﴿٦٤﴾ فَعَفَرُوهَا فَقَالَ
 تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٤ - ٦٥].

وقال في قوم لوط : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْهِنَّ الصُّبْحُ بِقَرَبٍ ﴾ [هود: ٨١].

وقال في موطن آخر : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية ، ومن ناحية
 أخرى أنه تردد الوعيد بقرب حلوله ، فكان من المناسب الحذف من فعل
 الإتيان إشعاراً بقرب حلوله .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب
 الأمم السابقة وهلاكهم ، ثم ذكر أن يوم القيمة آت وأنه سيحل فيه عقاب



الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة ، وإنْ هو إلا أَجَلٌ معدود فِي حِلٍ ،
فَحَذَفَ الْيَاءُ مِنْ فَعْلِ الْإِتِيَانِ لِلدلالةِ عَلَى سرعةِ الإِتِيَانِ .

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى .

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتتقاقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعًا وعشرين مرة ، وفي (هود) ثلاث عشرة مرة ، فلما كثر الفعل في سوري الأنعم والأعراف كثُرَ البناء ، ولما قل ترددُه في هود قلل من البناء . . .

ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنه لما من الكلام في آية هود إلا بإذنه حذف من الكلام ، فحذف الْيَاءُ مِنْ (يَأْتِي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال: (تَكَلَّمُوا) ولم يقل: (تَتَكَلَّمُوا) إشعاراً بقلة الكلام في ذلك الوقت» ^(١).

وقدم (الشقي) على (السعيد) لأنَّه سبق الكلام على الأشقياء من الأمم المعدبة. ألا ترى أنه قدم السعداء على الأشقياء في آل عمران في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَيَّضُ وُجُوهٌ وَسَوْدَ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فقدم الذين ابْيَضُتْ وجوههم لأنَّه سبق الكلام على المسلمين ، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَمْتَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فِرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يُرِدُوكُمْ بَعْدَ إِعْنَانَكُمْ كُفَّارِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ويستمر الكلام في مخاطبة المؤمنين إلى أن قال: ﴿يَوْمَ تَبَيَّضُ وُجُوهٌ وَسَوْدَ وُجُوهٌ﴾ فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

* * *

﴿فَامَّا الَّذِينَ شَقَوْ فِي الْأَنَارِ لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٧﴾ خَلِيلِكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦ - ١٠٧]

(١) التعبير القرآني ١٠٩ - ١١٠

قدم الجار والمجرور (لهم) على (فيها) فقال: (لهم فيها) ولم يقل: (فيها لهم) لأن الكلام على الذين شقوا لا على النار فقدم ضميرهم على ضمير النار.

وذكر هنا أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً ، في حين ذكر في موضع آخر أن لهم فيها زفيراً وهم فيها لا يسمعون ، ولم يذكر الشهيق. قال تعالى : ﴿ وَاقْرَبْ الْوَعْدُ الْحَقُّ فِيذَا هِيَ شَخْصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوِّلُنَا قَدْ كُنَّا فِي عَقْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾١٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾١٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْهَمَّةَ مَا وَرَدُوهَا وَكُلُّ رِبَّا خَلِيلُونَ ﴾١٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾٢٠﴾ [الأنبياء: ٩٧ - ١٠٠].

ذلك أن العذاب في آيات الأنبياء أشد من أكثر من جهة :

١ - فقد ذكر الكفرا و معبدتهم من دون الله فقال: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا إما أن يكون شركاً أو أكبر من الشرك وهو أكبر الذنوب .

في حين ذكر الأشقياء على العموم في آية هود وهم أعم مما ذكره في الأنبياء. فإن من بين الأشقياء من لا يكون عبد الصنم ، وقد يكون من أهل الكتاب. فذكر في آيات الأنبياء أشقي الأشقياء وهم الذين يعبدون من دون الله .

٢ - إنه ذكرهم وألهتهم وجمعهم معًا في العذاب ، وهو أشد تبكيتاً وإهانة لهم ولألهتهم التي يعبدونها ، فاقتضى ذلك زيادة تعذيبهم .

٣ - إنه قال عنهم إنهم حصب جهنم ، وهو أسفل النار ، فإن الحصب إنما هو في القاع والنار تسرع عليه وبه .

٤ - قال: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ ولم يذكر الشهيق. فإن الإنسان يحتاج



الشهيق ليزفر ، وإن لم يستطع أن يأخذ الشهيق ضاق صدره . وهو ظاهر فيما نرى في المصابين بأمراض التنفس ممن لا يستطيع أن يأخذ الشهيق ، فإن الدنيا تضيق به على سعتها ، وهو مستعد أن يدفع كل ما يملك ليشهد .

فدل ذلك على ضيق صدورهم ، فهم يطلبون الشهيق ولكن لا يمكنون منه ، وذلك من أشد العذاب . فإنه إذا كان الشخص في جنة ولم يستطع أن يأخذ الشهيق كان في عذاب ، فكيف إذا كان مع ذلك في النار؟ !

٥ - وأضاف إلى ذلك أنهم لا يسمعون فكان عذاباً آخر .

٦ - قال في آية هود: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ فذكر استثناء وهي مشيئته سبحانه . والله أعلم بهذه المشيئه ، حتى قال بعضهم إنه قد تتسع رحمته فiderك شيء منها هؤلاء المعذبين .

ولم يقل مثل ذلك في آيات الأنبياء ولم يستثن ، وإنما قال: ﴿وَكُلُّ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ .

فكان كل تعبير في مكانه هو المناسب .

* * *

﴿خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]

﴿خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي أرض الآخرة وسماؤها . وأما هذه الأرض والسماء فستبدل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وذلك يدل على الدوام غير المنقطع .

وقيل في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أقوال منها: أن هذا الاستثناء يعني حالهم في البرزخ وفي يوم الحساب قبل أن يقضي الله بين الخلاقين .

وقيل: هو استثناء من أنواع العذاب المذكورة فيصيرون إلى عذاب آخر.

وقيل غير ذلك والله أعلم.

قد تقول: لقد قال في سورة الأنعام: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَتُكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فقال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فأسند المشيئة إلى لفظ الجلالة (الله).

وقال هنا في آية هود: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فأسند المشيئة إلى رب مضافاً إلى ضمير مخاطب. فما السبب؟

فنقول: إن الكلام في الأنعام إنما هو خطاب من الله للكافرين من عشر الجن والإنس ، فقد قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَتَعَشَّرُ الْجِنُّ قَدْ أَسْتَكْرِثُهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ وَقَالَ أَقْرَبْلَاهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ رَبُّنَا أَسْتَمْتَعُ بِعَضُنَا بِعَضٍ وَلَعْنَانَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجْلَتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَتُكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

فهو سبحانه يخاطب الإنس والجن وليس يخاطب الرسول ، فلا يصح أن يقول: (إلا ما شاء ربك).

ولما انتهى من خطابهم التفت إلى الرسول فقال له: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

كما اختلفت خاتمة كل من الآيتين ، فقد ختمها في آية هود بما يدل على القدرة وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ وهو المناسب لما فعله ربنا في الأمم التي أهلتها مما ذكره في السورة ، ومناسب لما ذكره من مشيئة سبحانه.

وختمها في آية الأنعام بما يدل على الحكمة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ



عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّبَعَ الْبَيِّنَاتِ الْجُنُونُ الْفَلَكُ

لما تردد من ذكر حكمته في السورة ، فقد ختم عدة آيات بذلك ، فقد قال : « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ » في آيتين وهما الآية الثامنة عشرة والآية الثالثة والسبعين .

وقال : « إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » و « إِنَّمَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ » في ثلات آيات وهن : الآية الثالثة والثمانون ، والآية الثامنة والعشرون بعد المائة ، والآية التاسعة والثلاثون بعد المائة .

فهذه خمس آيات ختمت بالحكمة .

في حين لم يرد في هود إلا آية واحدة وهي قوله : « كَتَبْتُ أُحِكِّمَتْ إِيمَانُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ » .

هذا إضافة إلى أنه قد ترددت الألفاظ المشتقة من الحكمة والحكم في الأنعام أكثر مما في هود .

فقد قال : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » [الأنعام : ١٣٦] .

وقال : « إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِّيُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ » [الأنعام : ٥٧] .

وقال : « أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ » [الأنعام : ٦٢] .

وقال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا نَهَمُوا أَكْتَبْتُ لَهُمُ الْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ » [الأنعام : ٨٩] .

وقال : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا » [الأنعام : ١١٤] .

في حين قال في هود :

« الَّرِّ كَتَبْتُ أُحِكِّمَتْ إِيمَانُهُ » [هود : ١] .

وقال : « وَأَنْتَ أَحَقُّ الْحَكَمَيْنَ » [هود : ٤٥] .

فقد ترددت الألفاظ المشتقة من الحكمة والحكم عشر مرات في الأنعام . وترددت أربع مرات في هود .

فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من جهة.

* * *

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَحْذُوذٌ ﴾ [هود: ١٠٨].

قال في الأشقياء: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَوْا ﴾ فأسند الشقاء إليهم ، ولم يقل : (فاما الذين أشقوا) ليدل على أن ذلك بما قدمت أيديهم ، فهم الذين أشقوا أنفسهم

وقال في السعداء: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ بالبناء للمجهول ، ليدل على أن الله هو الذي أسعدهم برحمته وفضله .

جاء في (روح المعاني): «وما ألطف الإشارة في شقوا وسعدوا على قراءة البناء للفاعل في الأول والبناء للمفعول في الثاني . فمن وجد ذلك فليحمد الله تعالى ، ومن لم يجد فلا يلوم من إلا نفسه»^(١) .

﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَحْذُوذٌ ﴾

«أي غير مقطوع عنهم ولا مخترم»^(٢) .

ولم يقيد العطاء بشيء وإنما أطلقه ليشمل كل ما تقتضيه السعادة ، وهذا العطاء مستمر غير مقطوع .

قد تقول : لقد قال في سورة الواقعة : ﴿ وَنِكَاهُ كَثِيرٌ ﴽ ٣٣ ﴾ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴾ [الواقعة: ٣٣ - ٣٢] .

وقال ههنا : ﴿ غَيْرَ مَحْذُوذٌ ﴾ أي غير مقطوع ، ولم يقل : (ولا ممنوع) كما قال في الواقعة .

(١) روح المعاني ١٤٦/١٢ .

(٢) روح المعاني ١٤٦/١٢ .



فنقول: لقد قال هنا: (عطاء) أي يعطون ، فدل ذلك على أنه غير ممنوع وإنما فكيف يعطون والعطاء ممنوع؟!

ولم يقل مثل ذلك في الواقعة ، فناسب أن يقول: (ولا ممنوعة).

وقال: ﴿غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ ولم يقل: (غير مقطوع) كما قال في الواقعة: ﴿لَا مَقْطُوْعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وذلك أنه أفاد فائتين:

الأولى: أن العطاء غير مقطوع .

والآخرى: أنه سالم غير مكسور ولا محطم وليس فيه عيب ، فإن من معنى الجذ: الكسر. فالمجذوذ أعم من المقطوع لأنه يشمل المقطوع وغيره .

وقوله: ﴿غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ أفاد معنيين: أنه غير مقطوع وأنه سالم .
والعطاء أعم من الفاكهة ، فهو يشمل الفاكهة وغيرها .
فناسب العموم العموم .

* * *

﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هُؤُلَاءِ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ أَبَاؤُهُمْ مِّنْ قَبْلِ وَإِنَّا لَمُؤْمِنُ بِهِمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْفُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]

نهاه في آية سابقة عن أن يكون في مريء مما أنزل إليه فإنه الحق من ربه
فقال له: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ .

ونهاه هنا عن أن يكون في مريء مما يعبد قومه فإنهم متبعون لآبائهم .

وقوله: ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هُؤُلَاءِ﴾ يحتمل معنيين :

الأول: أن تكون (ما) اسمًا موصولاً ، أي مما يعبده هؤلاء من الآلهة ، فـ (ما) هنا تعني آلهتهم .

والآخر : أن تكون (ما) مصدرية ، فيكون المعنى : فلا تك في شك من عبادة هؤلاء^(١) .

فمعبوداتهم وعبادتهم باطلتان . فقد يكون المعبود حقاً والعبادة باطلة كما هو شأن كثير مما نرى ، فإن المعبود هو الله وهو الحق وقد تكون العبادة باطلة كما هو شأن أهل الكتاب والمبتدعين ونحو ذلك .

وأما هؤلاء فمعبوداتهم وعبادتهم كلتاهم باطلتان فجاء بما يجمع هذين المعنين .

وقال : ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ أَبَاؤُهُم مِّنْ قَبْلٍ﴾ والأصل أن يقول : (كما عبد آباؤهم) إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك كان عادة لهم وهو ما يسمى بالماضي المستمر أو المضارع المعتاد ، ويكون بالفعل المضارع مسبوقاً بـ (كان) ، فكان الأصل في هذا المعنى أن يقال : (إلا كما كان يعبد آباؤهم) ، وقد دل قوله تعالى : (من قبل) على الماضي .

جاء في (روح المعاني) : «معنى (كما يعبد) كما كان عبد ، فحذف دلالة (قبل) عليه . وكان اختيار هذا للإشارة إلى أن ذلك كان عادة مستمرة لهم»^(٢) .

ومعنى ذلك أن هؤلاء سيصيبهم مثل ما أصاب الأولين ممن قصصنا عليك من سوء عاقبتهم .

وقد تقول : ولم لم يقل : (كما كان يعبد آباؤهم) كما قال في آيات أخرى ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَحِنْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا﴾ [الأعراف : ٧٠] .

(١) انظر الكشاف ١١٧/٢ ، روح المعاني ١٤٧/١٢ .

(٢) روح المعاني ١٤٧/١٢ - ١٤٨ .



وقوله : ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُهُ أَبَاؤُنَا ﴾ [إبراهيم : ١٠]؟ فنقول : إن قوله : ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُهُ أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ ﴾ يفيد الاتصال مع آبائهم في العبادة . ولو قال : (ما يعبدون إلا كما كان يعبد آباؤهم من قبل) لا يتحمل الاتصال والانقطاع ، وليس ذلك نصاً في اتصال الأبناء بالأباء في العبادة .

فإن قولنا : (أعبد ما كان يعبد أبي) يتحمل الانقطاع والاتصال ، فقد يتحمل أن أباه كان يعبد شيئاً ثم انقطع عن عبادة ذلك الشيء وأصبح يعبد شيئاً آخر ، وذلك نحو كثير من الصحابة كابن عباس وابن عمر ، فقد كان آباؤهم يعبدون الأصنام في الجاهلية ثم أسلموا وعبدوا الله سبحانه ، فلو قال ابن عمر مثلاً (أعبد ما كان يعبد أبي) لم يصح ذلك ، بخلاف ما لو قال (أعبد ما يعبد أبي) .
ويتحمل الاتصال أيضاً .

وأما قولنا : (أعبد ما يعبد أبي) فهو يفيد الاتصال وأنه مستمر على نحو عبادة أبيه .

فقوله تعالى : ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُهُ أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ ﴾ يفيد الاتصال ومماثلة عبادة هؤلاء لعبادة آبائهم . وقوله : ﴿ مِنْ قَبْلٍ ﴾ يفيد الزمن الماضي في عبادة آبائهم وأنه متصلة متماثلة منذ الزمن الماضي .

فلو قال : (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم) ولم يقل (من قبل) لربما أفاد ذلك عبادة آبائهم الأقربين إليهم دون القدماء .

ولو قال : (ما يعبدون إلا كما كان يعبد آباؤهم) لربما أفاد الانقطاع واحتمل الاتصال .

ولكنه قال : ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُهُ أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ ﴾ فأفاد الاتصال والماضي .

وقد تقول: ولم قال إذن في آيات أخرى: ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَبَآءَوْنَا ﴾ ونحو ذلك بذكر (كان)؟

فنقول: إنه حيث قال ذلك جاء بما يفيد الاتصال بعبادة آبائهم ، فقد قال مثلاً: ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُءَءَبَآءَوْنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠] فإنه واضح من التعبير أنهم يعبدون ما كان يعبد آباؤهم ، وأنكروا على رسولهم دعوته إلى التوحيد.

ونحو ذلك قوله: ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُءَءَبَآءَوْنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠] ، قوله: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُءَءَبَآءَوْنَا ﴾ [سبأ: ٤٣].

فاتضح الفرق.

﴿ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْفُوصٍ ﴾ .

أي حظهم من الخير والشر ، فإننا موفوهم ما كتب لهم من الخير والشر كاملاً غير منقوص.

وأنسند الإيفاء إليه سبحانه بضمير التعظيم ، ولم يقل: (وهم سيفون نصيبيهم غير منقوص) ليدل على أنه سبحانه وحده بيده مقاييس الأمور من الخير والسوء. ولو قال: (سيوفون) لم يدل على أن الذي يفعل ذلك هو الله ولم تعلم الجهة التي ستوفيهم ذلك.

وقال: ﴿ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ ﴾ بالاسم ولم يقل: (وإنا سنوفيهم) بالفعل للدلالة على ثبات هذا الأمر وأنه مقطوع بحصوله ، وقد أكد ذلك بإبان واللام إضافة إلى اسمية الحدث.

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ
بِهِمْ وَلَيَهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾ [هود: ١١٠]



ذكر ربنا لرسوله ﷺ أنه لم يكن بدعاً من الرسل ولا أن قومه بدع من الأقوام ، فقد آتى موسى الكتاب كما آتاك ربك فاختلفوا فيه ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر. ولو لا أن الله سبحانه جعل لكل شيء أجالاً لقضى بينهم في هذا الاختلاف .

ثم قال : « وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ » ولم يقل : (إنهم كانوا في شك مريب) ليدل على أن الاختلاف والشك لا يزالان قائمين في عهده ﷺ ، وإن كلاً سيفيه ربنا أعمالهم كما قال في قومه ﷺ : « وَإِنَّا لَمُؤْمِنُونَ بِصَاحِبِهِمْ غَيْرَ مَفْوُضٍ » .

قد تقول : لقد قال هنا : « وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَى بَيْنَهُمْ » . وقال في آية أخرى : « وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجْلٍ مُّسَمٍّ لَقُضَى بَيْنَهُمْ » [الشوري: ١٤] فقال : « إِلَى أَجْلٍ مُّسَمٍّ » ولم يقل مثل ذلك في آية هود فما السبب؟

فنقول : لقد ذكر في آية هود ملة واحدة وهي ملة موسى .

وأما في آية الشورى فذكر مللاً متعددة ، قال تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الْأَدِينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الْدِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ كُبْرًا عَلَى الْمُسْرِكِينَ مَا نَذَّرْتُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ يَسَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [١٣] وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْدًا بِنِيمَ وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجْلٍ مُّسَمٍّ لَقُضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ [١٤] فَلِذَلِكَ قَادِعٌ وَأَسْتَقِيمٌ كَمَا أَمِرْتُ وَلَا تَنْهَعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » [الشورى: ١٣ - ١٥] .

فقد قال : « أَللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » وذلك في يوم القيمة .

فقوله : ﴿اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا﴾ يعني يوم القيمة .

وقوله : ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني ذلك أيضاً .

فناسب أن يقول : ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ههنا دون آية هود التي ليس فيها ذاك .

* * *

﴿وَإِنَّ كُلَّا لَمَّا يَوْمَ فِيهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَسِيرٌ﴾ [هود: ١١١]

أي إن كلاً من قومك وغيرهم سيوفهم ربكم أعمالهم .

وقال : (ليوفينهم) بالفعل المضارع المؤكد الدال على الاستقبال ليدل على أن ذلك سيكون حتماً .

وقد أكد الفعل بلام القسم والنون لما أكد شكلهم بإإن واللام فقال :

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ فلما كان شكلهم مؤكداً أكد توفيقه أعمالهم .

ألا ترى أنه لما خاطب عيسى عليه السلام لم يؤكده العذاب ولا توفيقه الأجر لأنه ليس في مقام شك ، وذلك قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى إِنِّي مُؤْمِنٌ بِرَبِّي وَرَبِّ أَهْلِئِكَ إِلَيَّ وَمَطْهِرُكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ كَفُورًا وَجَاعِلُ الَّذِينَ أَنْبَغَوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْذَبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصْرٍ بَنَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفَّى هُمْ أُجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

قال : ﴿فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْذَبْهُمْ﴾ من دون توكيده .

وقال : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفَّى هُمْ أُجُورُهُمْ﴾ من دون توكيده .

فناسب كل تعبير موضعه .



وقد تقول: لقد قال في آية سابقة: ﴿ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْفُوشٍ ﴾
بالاسم (موفوهم).

وقال هنا: ﴿ لَيَوْقِنُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ بالفعل ، فما السبب؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لوضعه.

فقد قال في الآية الأولى: ﴿ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ ﴾ ذكر النصيب ولم
يدرك أن النصيب لم يكتمل .

وأما في هذه الآية فقد قال: ﴿ لَيَوْقِنُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَيْرٌ ﴾ .

فقال: ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ، و(يعملون) فعل مضارع يتحمل الحال
والاستقبال ، فهم لم ينتهوا من أعمالهم بعد . والتوفيقية إنما تكون بعد
انتهاء العمل . فلما لم ينته العمل لم يأت بالاسم الدال على الثبوت ،
وإنما جاء بالفعل المضارع الدال على عدم الانتهاء .

وقدم ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ على (خير) لأن الكلام على الأعمال ، فقد قال:
﴿ وَإِنَّ كُلَّا لِمَا لَيَوْقِنُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ فناسب تقديم العمل .

وقال: (خير) لأن ذكر أنهم في شك ، والشك أمر قلبي فاحتاج إلى
الخبرة ، والخبرة: المعرفة ببواطن الأمر^(١) .

والخير: هو الذي يعلم ببواطن الأمور ، و(خبرت الأمر أخبره) إذا
عرفته على حقيقته^(٢) .

فناسب ذلك ما ورد في سياقه .

* * *

(١) المفردات في غريب القرآن (خبر).

(٢) لسان العرب (خبر).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَنْطِعُوا إِنَّهُ يِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

[هود: ١١٢]

الاستقامة هي «لزوم المنهج المستقيم ، وهو التوسط بين الإفراط والتفريط . وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق»^(١) .

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ .

معطوف على الضمير المستتر في (استقم) وهو الفاعل ، وصح العطف للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: «كَمَا أُمِرْتَ» ، ولو لم يكن بينهما فاصل لكان ضعيفاً .

ولا يصح عطفه على التاء في (أُمرت) وهو نائب الفاعل لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى .

أما من حيث اللفظ فلعدم الفاصل ،

وأما من حيث المعنى فلأنه سيكون المعنى أنه أمر هو ومن تاب معه ، وأنه طلب منه وحده الاستقامة على ما أمروا به ، ولم تُطلب الاستقامة منمن تاب معه ، أي استقم كما أمرتم .

وهذا لا يصح .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ .

وقال في الشورى : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾

[الشورى: ١٥] ولم يقل : (ومن تاب معك) .

كما لم يقل في آية هود : (فلذلك فادع) .



فما السبب؟

فنقول: أما قوله في الشورى: ﴿فَلَذِلِكَ فَادْعُ﴾ دون آية هود فلأنه ذكر التفرق في أهل الأديان وقد كان نهاهم عنه ، فقد قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الَّذِينَ مَا وَصَّنِي بِهِ، نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّنِي بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُسْرِكِينَ مَا نَدَعُهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم قال: ﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْدًا بِتَهْمَةٍ﴾ .

فالى مخاطبها رسوله: ﴿فَلَذِلِكَ فَادْعُ﴾ أي ادع إلى الائلاف وعدم التفرق .

جاء في (روح المعاني): «(فلذلك) أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق... (فادع) إلى الائلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة»^(١).

وقال أيضاً: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُسْرِكِينَ مَا نَدَعُهُمْ إِلَيْهِ﴾ فقال له: لا تأبه بالمسركين وادع لما أمرت به وإن كان كبر عليهم ذلك.

ولم يتقدم مثل ذلك في هود ، فلم يقل مثل ما قال في الشورى ، وإنما قال ذلك لقيل: (لأي شيء أدعوه؟)

وأما قوله في آية هود: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ فلأن الخطاب موجه إليه ﷺ وإلى من معه ثم يستمر في خطابهم قائلاً ﴿وَلَا تَنْغُصُ﴾ ، ﴿إِنَّمَا يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ ، ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وأما في آية الشورى فالخطاب خاص برسول الله وهو موجه له على سبيل الخصوص . فقد قال ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ، ﴿وَلَا تَنْتَعَ أَهْوَاءَهُم﴾ ،

﴿وَقُلْ إِنَّمَا أَمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ ، ﴿وَأَمْرَتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ .

فلما كان الخطاب خاصاً برسول الله مأموراً على وجه الخصوص لم يذكر من معه ، ولا يناسب أن يذكروا .

وقد تقول : ولم قال : (ومن تاب) دون (من آمن) مثلاً أو نحو ذلك ؟ فنقول : إن الذي يتوب إنما يتوب من معصية ، وفاعل المعصية عليه بعد التوبة أن يستقيم فناسب ذكره في السياق .
﴿وَلَا تَطْغُوا﴾ .

أي لا تتجاوزوا الحد الذي أمرتم به ، فطلب منهم الاستقامة على ما أمرتوا به وألا يتتجاوزوا ذلك . فناسب أن يذكر (ولا تطغوا) بعد قوله :
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمْرَتَ﴾ لأن عليهم أن يعلموا أولاً ما أمرتوا به فلا يتتجاوزوه .

* * *

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا نُنْصُرُونَ﴾ [هود: ١١٣]

الرکون هو الميل اليسير^(١) ، أي لا تميلوا إلى الذين ظلموا أدنى ميل^(٢) . وقال : ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل : (إلى الظالمين) أي لا تميلوا إلى من وقع منهم ظلم وإن لم يكن الظلم وصفاً ثابتاً فيهم .

وهذا نهي عظيم عن مداهنة الظالمين ، فقد نهى عن الميل اليسير إلى من وجد منهم ظلم فكيف بمن اتصف به على جهة الثبوت ، فكيف بتعظيمهم واتخاذهم أصحاباً وخلطاء ، وكيف باتخاذهم أولياء ! جاء في (روح المعاني) : «(الذين ظلموا) بمن وجد منه ما يسمى

(١) الكشاف ٢/١١٨ .

(٢) روح المعاني ١٢/١٥٤ .



ظلماً مطلقاً. قيل: ولإرادة ذلك لم يقل: إلى الظالمين»^(١).

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ﴾

فلا تظنوا أن الظالمين سيكونون أولياء لكم ، فإنهم ليسوا كذلك وما لكم من ولی من دون الله .

وأنتم لا تنصرون ما دمتم تركتون إلى الذين ظلموا.

وقال: ﴿مِنْ أُولَئِكَ﴾ ولم يقل: (من ولی) لأنه ذكر الذين ظلموا وهم جمع فناسب أن يذكر الأولياء .

وجاء بـ (من) الاستغرافية ليدل على أنهم ليس لهم ولی من دون الله على سبيل الاستغراف .

* * *

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ الَّيْلِ إِنَّ الْمَحْسَنَاتِ يُذَهِّنُنَّ الْسَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذِّكَرِيْنَ﴾ [هود: ١١٤]

إقامة الصلاة: أداؤها على تمامها والمداومة عليها.

والمراد بطرف النهار على ما قيل: الصبح والعصر ، وقيل: الصبح والمغرب^(٢).

والزلف: صلاة المغرب والعشاء^(٣) ، وقيل: هي صلاة العشاء ، ذلك أن معنى الزلف: الساعات القريبة من آخر النهار ، من أزلفه إذا قربه^(٤).

(١) روح المعاني ١٢/١٥٤ ، وانظر البحر المحيط ٥/٢٦٩.

(٢) روح المعاني ١٢/١٥٦.

(٣) الكشاف ٢/١١٨.

(٤) انظر الكشاف ٢/١١٨ وانظر روح المعاني ١٢/١٥٦.

وقيل : معنى (زلفاً) قُرْبًا ، والمعنى «وأقم زلفاً من الليل على معنى وأقم صلاة تقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل»^(١). وهي صلاة التهجد . وقيل المراد بها صلاة العشاء والتهجد ، وقد كان التهجد واجبًا عليه عليه السلام^(٢).

وهذا المعنى يناسب الأمر بصورة الإفراد في قوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ لأن التهجد كان واجبًا عليه وليس واجبًا على المسلمين . ولو قال : (وأقيموا) لكان التهجد واجبًا عليهم .

وقيل : إن هذا «من البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كانت عامة في المعنى .

والمناهي جمعت للأمة ، وما أعظم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا»^(٣).

يعني بالأوامر قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمْرَتَ﴾ ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ﴿ وَاصْبِرْ﴾ .

والمناهي قوله : ﴿ وَلَا تَغْفِرُ﴾ ﴿ وَلَا تَرْكُنْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ .

* * *

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ﴾

قال : (يذهبن) ولم يقل : (تذهب) ليبين أن الحسنات وإن كانت قليلة يذهبن السيئات . ولو قال : (تذهب) لدل على أن الحسنات إذا كانت كثيرة تذهب السيئات .

فإن النون في نحو هذا تفيد القلة ، والإفراد يفيد الكثرة كما هو معلوم .

(١) الكشاف ١١٨/٢ ، وانظر روح المعاني ١٢/١٥٦ .

(٢) انظر روح المعاني ١٢/١٥٦ .

(٣) روح المعاني ١٢/١٦٠ .



وقوله: ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ يدل أن ذلك يشمل عموم من اعظ وعمل بهذا وليس مخصوصاً بالرسول ﷺ.

فكل من تقرب إلى الله وعمل بهذا شمله قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ الْسَّيِّئَاتِ﴾.

* * *

﴿وَأَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]

﴿وَأَصِيرُ﴾ «أي على مشاق امثال ما كلفت به»^(١) من الاستقامة على ما أمر به وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات ، وعلى ما نهاه عنه .

وأطلق الأمر بالصبر ولم يقيده بشيء ليشمل كل ما يتضمن الصبر .

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه إيماء إلى أن الصبر من الإحسان^(٢).

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: (إن الله لا يضيع أجركم) أو أجر من فعل ذلك ونحوه للإطلاق وليشمل كل من فعل ذلك وكل محسن .

فدخل في ذلك كل من فعل هذا الفعل وكل من أحسن ، سواء فعل هذا الفعل أم غيره من وجوه الإحسان .

جاء في (روح المعاني): «وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف بذلك . وهو تعليل للأمر بالصبر»^(٣).

(١) روح المعاني ١٦٠ / ١٢ .

(٢) انظر روح المعاني ١٦٠ / ١٢ .

(٣) روح المعاني ١٦٠ / ١٢ .

قد تقول: لقد قال في آية سابقة من السورة: ﴿تَلْكَ مِنْ أَنْبَاءَ الْغَيْبِ
ثُوَّجِهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنَّتِ وَلَا قَوْمًا مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعِقْبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال هنا: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
فاختلت خاتمة كل من الآيتين ، فقال في الآية الأولى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ
الْعِقْبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقال في هذه الآية: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
فما السبب؟

فنقول: إن سبب الاختلاف بين الخاتمتين أن الآية الأولى ليس فيها
أمر بعمل ولا طلب بتکلیف ، فذكر أن العاقبة للمتقين ، أي للذين يتقوون
الله. ولو اتقى قوم نوح ربهم ما حل بهم ما حل .

ثم إنه أيضاً لم يذكر الأجر كما ذكر في الآية الثانية ، لأن الأجر إنما
يكون على العمل وهو لم يذكر عملاً في الآية.

هذا ومن ناحية أخرى أنه حيث ذكر عاقبة أهل الفلاح ذكر المتقين
والتفوي وذلك نحو قوله: ﴿وَالْعِقْبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، قوله: ﴿وَالْعِقْبَةُ
لِلْقَوْيَ﴾ ولم يذكر غيرهم من أهل الفلاح .

وأما في هذه الآية فإنه أمرهم بأوامر ونباههم عن نواه فناسب ذكر
الإحسان ، فإن من الإحسان ما يكون في العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد تقول: ولم يقل هنا: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ كما
قال في آية الكهف؟

فنقول: إن كل تعبير في مكانه أنساب ، فقد قال في الكهف: ﴿إِنَّ



الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً» فقد ذكر الذين عملوا الصالحات ، فناسب ذكر أجر من أحسن عملاً.

وأما في سياق آية هود فقد ذكر أعمالاً وذكر أموراً أخرى ليست أعمالاً ، فقد ذكر إقامة الصلاة والأمر بالصبر ، والصبر ليس عملاً.

وذكر من تاب فقال : «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ» والتوبة ليست عملاً ، وغير ذلك مما ذكر مما يناسب ذكر الإحسان.

وقال في الكهف : «أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً» فقال : (أحسن) بالفعل الماضي .

وقال في آية هود : «لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» فذكر المحسنين بالاسم ، والاسم يدل على الثبوت كما هو معلوم.

ذلك أنه قال في الكهف : «إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فقال : «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بالماضي ، فناسب أن يقول : «أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ» بالماضي .

وأما في هود فقد ذكر أموراً تدل على الدوام ، فقد قال : «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» والاستقامة إنما تكون على الدوام .

وقال : «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَقِ النَّهَارِ وَلِنَفَا مِنَ الْيَلِلِ» وإقامة الصلاة إنما تكون على الدوام والاستمرار .

وقال : (واصبر) وهو أمر بالصبر على وجه الدوام وعلى الإطلاق ، فناسب أن يذكر ما يدل على الثبات والدوام وهم المحسنون . والله أعلم .

* * *

«فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَيْتَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
فِيلَّا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَيْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُثْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْفُرَّارِيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٦ - ١١٧﴾ [هود: ١١٦ - ١١٧]

* * *

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا فَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

أي فهلا كان من الأمم التي قبلكم أولو فضل وخير ينهون عن الفساد في الأرض .

و(هلا) تفيد التحضيض والتنديم والتأسف والتحسر ، أي هلا فعلوا ذلك فلم يصبهم ما أصابهم .

والمعنى : ليتحسر عليهم العباد وليترجعوا عليهم لما أصابهم ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿يَحْسَرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ [يس: ٣٠].

جاء في (تفسير الشعالي) : «﴿لَوْلَا﴾ هي التي للتحضيض ، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد . وهذا نحو قوله سبحانه : ﴿يَحْسَرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ .

والقرون من قبلنا قوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره^(١) .

و(أولو بقية) «أولو فضل وخير ، وسمى الفضل وجود بقية ؛ لأن الرجل يستبني مما يخرجه أجوده وأفضلها فصار مثلاً في الجودة والفضل»^(٢) .

وفي قوله : ﴿بَقِيَّةٍ يَنْهَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ تحضيض لهذه الأمة وتنبيه لها لتفعل ذلك ، وتحذير لمن لم يفعل أن يصيدهم مثل ما أصاب الأولين .

(١) تفسير الشعالي ٣٠٧/٣ ، وانظر روح المعاني ١٢/١٦٠ .

(٢) الكشاف ١١٩/٢ ، وانظر البحر المحيط ٥/٢٧١ .



وقوله: ﴿يَنْهَاكُمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ مناسب لما جاء بعده وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِهُمْ لَكَ الْقَرَى بِطُلُمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ، فإن المصلح يصلح ما فسد.

* * *

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرِفُوا فِيهِ﴾

أي اتبعوا الشهوات وما أنعموا فيه.

وقال ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (تابع) للدلالة على المبالغة في ذلك.

وقال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (واتبع الناس) أو (أولئك) ليدل على أنهم فعلوا ذلك إضافة إلى ظلمهم.
وكل من الوصفين مدعوة إلى العقوبة.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي إضافة إلى ما مضى من الظلم واتباع الشهوات كانوا مجرمين «أي مرتكبي جرائم غير ذلك»^(١).
فذكر فيهم عدة مساوئ كل منها مدعوة إلى العقوبة.

١ - فقد قال: ﴿وَاتَّبَعَ﴾ أي بالغوا في الاتباع.

٢ - وقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فاتصفوا بالظلم.

٣ - وقال: ﴿مَا أَتَرِفُوا فِيهِ﴾ أي من التنعم واتباع الشهوات.

ولم يرد الإتراف في القرآن إلا وصفا سيئا مدعوة إلى العقوبة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفُوا فِي

(١) روح المعاني ١٦٢ / ١٢

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . [السجدة: ٣٣] وقال فيما قال في أصحاب الشمال:

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَرَفِّينَ [الواقعة: ٤٥].

وقال: **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَرَفِّهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْرُونَ** [المؤمنون: ٦٤].

وقال: **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** أي مرتكبي جرائم غير ذلك.

ووصفهم بالإجرام على جهة الثبوت فقال: **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**

فجاء بالاسم ليدل على ثبات هذا الوصف فيهم.

* * *

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [هود: ١١٧]

جعل ربنا الإصلاح عاصماً من الهلاك ، أي ما صح وما استقام أن يهلك ربنا القرى التي أهلتها أو غيرها من القرى (بظلم) أي ظالماً لها وأهلها مصلحون .

فإذا كان أهل القرى يتغاضون عن الإنفاق فيما بينهم فإن ربنا لا يهلكهم.

فإذا تظالموا أهلتهم كما قال: **وَمَا كَنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَلَمُونَ**.

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة الأنعام: **ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** [الأنعام: ١٣١].

قال في آية الأنعام هذه: **ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ**.

وقال في هود: **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقُرَىٰ**.

وقال في الأنعام: **وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**.

وقال في هود: **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**.



فلم ذاك؟

فنقول: إن آية الأنعام إنما هي في الآخرة والكلام على ما كان في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ يَمْعَشُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَّا يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مَنْ كُمْ يَقْصُرُونَ عَلَيْكُمْ إِيمَانِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَيْنَا أَنفُسُنَا وَغَرَّنَا حَيَّةٌ أَلْدُنْيَا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [١٣٢] ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهَلِّكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠ - ١٣١]

فالكلام على ما مضى فقال : ﴿ ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهَلِّكَ الْقُرَى ﴾ أي إن ذلك الأمر قد وقع لأنه لم يكن ربكم قد أهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، من دون إقامة حجة عليهم وإرسال الرسل إليهم . فذكر أنه بلغهم وأرسل الرسل إليهم وأقام الحجة عليهم ، وهم أقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم فاستحقوا العقوبة .

وأما آية هود فالكلام فيها على الدنيا .

وما ورد فيها عام يشمل الماضي والحال والاستقبال . فإن ربنا لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين .

قال تعالى : ﴿ أَلَّا يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَاصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبِيَّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبه: ٧٠].

وهذا في الأمم السابقة .

وقال : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الْطَّيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ [التوبه: ١٢٢].

وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ أَنَّهُ لِيغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء : ١٦٨] فالحكم عام كما ترى . وهو كذلك في آية هود يشمل جميع الأزمنة .

وأما خاتمة كل من الآيتين فهي مناسبة لسياق كل منهما .

فقد ختم آية الأنعام بقوله : ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ «لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإندار والتبليغ . قال تعالى : ﴿يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنَّهُ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ إِيمَانِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّنَا حَيَّةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْئَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام : ١٣١ - ١٣٢]

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإندار والتبليغ وبيان أنَّ الله لم يهلك أقواماً غافلين لم يُنذروا ولم يَكُلُّفُوا ، فإنَّ من لم يُنذر فهو غافل . قال تعالى : ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذَرَ أَبَأُوهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس : ٦] وما كان الله ليهلك مثل هذه الأقوام ، ولذا ختمها بقوله : ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ، ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْمُرْؤُنِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولَئِنَّ يَهْنَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [١١٦] وما كان ربُّك ليهلك الْقَرْئَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود : ١١٦ - ١١٧].

فناسب ختام كل آية السياق الذي هي فيه »^(١).

* * *

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْلِفِينَ ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ



وَلِذِكْرِ خَلْقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

[هود: ١١٩ - ١٢٠]

أي لو شاء ربك لجعل الناس ملة واحدة: ملة هدى أو ضلال ، ولكنه لم يشاً ذلك فكانوا مختلفين: بعضهم على هدى وبعضهم على ضلاله . وجاء باللام في جواب (لو) فقال: (الجعل) للتأكيد ؛ لأن ذلك مما يستحيل جمعهم عليه ، لكن الله لو شاء لفعل .

وقال: «وَلَا يَرَوُنَ مُخْتَلِفِينَ» ولم يقل: (وجعلناهم مختلفين) فأسند الاختلاف إليهم لا إليه سبحانه ، أي هم اختاروا ذلك فاختلفوا كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَاتَّخَذُوكُلُّهُمْ فَارِضاً» [يونس: ١٩] .

والمعنى : أنه لو شاء ربنا لجعل الناس ملة واحدة ولكنه لم يشاً ، فهم لا يزالون مختلفين إلا من رحمه الله فهداه إلى صراطه المستقيم .

وقوله: «وَلِذِكْرِ خَلْقَهُمْ» قيل فيه: إنه خلقهم للاختلاف .

وقيل: خلقهم لرحمته^(١) .

وقيل: خلقهم للاختلاف والرحمة .

جاء في (روح المعاني) أنه قيل: إن «الإشارة للرحمة والاختلاف ، أي لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم خلقهم .

وجاءت الإشارة لاثنين كما في قوله تعالى: «عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ»^(٢) .

والظاهر فيما ييدو لي - والله أعلم - أن قوله: «وَلِذِكْرِ خَلْقَهُمْ» يعني أنه خلقهم ليرحمهم ، ذلك أنه سبحانه ذكر أنه خلق الجن والإنس ليعبدوه ، قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالنَّاسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ» [الذاريات: ٥٦] .

(١) تفسير القرطبي ٩/١١٤.

(٢) روح المعاني ١٢/١٦٤.

أي خلقهم ليعبدوه فيرحمهم ، فإن في عبادته رحمتهم .

* * *

﴿ وَقَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وَقَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾

«أي نفذ قضاؤه وحق أمره» ^(١) .

وقوله : ﴿ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ مناسب لما تردد في السورة من ذكر الأمم المعدبة وقلة المؤمنين الناجين ، وهو وصف لعموم الناس كما قال تعالى : ﴿ وَلَنْكَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧] .

وقال : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْفَرُّوْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَبْنَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦] .

فناسب ذلك ذكر ملء جهنم .

وتقديم الجنة على الناس لأنهم سبب في كثير من معاصي الناس بما يosoون لهم ابتداء من إبليس مع آدم إضافة إلى معاصيهم هم .

قد تقول : لقد قال الله في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [٩٣] .

وقال هنا : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ .

فأسند المشيئة في آية النحل إلى الله فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، وأسندها في آية هود إلى الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ .

وقال في النحل : ﴿ لَجَعَلَكُمْ ﴾

وقال في هود : ﴿ لَجَعَلَ النَّاسَ ﴾



فما سبب ذلك؟

فنقول: إن الخطاب في سياق آية هود موجه إلى الرسول ﷺ. قال تعالى:

﴿فَلَا تُكُنْ فِي مَرْيَةٍ مَمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [١٠٩] ، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [١١٢] ، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ الظَّلِيلِ﴾ [١١٤] ، ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١١٥] ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقَرَى بِطُلْمٍ﴾ [١١٧] ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ [١١٨] ، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [١١٩] ، ﴿وَتَمَّتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ﴾ [١١٩] ، ﴿وَكُلُّ نَفْسٍ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَثِّلُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [١٢٠] ، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ [١٢٠] ، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِتِكُمْ﴾ [١٢١] ، ﴿فَأَعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [١٢٢] ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [١٢٣].

فناسب أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب، وأن يقول: ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ﴾.

وأما الخطاب في سياق النحل فللمخاطبين عموماً. قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [٩١] ، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [٩١] ، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [٩١] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَلَها﴾ [٩٢] ، ﴿نَتَخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ [٩٢] ، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبْلُوكُمْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْنِقُونَ﴾ [٩٢] ، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَيَحْدَةً﴾ [٩٣] ، ﴿وَلَتُشَعَّنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣] ، ﴿وَلَا تَنْخِذُوا أَيْمَنَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَنَزَلَ قَدْمَهُ بَعْدَ ثُبُورِهَا وَنَذَرُوا أَشْوَاءِ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٩٤] . . . إلخ.



فناسب أن يقول : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ وليس ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأن الخطاب ليس موجهاً إلى الرسول ، وأن يقول : (الجعلكم) لأن الخطاب موجه إليهم .

هذا إضافة إلى أن الكلمة (ربك) ترددت في هود أكثر مما ترددت في سورة النحل .

فقد وردت في سورة هود (١٧) سبع عشرة مرة .

ووردت في النحل (١١) إحدى عشرة مرة .

وأن الكلمة (الله) ترددت في النحل أكثر مما وردت في سورة هود .

فقد وردت في هود (٣٨) ثمانينًا وثلاثين مرة .

ووردت في النحل (٨٤) أربعينًا وثمانين مرة .

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى .

* * *

﴿وَكَلَّا نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نُثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]

أي نقص عليك كل نباً من أنباء الرسل ما فيه تثبيت لفؤادك وطمأنينة لقلبك ، فإنك ستعلم بذلك أنك لست الوحيد في عدم استجابة قومك لك ، بل ذلك شأن الأمم مع رسليهم فإنهم لاقوا الكثير منهم .

وقوله : ﴿مَا نُثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من (كلاً) ويحمل أوجهها إعرابية أخرى^(١) .

والإشارة بـ (هذه) يتحمل أن تكون إلى القصص وما جاء فيها من

(١) انظر تفسير القرطبي ١١٦/٩ ، روح المعاني ١٦٧/١٢ .



الأنباء ، ويحتمل أن تكون إلى السورة أو الإشارة إليها مع نظائرها^(١) .

وعرف (الحق) لأن الحق المعلوم الذي لا حق سواه.

ونكر الموعظة والذكرى لأنهما قد يكونان في غير ما ذكر مما يتعظ به الناس ويكون لهم به ذكرى .

فالموعظة والذكرى قد تتعدد ، أما الحق فواحد .

جاء في (روح المعاني) أنه قيل : «الظاهر أن يقال إنما عرف الأول لأن المراد منه ما يختص بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما الموعظة والتذكير فأمر عام لم ينظر فيه لخصوصية»^(٢) .

* * *

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلْوَنَا ﴾ [١١]

[هود: ١٢١ - ١٢٢]

أي اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها فإننا عاملون على ما نحن عليه . فكل منا ومنكم يعمل على حالته .

وانظروا ما سيحصل لنا ونحن ننتظر ما يحيق بكم ، وسترون ونرى عاقبة كل منا ومنكم .

وقدم العمل على الانتظار لأن العمل يسبق العاقبة .

وقال هنا : ﴿ إِنَّا عَمِلْوَنَا ﴾ ، وقال في فصلت : ﴿ إِنَّا عَمِلْوَنَا ﴾ بالفصل بين (إن) و(نا) ، ذلك أنه فصل في ذكر إعراضهم وزاد فيه فقال : ﴿ وَقَاتَلُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْيَنَةٍ مَمَّا دَعَوْنَا إِلَيْهِ وَفِيءَ اذَانَنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنِكَ جَحَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلْوَنَا ﴾ [فصلت: ٥] .

(١) انظر روح المعاني ١٦٧/١٢ .

(٢) روح المعاني ١٦٧/١٢ .

فلما ذكر زيادة إعراضهم وفصل فيه بقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُونَا فِي أَكْنَةٍ مِّمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ، ﴿وَفِي إِذَا نَا وَقْر﴾ ، ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ زاد في التعبير والتوكيد ، فناسب كل تعبير موضعه والله أعلم .

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿قُلْ يَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام: ١٣٥] ، الزمر: ٣٩

وقال على لسان سيدنا شعيب: ﴿وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِيلٌ﴾ [٩٣]

فقال: ﴿إِنِّي عَمِيلٌ﴾ بالإفراد .

وقال هنا: ﴿إِنَا عَمِيلُونَ﴾ بالجمع .

فلم ذاك؟

فنقول: كل ما ورد فيه: (إنني عامل) فالسياق في مقام المتكلم المفرد وليس في مقام الجمع ، وأما المخاطبون فهم جمع .

فلم يذكر في سياق آية الأنعام من آمن معه ، فقد قال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ
ذُو الرَّحْمَةِ إِنِّي شَاكِرٌ لِّذِهَبِكُمْ وَيَسْتَخِلْفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
أَشَاكُمْ مِنْ دُرِّيَّةِ قَوْمٍ إِخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا آتُمْ
يُمْعَجِزُونَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
تَكُونُ لِهِ عِنْقَبَةُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٥]

وكذلك ما جاء في سورة الزمر فقد قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُوا اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ فِي اللَّهِ
بِطْرٍ هَلْ هُنَّ كَائِفُونَ صُرُوفٌ أَوْ أَرَادَ فِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكُونَ رَحْمَتِهِ قُلْ
حَسْبِيُّ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ يَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ إِنِّي
عَمِيلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُحْزِيَهُ﴾ [الزمر: ٣٨ - ٤٠]



وكذلك ما ورد على لسان سيدنا شعيب فالخطاب إنما هو خطاب شعيب لقومه ولم يذكر من معه فقد قال: ﴿وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَلِيلٌ﴾ [هود: ٩٣].

أما آية هود التي ذكر فيها (إنا عاملون) فالسياق في ذكر المؤمنين مع الرسول ﷺ. فقد قال: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغُوا إِنَّهُ يَمْأُلُونَ بِصَرِيرٍ ﴿١١﴾ وَلَا تَرْكُوْا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنَصِّرُونَ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]

وقال: ﴿وَجَاءَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِدَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] فناسب أن يقول: (إنا عاملون) بالجمع.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿وَلَلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَنِيٌّ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]

بعدما طلب منهم الانتظار قال: ﴿وَلَلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك لأن عاقبة الانتظار من الغيب.

وقدم الجار والمجرور (الله) للدلالة على الحصر ، فإنه لا يعلم الغيب إلا هو .

ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فهو عالم الغيب وهو الحاكم وال قادر فلا يقطع أمراً أحد دونه .

فعملنا و عملكم مرجعه إليه ، وهو وحده الذي يقطع بالأمر ويقضي فيه .

وقدم الجار والمحجور (إليه) ليدل على أن ذلك إليه حصرًا لا إلى غيره.

وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ على سبيل الاستغراب لا يقطع أحد غيره في شيء من ذلك مهما كان حقيرًا أو عظيمًا.

فجمع في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ العلم المطلق والقدرة المطلقة والحكم المطلق كل ذلك له حصرًا.

﴿فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فالذي له الغيب والقادر على كل شيء والذى يرجع إليه الأمر كله هو من يستحق العبادة وحده فاعبده وتوكل عليه.

وقدم العبادة على التوكل؛ لأن التوكل لا ينفع من دونها فهى المطلب الأول. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم قال:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي إنا ربنا ليس غافلاً عما نعمل ، فهو يراقبنا ويعلم ما نعمل غير غافل عنه ولا يتضرر أن يرفع إليه الأمر ليعلم ماذا حصل.

فقد يظن ظان أن ربك يقطع بالأمر بعد أن يرفع إليه ويعلم به فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ليدفع هذا الظن ، فهو يعلم ما نعمل الآن وفي المستقبل.

لقد قال أولاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجاء باسمه العلم ، ثم قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب ليدل على أن ربه هو الله الذي له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . فهو الذي أرشدك وهداك وأمرك بعبادته والتوكيل عليه.

وفي ذلك إلماح إلى نصره في الدنيا والآخرة والله أعلم.

جاء في (البحر المحيط): «﴿وَلِلّهِ غَيْرُ الْمُسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾

والجملة الأولى: دلت على أن علمه بجحظ جميع الكائنات كليها وجزئيتها ، حاضرها وغائبها ، لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط ، إذ علمه تعالى لا يتفاوت.

والجملة الثانية: دلت على القدرة النافذة والمشيئة.

والجملة الثالثة: دلت على الأمر بإفراد من هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية ، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد.

والجملة الرابعة: دلت على الأمر بالتوكل ، وهي آخرة الرتب لأنه بنور العبادة أبصر .

إن جميع الكائنات معدوقة بالله تعالى ، وأنه هو المتصرف وحده في جميعها لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه فوكل نفسه إليه تعالى . . .

والجملة الخامسة: تضمنت التنبية على المجازاة فلا يضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال متمرد»^(١).

• • •

(١) البحر المحيط ٢٧٥/٥.

مِنْاجَعُ الْكِتَابِ

- الإنقاذ في علوم القرآن للسيوطى ط ٣ / ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر
- أسللة بيانية في القرآن الكريم - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير سوريا ، الطبعة الثانية ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوى - المطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ
- البحر المحيط لأبى حيان ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ - مطبعة السعادة بمصر
- البرهان في متشابه القرآن لمحمد بن حمزة الكرمانى
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
- التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه
- تفسير الشعالي - عبد الرحمن بن محمد الشعالي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.



- تفسير فتح القدير للشوكاني ط ١ / مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٤٩
- تفسير القرطبي .
- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر
- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - فاضل صالح السامرائي - دار الفكر عمان - الأردن
- حاشية ابن المنير على الكشاف - بهامش الكشاف للزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م
- حاشية الدسوقي على مغني اللبيب - مكتبة وطبعه المشهد الحسيني بمصر
- حاشية الصبان على شرح الأشموني - دار إحياء الكتب العربية
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسکافي منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ١ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية
- شرح رضي الدين الاسترابادي على الكافية - مطبعة (الشركة الصحفية العثمانية) سنة ١٣١٠ هـ
- على طريق التفسير البیانی - فاضل صالح السامرائي - نشر جامعة الشارقة - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة .
- القاموس المحيط لمجد الدين الفیروزابادی ط ٥ - شركة فن الطباعة - مصر

- الكشاف للزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م
- لسان العرب لابن منظور - مصور على طبعة بولاق
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.
- المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت .
- معاني الأبنية في العربية - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.
- معاني القرآن للفراء - مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م
- معاني التحو - فاضل صالح السامرائي - مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر - الموصل - العراق
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - طهران
- ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- من أسرار البيان القرآن - فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن - الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
- نبوة محمد من الشك إلى اليقين - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.



رابط بديل
lisanerab.com



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



فهرست سورة هود

الرقم	النص القرآني	الصفحة
١	الرَّبُّ كَيْنَبِ أَحْكَمَتْ إِيمَانُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنَ الدُّنْدُنْ حَكِيمٌ خَيْرٌ ﴿١﴾	٥
٢	أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لِكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾	٩
٣	وَإِنْ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ شَمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمْنَعُكُمْ مَنْعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِنْ تَوَلُوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ كَبِيرٌ ﴿٣﴾	١٢
٤	إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾	١٦
٥	أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ شَيَّابُهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرِوْنَ وَمَا يُعْلَمُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْأَصْدُورِ ﴿٥﴾	١٩
٦	وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْنَفَرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَبٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾	٢٥
٧	وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحَسَنُ عَمَالًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْغُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾	٣٠



- ٨
- ﴿ وَلَيْنَ أَخَرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَمْتَهُ مَعْدُودَةٌ لِّيَقُولُنَّ مَا يَحِسْهُهُ ؛ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ ﴾ ٣٣
- ٩
- ﴿ وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنَارَ حَمَّةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَقُولُنَّ كَفُورٌ ﴾ ٣٦
- ١٠
- ﴿ وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ أَسْسِيَاتٌ عَنِّي إِنَّهُ لَفِرْ فَحُورٌ ﴾ ٣٩
- ١١
- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ٤٩
- ١٢
- ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَاقِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا تُلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ ﴾ ٤٤
- ١٣
- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنِهُ قُلْ فَأَقْتُلُ بِعَشْرِ سُورٍ مُّثْلِهِ، مُفْرَرِيَتِي وَأَدْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَنِدِيقِنَ ﴾ ٤٨
- ١٤
- ﴿ فَإِلَمْ يَسْتَجِبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ٤٨
- ١٥
- ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَهَا نُوقِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَعْبُسُونَ ﴾ ٥١
- ١٦
- ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا أَنَّا سَارُ وَحَيْطَمَا صَنَعْوَا فِيهَا وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٥١

- ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بِيَنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ وَيَتَلُو شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُنْ فِي مُرَايَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٧
- ٦١
- ﴿ وَمَنْ أَظَمَّ مِنِّي أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَرَّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هُنُّ لِأَذْلِيلِنَّ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ١٨
- ٦٨
- ﴿ الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْمَلُونَ عِوْجَانًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كُفَّارُونَ ﴾ ١٩
- ٦٨
- ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَائِهِ مَنْ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعِذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ ﴾ ٢٠
- ٧٣
- ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ٢١
- ٧٣
- ﴿ لَا جَرْمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ ٢٢
- ٧٨
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءاْمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا حَلِيلُونَ ﴾ ٢٣
- ٨٢
- ﴿ مَثُلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثْلًا أَفَلَا نَدَّكُرُونَ ﴾ ٢٤
- ٨٢
- قصة نوح (عرض عام)
- ٨٥
- ذكر الدعاء في القصة
- ٩٦



٩٩	ذكر الناجين
١٠٢	خاتمة قصة نوح
١٠٧	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾
١٠٧	﴿ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾
١١١	﴿ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوكُمْ بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَيْنَانِا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِيلِينَ ﴾
١١٤	﴿ قَالَ يَقُولُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّتٍ مِّنْ رَّبِّي وَإِنَّنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعَيْمَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلَبِنِمَكُومُهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَدِرِهُونَ ﴾
١٢٠	﴿ وَيَنْقُومُ لَا أَسْلَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ آجِرِيٌ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٌ لِلَّذِينَ إِمْسَأْنَاهُمْ مُّلْقُوْرَبِهِمْ وَلَنَكِنْتُ أَرِكُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴾
١٢٠	﴿ وَيَنْقُومُ مَنْ يَنْصُرُ فِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرِدُهُمْ أَفَلَا نَذَكَرُونَ ﴾
١٢٧	﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَانَاتٍ اللَّهُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرُونَ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمْ يَأْتِ الظَّالِمِينَ ﴾
١٣٤	﴿ قَالُوا يَسُوعُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكَثَرْتَ جِدَلَنَا فَإِنَا إِمَّا تَعْذُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴾
١٣٥	﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْيِكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ ﴾
١٣٨	﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِحُ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغُويْكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

- ٣٥ أَمْ يَقُولُونَ كَأَفْرَدَهُ قُلْ إِنْ أَفْرَدَتْهُ فَعَلَى إِجْرَاءِي وَأَنَا
١٤١ بَرِيءٌ مِّمَّا تُحْرِمُونَ ﴿١﴾
- ٣٦ وَأُوحِيَ إِلَيَّ نُوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ بِمِنْ قَوْمَكَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ أَمَانَ
١٤٣ فَلَا تُنَبِّئُنِّي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢﴾
- ٣٧ وَاصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
١٤٦ إِنَّهُمْ مُغْرَفُونَ ﴿٣﴾
- ٣٨ وَيَصْنَعْ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمَهُ سَخِرُوا
١٤٩ مِنْهُ قَالَ إِنَّ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخُرُ مِنْكُمْ كَمَا سَخَرُونَ ﴿٤﴾
- ٣٩ فَسُوقَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيَهُ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْلِ عَلَيْهِ عَذَابٌ
١٤٩ شَقِيقٌ ﴿٥﴾
- ٤٠ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرًا وَفَارَ الْتَّثْوِيرُ قُلْنَا أَخْيَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمَنَ وَمَا
١٥٤ إِمَانُ مَعْهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٦﴾
- ٤١ وَقَالَ أَرْكَ كَوْا فِيهَا إِسْرِيْلَ اللَّهُ يَعْبُدُهَا وَمُرْسَنَهَا إِنَّ رَبَّي
١٥٦ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾
- ٤٢ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحَ أَبْنَهُ وَكَانَ
١٦١ فِي مَعْزِلٍ يَبْنُى أَرْكَ بَمَعْنَا وَلَا تَكُونُ مَعَ الْكُفَّارِ ﴿٨﴾
- ٤٣ قَالَ سَائِوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ
١٦٢ الْمُعْرَقِينَ ﴿٩﴾
- ٤٤ وَقَيلَ يَتَأْرِضُ أَبْلَعِي مَاءً كَوْ دَسَمَاهُ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ
١٦٥ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجَوْدِي وَقَيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾



- ٤٥
- ﴿ وَنَادَىٰ رُوحٌ رَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِيٰ وَإِنَّ وَعْدَكَ
الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾
- ٤٦
- ﴿ قَالَ يَسْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا
تَشْأَلْنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾
- ٤٧
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴾
- ٤٨
- ﴿ قِيلَ يَسْوُحُ أَهْبِطِ إِسْلَامِ مِنَابِرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمُّهِ مَمَّنْ
مَعَكَ وَأُمُّهُ سَنْمِعُهُمْ ثُمَّ يَمْسِهُمْ مِنَاعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾
- ٤٩
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْغَيْبِ نُوَحِّيَهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا إِنَّ الْعَرْقَبَةَ لِلْمُنْقَيِّنَ ﴾
- ٥٠
- قصة هود
- ٥١
- ١٩٧ تذكيرهم بالنعم
- ٥٢
- ٢٠٣ العاقبة والهلاك
- ٥٣
- ٢٠٤ قصة هود
- ٥٤
- ٢٠٨ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾
- ٥٥
- ٢١٠ ﴿ يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي
فَطَرَنِي أَفَلَا تَقْعِدُونَ ﴾
- ٥٦
- ٢١٢ ﴿ وَيَنْقُومُ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ ثُمَّ ثُوَّبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدَارًا وَيَزِدُّكُمْ فُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا نَثُولُوا
بُحْرِمِينَ ﴾
- ٥٧
- ٢١٣ ﴿ قَالُوا يَهُودٌ مَا جَعَنَنَا بَيْنَهُ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَّةِ الْهَنْدِ
عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

<p>﴿ إِن تَقُولُ إِلَّا أَعْرَدَكَ بَعْضُ أَهْلَنَا بِسُوْءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشَرِّكُونَ ﴾</p> <p>﴿ مِنْ دُونِنِي فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نُنْظَرُونَ ﴾</p> <p>﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطِ مُّسْتَقِيمٍ ﴾</p> <p>﴿ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقَدْ أَنْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَحْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴾</p> <p>﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرًا نَجَّيْتُهَا هُودًا وَالَّذِينَ أَمْمَوْا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنْتَا وَنَجَّيْتُهُمْ مِّنْ عَذَابٍ عَلِيِّطٍ ﴾</p> <p>﴿ وَتَلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِإِيمَانِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رَسُولَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَارٍ عَنِيدٍ ﴾</p> <p>﴿ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الْدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٌ قَوْمٌ هُوَيْدٌ ﴾</p>	<p>٥٤</p> <p>٥٥</p> <p>٥٦</p> <p>٥٧</p> <p>٥٨</p> <p>٥٩</p> <p>٦٠</p>
<p>قصة صالح (عرض عام)</p> <p>الدعوة</p> <p>تذكيرهم بالنعم</p> <p>البينة على صدقه</p> <p>الموقف</p> <p>الختامة</p> <p>النجاة</p>	
<p>﴿ وَإِنِّي نَمُوذَأَخَاهُمْ صَلِحَّا قَالَ يَقُولُمْ أَعْبُدُو اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾</p>	<p>٦١</p>
<p>٢١٦</p> <p>٢١٦</p> <p>٢١٧</p> <p>٢١٩</p> <p>٢٢١</p> <p>٢٢٤</p> <p>٢٢٧</p> <p>٢٣٣</p> <p>٢٤٠</p> <p>٢٤٢</p> <p>٢٤٤</p> <p>٢٤٦</p> <p>٢٥١</p> <p>٢٥٣</p> <p>٢٥٤</p>	



- ﴿ قَالُوا يَصْلِحُ فَذَكَرَتِنَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَنَا أَنْ تَعْبُدَ
مَا يَعْبُدُءِ إِبَّا فُوقَنَا وَإِنَّا لِنَفِى شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ ٦٢
٢٥٥
- ﴿ قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى بِسْتَةٍ مِنْ رَقِّ وَأَتَنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُ فِي مِنْكَ اللَّهُ إِنْ عَصَيْنَاهُ فَمَا تَرِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ ٦٣
٢٥٦
- ﴿ وَنَقَوْمٌ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ إِيمَانُهُ فَذَرُوهَا تَأْكُلُ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَءٌ فَإِنَّهُ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ٦٤
٢٥٨
- ﴿ فَعَرَوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَامٍ ذَلِكَ
وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ ٦٥
٢٦٠
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَبَيَّنَا صَلَحًا وَالَّذِينَ أَمْنَوْا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنْنَا وَمِنْ خَزْنِي يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوْيُ الْعَزِيزُ ﴾ ٦٦
٢٦٠
- ﴿ وَلَخَدَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ
جَحِشِينَ ﴾ ٦٧
٢٦٢
- ﴿ كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ شَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا
لِشَمُودٍ ﴾ ٦٨
٢٦٣
- قصة إبراهيم ٢٦٥
- جانب من التفسير البayanى ٢٧١
- ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتِ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ
سَلَمٌ فَمَا لِيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ ٦٩
٢٧١
- ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيهِمْ لَا تَنْصُلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ قَوْمٌ لُوطٌ ﴾ ٧٠
٢٧٤

وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ	٧١
قَالَتْ يَوْمَ لَقَاءَ أَلَّدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَّىءٌ عَجِيبٌ	٧٢
قَالُوا أَتَعْجِبُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجَيدٌ	٧٣
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتِهِ الْبُشْرَى يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ	٧٤
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّلَهُ مُنْبِتٌ	٧٥
يَتَأَزَّرُهُمْ أَعْرِضُ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرَ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ مَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُوفٍ	٧٦
نَظَرَةٌ بِيَانِيَّةٌ فِي هَذِهِ الْقَصَّةِ	
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّدَهُمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرَّاعَا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ	٧٧
وَجَاءَهُ قَوْمٌ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ أَسْيَاطًا قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَانْقُوْا أَلَّهُ وَلَا تُخْرُونَ فِي ضَيْقٍ أَلَّا يَسِّرْ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ	٧٨
قَالُوا لَقَدْ عِلِّمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ	٧٩



٣٠٦	﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ أَوْيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾	٨٠
	﴿ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلٌ رِّيلَكَ لَنْ يَصْلُوَا إِلَيْكَ فَأَشِرْ بِأَهْلِكَ يُقْطِعُ مِنَ الْيَنِيلِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبُحُ أَلَيْسَ الصُّبُحُ بِقَرِيبٍ ﴾	٨١
٣٠٨	﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيهَا سَافِهَاهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنْضُودٍ ﴾	٨٢
٣١٠	﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رِيلَكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾	٨٣
٣١٢	قصة مدين وشعيب	٩٥/٨٤
٣١٥	قصة موسى	٩٩/٩٦
٣٢٩	﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾	١٠٠
٣٣٤	﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالَّهُمُّ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُ رِيلَكَ وَمَا زَادُهُمْ عَبَرَ تَنَيِّبٍ ﴾	١٠١
٣٣٥	﴿ وَكَذِلِكَ أَخْذُرِيلَكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرْآنِ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنْ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾	١٠٢
٣٣٨	﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾	١٠٣
٣٣٩	﴿ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْذُودٍ ﴾	١٠٤
٣٤٠	﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴾	١٠٥
٣٤٠	﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾	١٠٦

- ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ١٠٧
- ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ ١٠٨
- ﴿ فَلَا تُكَفِّرْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ وَإِنَّ الْمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْفُوصٍ﴾ ١٠٩
- ﴿ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِسِّ﴾ ١١٠
- ﴿ وَإِنَّ كُلَّا لِمَائِيَّوْقِيْهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ يَعْمَلُونَ حَسِيرًا﴾ ١١١
- ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَنْطَعُوا إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ١١٢
- ﴿ وَلَا تَرْكُونَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَقَمْسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ ١١٣
- ﴿ وَأَقِمِ الْأَصْلَوَةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ الْيَلِّ إِنَّ الْحَسَنَاتِ
يُدْهِنُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُى لِلذَّاكِرِينَ﴾ ١١٤
- ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ١١٥
- ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولَوْا بِقِيَةً يَنْهَا نَحْنُ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا كَجِنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَثُرُوا بِمُجْرِمِينَ﴾ ١١٦
- ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصلِحُونَ﴾ ١١٧
- ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١١٨



- | | | |
|-----|---|-----|
| ٣٦٨ | <p>﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ
لَا مَلَائِكَةَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾</p> | ١١٩ |
| ٣٧١ | <p>﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا مُشِّيَّطٌ بِهِ، فُوَادَكَ وَجَاءَكَ
فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾</p> | ١٢٠ |
| ٣٧٢ | <p>﴿ وَقُلْ لِلنِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَا كَانَتِكُمْ إِنَّا عَدِيلُونَ ﴾</p> | ١٢١ |
| ٣٧٢ | <p>﴿ وَأَنْتَرِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾</p> | ١٢٢ |
| ٣٧٤ | <p>﴿ وَإِلَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَنِيٌّ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾</p> | ١٢٣ |
| ٣٧٧ | المراجع | |
| ٣٨١ | فهرست سورة هود | |

* * *